سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

الاحتلال الاستيطاني

وسياسة الرومنة

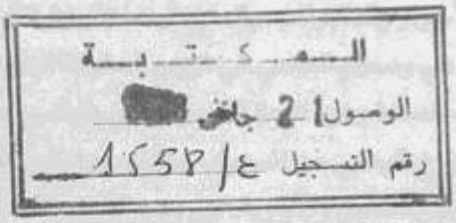

رئيس المشروع : د. شافية شارن

الأعضاء :

د. بلقاسم رحماني

أ. محمد الحبيب بشاري

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة
الذكرى الـ 45 لعيد الإستقلال والشباب

منشورات المركز الوطني للدرسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

© المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية
وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

تدمك : 1 - 42 - 846 - 9961 - 978
الإيداع القانوني 1592 - 2007

جميع الحقوق محفوظة.

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتأريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصّة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقّق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها و علا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب، وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها .

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة ومعها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها.

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني الجديد، إلا أن نوعية مشاركتنا

وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة التي تجعلهم يشاركون ولا يذوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكوناً بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات و احتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال .

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

السيد : محمد الشريف عباس

تقديم بقلم مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة: أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب و المباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد محمد الشريف عباس، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون ،وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

مقدمة

توافدت على المغرب القديم : قرطاجة نوميديا وموريطانيا وليبيا، شعوب كثيرة، في مقدمتهم الفنيقيون الذين أسسوا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد محطات تجارية على سواحل البحر المتوسط الغربي، والتي عن طريقها أقاموا علاقات تجارية مع الأهالي.

بعد سقوط فنيقيا، بزغ نجم قرطاجة كقوة اقتصادية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد بلغت أوج ازدهارها في القرن الخامس قبل الميلادي، وهو التاريخ الذي برزت فيه قوة جديدة في حوض المتوسط، حاولت أن تقف في وجه قرطاجة، وهي قوة الإغريق. الذين دخلوا معها في صراع دام من 550 إلى سنة 278 ق.م. بسبب جزيرتي صقلية وكورسيكا، وما أن اختفت قوة الإغريق، حتى برزت قوة ثانية في الحوض الغربي للمتوسط وهي قوة روما التي ما ان هيمنت على شبه جزيرة ايطاليا في سنة 272ق.م. حتى أعلنت الحرب على قرطاجة في سنة 264ق.م. بسبب تغلغل هذه الأخيرة في صقلية، التي أصبحت ضمن أطماعها التوسعية.

بعد صراع مرير وطويل بينهما، تمثل في الحروب البونية الثلاثة التي امتدت من 264ق.م إلى 146ق.م. انتصر فيها الرومان على قرطاجة، واحتلت الأراضي التابعة لها، كما احتلت بلدان متوسطية أخرى.

لقد كان وراء استيلاء روما على هذه البلدان دوافع اقتصادية وسياسية واجتماعية، أما الأولى فتتلخص في تراجع الزراعة في شبه جزيرة ايطاليا. وفي أطماع الرومان في خيرات المقاطعات، أما الدوافع السياسية والاجتماعية فيمكن

حصرها في التخلص من الفيئات الاجتماعية التي تهدد الاستقرار في روما وخاصة العاطلين منهم وقدماء المحاربين، وضمان رجال الساسية والقادة العسكريون مصادر مالية يستغلونها في شراء ذمم الشعب الروماني، وبالتالي ضمان مناصبهم.

صراع حضاراتي قرطاجة ذات الصبغة الشرقية والحضارة الرمانية ذات الصبغة الغربية.

مر الاحتلال الروماني لبلدان المغرب بمراحل عديدة برزت خلالها مظاهر المقاومة الإفريقة.

ففي الفترة الممتدة بين 133 ق.م و 121 ق.م طالب الاخوان جراخوس بتحديد الملكيات الزراعية، بسبب الأثر السلبي للمساحات الكبرى على مردود الأرض، وكذلك بسبب حالة المزارعين الصغار المادية، وفي هذا السياق تم تأسيس مستعمرة رومانية في مكان قرطاجة تقريبا هي مستعمرة اينونيا، والتي هجّر إليها عدد كبير من المعمرين الرومان.

ومن عام 39م. إلى 68م. شهدت بلدان المغرب القديم تغيرات إقليمية وسياسية، استمرت فيها سياسية الاستطان التي تصدت لها ثورات عديدة من أهمها ثورة تاكفريناس التي دامت سبع سنوات، شاركت فيها قبائل إفريقية عظيمة.

وفي الفترة الممتدة من 69م. إلى 193م. شمل الاحتلال الأراضي الداخلية حيث فتحت روما الطرقات وأنشأت المستعمرات، وبنت المعسكرات. أما في عهد الأسرة السيفرية (193 -235)، وصل الغزاة إلى الأراضي الإفريقية الجنوبية. وأقامو خط الليمس (Limes). لكن الأمور لم تستمر على هذا المنوال. فابتداء من منتصف القرن الثالث عمت الفوضى السياسية والعسكرية، مختلف أرجاء الإمبراطورية بسبب تصارع القادة الرومان على السلطة، وقد استغل سكان الولايات الوضع الصعب الذي كانت تمر به روما للثورة ضدها وفي خضم هذه الأوضاع المزرية، تفشت الأمراض وحلّ زلزال شجع القوط والوندال على إسقاط الإمبراطورية الرومانية، بعد سياسة الإستطان، عمدت روما رلي تطبيق سياسة الرومنة بهدف طمس المقومات الشخصية للشعوب المهزومة بمختلف الطرق : عن طرق الجيش والسلام الروماني (Pax romana)، والنظم بمختلف أنواعها.

المدخل

أوضاع بلدان المغرب القديم قبل الاحتلال الروماني

أولا : أوضاع قرطاجة منذ تأسيسها حتى عشية الاحتلال الروماني 814 ق.م./ 146 ق.م.

تردد الفنيقيون منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد؛ بفضل أسطولهم البحري والتجاري على سواحل المتوسط، عبر محطات عديدة قصد ممارسة التجارة، وقد كانت أتيكا (Utique) أول محطة أسسوها على السواحل الشمالية الشرقية للمغرب القديم في عام 1100 ق.م.، تلتها محطة قرطاجة التي أسستها الأميرة الصورية ديدون (Didon) أو عليسة (Elissa) في عام 814 ق.م. بعد خلافها مع أخيها الملك بيغماليون (Pygmalion)، 774/821 ق.م.، وبعد اتفاقها مع الملك الليبي للإقليم هيارباص (Hiarbas) على منحها قطعة أرض تقيم عليها مستوطنة.

وقد ضمت قرطاجة في ظل حكم التجار والإقطاعيين والضباط الساميين والكهنة، كل المراكز التجارية المتوسطية التي كانت تابعة لصور، بما في ذلك المحطات الساحلية الليبية الممتدة من مدينة لبدة (Oea) شرقا إلى غاية الصويرة (Mogador) على سواحل المحيط الأطلسي غربا، كطرابلس بالنسبة لليبيا وسوسة (Hadrumentum) وأتيكا في تونس والقل وجيجل ومدينة الجزائر (Icosium) وتيبازة وقوراية بالجزائر ومليلة وطنجة بالمغرب الأقصى (الخريطة رقم 1).

لم تكتف قرطاجة بضم المحطات الفينيقية المغاربية سابقة الذكر، بل وجهت أنظارها إلى المراكز المتوسطية الإستراتيجية اقتصاديا أو جغرافيا، وفي هذا السياق استولت على جزيرة إبيزا (Ibiza) بجزر البليار الهامة بإنتاجها الزراعي وثروتها السمكية من جهة، والقريبة من جزيرتي صقلية وسردينيا، وكذلك إقليم إسبانيا الغني بمعدن النحاس والفضة الضرورين لأسطولها البحري من جهة أخرى.

المحطات التجارية القرطاجية على سواحل المغرب القديم

وفيما بين عامي 550 و278 ق.م. وبعد دخولها في صراع مرير مع روما حول جزيرة صقلية، سيطرت قرطاجة على هذه الجزيرة التي تعد إحدى أهم المحطات التجارية في البحر المتوسط نظرا لموقعها الجغرافي الممتاز، فهي تتوسط حوض المتوسط من جهة، ولأهميتها الزراعية بحيث تشتهر بإنتاج القمح ذي الجودة العالية آنذاك، ومنذ ذلك الحين وحتى عشية اندلاع الحرب البونية الأولى، ظلت قرطاجة تهيمن على حوض المتوسط بفضل أسطولها البحري العسكري والتجاري. (الخريطة رقم 2)

لكن لم تكن الأمور في تلك الفترة بقرطاجة هادئة ومستقرة، ذلك أنها عرفت أزمة حادة كادت أن تعصف بكيانها. فقد تعرضت سنة 397 ق.م. إلى ثورة عنيفة تزعمها المرتزقة الليبيون اختلف المؤرخون حول أسباب قيامها، بحيث أعادها البعض إلى تراجع القرطاجيين عن دفع أجور هؤلاء بعد انتصارهم على الإغريق في صقلية، وذهب البعض الآخر إلى القول أن السبب يكمن في أن قرطاجة سلمت هؤلاء كعبيد إلى دنيس دي سيراكوزة (Denis de Syracuse) (367/430ق.م.) طاغي سيراكوزة عقب انهزامهم أمامه. وعلى العموم انتهت هذه الحرب في 305 ق.م. لصالح قرطاجة بعد نقل أغاتوكل (Agathocle) ملك سيراكوزة الحرب إلى أتيكا وبنزرت (Hippo–Diarrhytus) بإفريقية وانهزامه.

في هذه الفترة ترعرعت في شبه جزيرة إيطاليا الدولة الرومانية، وأقامت علاقات مع قرطاجة، نظمتها ثلاث معاهدات عسكرية وتجارية : الأولى تعود إلى عام 509 ق.م. والثانية إلى عام 348 ق.م. وتمت الثالثة في 278 ق.م.، حدد من خلالها الطرفان مناطق نفوذهما في بلدان المغرب القديم وشبه جزيرة إيطاليا وجزيرة صقلية من جهة، وضبطا شروط التعامل التجاري مع حلفائهما من جهة أخرى[1].

ورغم أن العلاقة بينهما تميزت منذ البداية بالمد والجزر حيث كانت لصالح قرطاجة تارة ولصالح روما تارة أخرى، لكن منذ عام 343 ق.م خيم توتر حاد على العلاقة بين الطرفين، بعد أن استولت روما على سهل كمبانيا (Campagnie) الإيطالي الواسع والخصب، وبعد أن فرضت سيطرتها على كل إقليم شبه جزيرة

خريطة الأراضي القرطاجية Gsell (s), HAAN. t,III, P97

إيطاليا سنة 272 ق.م.، وبروزها كقوة قارية في شمال غرب البحر المتوسط كما سيلي ذكره.

وقد استطاعت روما ؛ بعد بسط نفوذها في شبه جزيرة إيطاليا بإخضاعها لسلطتها كل القبائل الإيطالية ؛ أن توجه أنظارها خارج حدودها، وتمكنت من فرض وجودها في المنطقة بإعلانها الحرب البونية الأولى على قرطاجة بين سنتي 241/264 ق.م. بسبب مضيق ميسانا (Messine) الحيوي، الذي كان ضمن أطماعها التوسعية، وقد انتهت هذه الحرب ظاهريا لصالح روما، لكن سرعان ما أدرك الطرفان أن الصراع بينهما لم ينته بعد، لذلك تميزت الفترة الممتدة بين عامي 241 ق.م. و219 ق.م. بتقوية كل طرف لهياكله ووسائله العسكرية استعدادا للمعركة الفاصلة.

وما إن حل القائد القرطاجي حنبعل (Hannibal) بمدينة ساغونت (Sagonte) الإسبانية الحليفة لروما، حتى اعتبرت هذه الأخيرة ذلك خرقا لمعاهدة السلم

المبرمة بينهما عقب الحرب البونية الأولى، وأعلنت على قرطاجة الحرب البونية الثانية، التي امتدت من عام 218 ق.م. إلى عام 201 ق.م. والتي تميزت بنقل حنبعل الحرب إلى إيطاليا عبر جبال الألب، ومحاصرة عاصمتها روما دون مهاجمتها طيلة 14 سنة (من 216 ق.م. إلى 202 ق.م) من جهة [2]، ولفك الحصار نقل بدوره القائد الروماني سكيبيون كورنليوس (Scipion Cornelius) في عام 202 ق.م. الحرب إلى إفريقية، بنزوله في أتيكا من جهة أخرى، وقد وجد دعما كبيرا من القائد النوميدي ماسنيسا[3] الأمر الذي أجبر حنبعل على العودة إلى إفريقية لحماية قرطاجة، لكنه فشل وانتهت الحرب لصالح روما، التي أملت شروطها على قرطاجة في معاهدة قاسية، تقضي بانسحاب قرطاجة من إيطاليا وإسبانيا وجزر كورسيكة وسردينيا وصقلية ومن جنوب بلاد الغال، مع إطلاق سراح الأسرى الرومان، وتسليم الأسطول القرطاجي والفيلة المدعمة له، وتعويض خسائر الحرب بالتقسيط في ظرف 50 سنة، والتزام قرطاجة بعدم شن أية حرب خارجية دون استشارة روما .

عقب الحرب البونية الثانية، وبعد ربط الرومان جزر كورسيكة وسردينيا وصقلية بجنوب إيطاليا، انتقموا من فيليب الخامس، ملك مقدونيا على مساعدته لقرطاجة، ووقوفه ضدهم، كما تفطنوا للفوائد التي يمكن أن يجنوها من التوسعات، مما زادهم إصرارا على مواصلة الحرب ضد قرطاجة والقضاء عليها، خاصة بعد قهرهم لأكبر قائد عسكري على المستوى المغاربي والدولي آنذاك، ألا وهو حنبعل.

رغم فقدان قرطاجة فقدت مناطق نفوذها الحيوية، لم تنهر، فقد استطاعت إعادة بناء اقتصادها في وقت قصير، إذ ازدهرت بها الزراعة والصناعة والتجارة ، وحققت أرباحا هائلة، سمحت لها أن تسدد الغرامة المالية التي فرضتها عليها روما، بعد الحرب البونية الثانية في ظرف عشر سنوات بدلا من خمسين سنة مقررة، الأمر الذي أثار مخاوف روما التي أخذت تتحين الفرص لإعلان الحرب على قرطاجة من جديد، وهي الفرصة التي وفرها ماسنيسا، عندما قام باسترجاع بعض المدن والقرى النوميدية التي ضمتها قرطاجة من قبل، وتصدي هذه الأخيرة له، فاعتبرت روما ذلك خرقا لما نصت عليه معاهدة عام 201 ق.م. كما ذكر سالفا

وأعلنت الحرب على قرطاجة سنة 149 ق.م. وهي الحرب البونية الثالثة والأخيرة التي انتهت عام 146 ق.م..

وعلى هذا النحو، قضت روما على سيدة البحر المتوسط وحلت محلها تدريجيا حيث سيطرت على كل حوض المتوسط حتى استحق الاسم الروماني "بحرنا (Mare nostrum)". كما أصبحت تتحكم في تجارته، وبذلك ضمنت روما سيطرتها على كل البلدان المتوسطية.

وإذا ما تطرقنا إلى قوة قرطاجة العسكرية، يمكن القول في هذا الصدد أنه كان لقرطاجة جيش ضعيف، وتداركا لهذا الوضع، اعتمدت على جيش يتكون من المرتزقة جلهم من الليبيين، إلى جانب الإسبان والغاليين، وفيما يتعلق بالهياكل خصصت قرطاجة ميناءا للنشاطات العسكرية إلى جانب الموانئ التجارية.

بالإضافة إلى ذلك كانت قرطاجة قوة اقتصادية عظمى في المتوسط، عمادها قطاع الزراعة القائم على زراعة الحبوب والزيتون والفواكه، وكانت لها ثروة حيوانية معتبرة، تمثلت في المواشي والطيور، وتجدر الإشارة إلى أن هذا القطاع عرف ثورة بفضل الطرق العلمية التي أدخلها عليه عالم الزراعة ماغون (Magon)، الذي استفاد من مؤلفاته الرومان فيما بعد. كما ازدهرت فيها الصناعة الحرفية المختلفة.

وقد كان هم قرطاجة توسيع أسواقها التجارية، وقد استفاد بحارتها من أسطولها، وقاموا برحلات استكشافية عديدة، أطولها رحلة حانون التي جاب خلالها سواحل غرب إفريقيا عام 525 ق.م. إذ وصل إلى سواحل السنغال وغينيا والكامرون[4].

وعموما كانت تجارة قرطاجة مع بلدان المتوسط قائمة على الواردات المتمثلة في المواد الخام كالصوف والجلود والمعادن وغيرها، مقابل تصديرها للمواد المصنعة الغذائية منها كالزيت والنبيذ والمعدنية كالأسلحة والحلي بالإضافة إلى الأخشاب لصناعة السفن والأثاث والصناعات النسيجية والجلدية والفخارية وغيرها.

أما فيما يخص حضارة قرطاجة فطابعها ليبي . فنيقي.

وبالنسبة لنظامها السياسي ومؤسساته فهو غير واضح المعالم فيما يتعلق ببداية تاريخ مدينة قرطاجة، وما وصلنا من معلومات يتناول بالدراسة المنطقة ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد، وبصورة غير دقيقة هذا من جهة، كما أن كل ما وصلنا من معلومات كان عن طريق كتاب إغريق ولاتين، استعملوا في تناولهم المؤسسات القرطاجية المصطلحات النابعة من وسطهم، وهذا قد يشوه الحقيقة من جهة ثانية. بالإضافة إلى هؤلاء الكتاب وصلتنا بعض النقوش الفينيقية، لكنها محدودة.

وبصفة عامة يظهر أن النظام السياسي القرطاجي في نهاية القرن السادس قبل الميلادي كان ملكيا من نوعية خاصة، فهو ملكية انتخابية، حيث كان الملوك ينتمون إلى نفس الأسرة ؛ وفي هذه الفترة كانت أسرة الماغونيين [5]؛ يعينون من طرف مجلس نجهل عدد أعضائه، يحتفظ بعدها الملك بالسلطة مدى الحياة [6]، لكن اختيارهم لا يتم على أساس الانتماء للأسرة المالكة فقط بل كذلك بالاعتماد على كفاءاتهم العسكرية[7] .

ومع مرور الوقت، تطور النظام السياسي، فحسب جوستان (Justin) أدى تخوف القرطاجيين من السلطات الواسعة التي كانت تتمتع بها الأسرة الماغونية إلى العمل على مراقبتها والحد من صلاحياتها، فوقع تأسيس مجلس المائة قاض، يختارون من بين أعضاء مجلس الشيوخ[8]، وهو المجلس الذي يقدم له القادة العسكريون تقارير بعد كل عملية عسكرية[9]. وخلال النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد فقد الملوك الكثير من صلاحياتهم، وانتقلت السلطة بعد الماغونيين إلى أسرة الحانونيين ثم أسرة حاملكرط [10]، وبرز نظام الشافطان[11]، الذين ينتخبان كل سنة [12] ويمثلان أعلى سلطة في البلاد[13] ربما من طرف مجلس الشعب على أساس الثروة والكفاءة [14].

إلى جانب الشافطين وجد مجلس كبير [15] وهو الذي أطلق عليه تيت ليف[16] اسم مجلس الشيوخ (Senatus)، وكانت له صلاحيات سياسية وإدارية وعسكرية. كما

نجد مجلس الشعب الذي أصبح ابتداء من القرن الثالث قبل الميلادي يعين القادة العسكريين وينتخب الشافطين، ومن صلاحياته الفصل في الخلافات التي تحدث بين الشافطين ومجلس الشيوخ[17]. والجدير بالذكر في هذا الصدد هو أن هذا المجلس يمنح للشعب سلطات واسعة وربما كان ذلك مناورة من السلطة في تحميل الشعب مسؤولية الهزائم العسكرية إذا ما وقعت. تأتي بعده عدة هيئات تتكون من خمسة أعضاء تعرف بالهيئات الخماسية (Pentarchie) ومحكمة المائة وأربعة، وقد أسست للحيلولة دون محاولة أي شخص الاستبداد بالحكم.

ومن هذا، يبرز أن النظام القرطاجي كان مزيجا بين النظام الوراثي والانتخابي، يضم نواة الديمقراطية بفضل مختلف المؤسسات التي تراقب سلطة الحكام، لكن ونظرا لكون تولي المناصب يتوقف على عنصري الثروة والكفاءة، فإن عامة الشعب لم يكن بإمكانهم المساهمة في السلطة لافتقارها إلى الثروة التي لم تكن متوفر إلا لدى الفئة الأولغارشية.

اللغة

إلى جانب عاداتهم وتقاليدهم جلب القرطاجيون معهم لغتهم، وقد استطاع المهاجرون الأوائل أن ينشروها وسط الأهالي، ليس في المدن الساحلية حيث المحطات التجارية فقط، بل حتى في الأراضي الداخلية مثل مدن كيرتا[18] وتاغورة (Thagura)[19].

إن انتشار اللغة البونيقية تطلب وقتا طويلا ووسائل عديدة، منها الإدارة القرطاجية التي استعملت اللغة البونيقية، مما اضطر الأهالي إلى تعلمها لتسهيل معاملاتهم مع الإدارة. وكذلك عن طريق التجارة، بحيث كان القرطاجيون يتعاملون مع الأهالي مستعملين لغتهم، وهذا ما حتم على الأفارقة تعلم اللغة البونيقية [20] لتسهيل المعاملات التجارية.

كما ساعدت المستعمرات التي غرست على طول سواحل المغرب القديم من السيرت شرقا إلى موريطانيا غربا على نشر لغة قرطاجة، إذ كانت على اتصال دائم مع الأهالي مما سمح بالترويج للغة البونيقية، وكذلك بواسطة الخدمة العسكرية،

فقد كانت اللغة المستعملة في الوسط العسكري البونيقية لأن الضباط كانوا قرطاجيين وهذا أجبر الجنود من الأهالي على تعلمها. ولا يجب أن ننسى دور الأمراء الأفارقة في نشر اللغة البونيقية، فقد ارتبط الكثير منهم بقرطاجة، بطرق مختلفة منها الزواج بقرطاجيات[21]، ويبرز تأثر الأمراء الأفارقة بالحضارة القرطاجية التي من أهم مكوناتها اللغة، البونيقية المستعملة لدى الملوك النوميديين كصيفاكس [22] وابنه فرمينا [23] وماسينيسا [24] وغيرهم كما يتجلى من أسمائهم الواردة على مسكوكاتهم [25] وهي الظاهرة التي استمرت قرنا كاملا بعد تدمير قرطاجة، بعد سك يوبا الأول نقودا باللغة البونيقية [26] وكذلك ماستانزسوس (Mastanesosus)[27] والملك بوخوس[28]، وإعطاء أسماء بونيقية لأبنائهم مثل أدهربعل وهياربال.[29]

وبصفة عامة كانت البونيقية لغة الإدارة والتجارة، واستمرت تستعمل حتى بعد زوال قرطاجة، حيث عثر على عملات مدن ساحلية عديدة تعود إلى فترة حكم أغسطس وتيبريوس باللغة البونيقية ومنها عملة الملك يوبا الثاني [30].

وبالنسبة لنمط معيشة القرطاجيين فقد كان شرقيا بصفة عامة، حيث ارتدى الرجال الجبة الطويلة التي تصل حتى القدمين، وهي ذات أكمام واسعة عامة [31]، ويشير ترتليانوس إلى ارتداء القرطاجيين معطفا لحمايتهم من البرد والمطر، وكانوا يضعون القلنسوة على رؤوسهم، وفي أقدامهم ينتعلون أحذية حسب العادة الآسيوية. أما النساء فكن يرتدين، أيام الحرب البونية، مثل الإغريقيات الفساتين الطويلة ذات الأكمام القصيرة، مع إكثارهن من التزين بالحلي واستعمال ألوان التجميل ويبالغن في التعطر[32].

ومن هنا نستنتج أن القرطاجيين ظلوا متمسكين بتقاليدهم الفينيقية.

الحياة الدينية :

رغم أن القرطاجيين بنوا حضارة أثرت في جميع شعوب غرب المتوسط، ظلوا متمسكين بتقالدهم الشرقية في شتى مجالات الحياة كالمجال الديني حيث جلبوا معهم آلهتهم وطقوسهم.

وقد كانت للحياة الدينية مكانة هامة عند القرطاجيين سواء في حياتهم العامة أو الخاصة إذ لم يكن القرطاجي يبادر بأي عمل مهم حتى يستشير الآلهة، ويقدم لها القرابين لضمان نجاح مشروعه، وهذا ينطبق على كل أفراد المجتمع مهما كانت مكانتهم، فحنبعل زار معبد الإله ملقرط بقادس وطلب مساعدته في حملته على إيطاليا[33]. كما كان القرطاجيون يمنحون أبناءهم أسماء مركبة مرتبطة بإله معين لمنحهم حصانة خاصة مثل عبد ملقرط وبوملقرط[34] (Bomilqart). كما كانت الحكومة القرطاجية والمسؤولون الكبار يولون للجانب الديني عناية خاصة، ببناء المعابد وتقديم القرابين وإرسال البعثات المحملة بالهدايا والقرابين للمعابد في الوطن الأم صور[35].

وقد تميز القرطاجيون بعدم نكرانهم لقوة وتأثير الآلهة الأجنبية، لذلك عبدوا الآلهة المصرية مثل إزيس وأوزريس، والآلهة الإفريقية مثل الإله الليبي أمون، وقدموا القرابين لآلهة أجنبية كسبا لعطفها وتجنبا لعقابها لهم مثل تقديم حنبعل قرابين لآلهة إيطالية إثر حملته على روما [36]. كما تميز القرطاجيون بأنهم يخشون الآلهة أكثر من حبهم لها.

وبالنسبة للآلهة القرطاجية، فقد جلب الفنيقيون الذين هاجروا واستوطنوا المغرب القديم آلهتهم، واستمروا في عبادتها مع تعرضها إلى تغير طفيف، بحيث تأثرت بالمحيط المغاربي والتطور الزمني.

عبد القرطاجيون آلهة كثيرة هيمن عليها إلهان إثنان هما تانيت باني بعل (Tanit Pene Baal) وبعل حامون (Baal Hammon).

وجدت آثار تانيت التي تعني وجه بعل في نقوش كثيرة بأماكن عديدة من المغرب القديم تحت أسماء مختلفة منها " الأم السيدة تانيت باني بعل والسيد بعل حامون"[37] وكذلك "الأم السيدة باني بعل" [38]، كانت تعبد على أساس أنها أم معطاء. أما بعل حامون الذي يعني اسمه سيد النار فقد اعتبر كبير الآلهة[39]. كما نجد الإله ملقرط "ملك المدينة " وهو إله فينيقي جلبه معهم المهاجرون الصوريون الأوائل، وجاء في

أحد النقوش بجزيرة مالطة "سيدنا ملقرط سيد صور"[40]، وكانت قرطاجة ترسل كل سنة الهدايا والقرابين لمعبد هذا الإله.

وتفيد المصادر المادية بوجود آلهة أخرى قامت عبادتها في قرطاجة ومستعمراتها مثل عشطار الإلهة الفينقية، ويظهر أن عبادتها انحصرت في مدينة قرطاجة، إذ لم يعثر على آثارها إلا في هذه المدينة. ونجد كذلك الإله رشف وبعل حداد وأشمون وغيرها.

وبصفة عامة يمكن القول أن القرطاجيين ؛ مثلما جلبوا معهم لغتهم ؛ جلبوا آلهتهم الفينقية واستمروا في عبادتها، حيث لم يحدث عليها إلا تغييرات بسيطة جدا بسبب التأثر بالمحيط المغاربي. كما أنهم لم يعبدوا إلا القليل من الآلهة الأجنبية وفي ظروف خاصة مثل عبادتهما ديمتر (Demeter) وكوري (Koré) ابتداء من سنة 396 ق.م.[41].

الطقوس الجنائزية

اهتم القرطاجيون ببناء المعابد لآلهتهم، وقد عثر في قرطاجة وسوسة (Hadrumentum) بشرق تونس على آثار بعضها، ويذكرنا شكلها ببعض معابد رأس شمراء. وقد اختيرت لها أماكن مرتفعة مثل معبد الإله أشمون فوق هضبة بيرصة، ومعبد بعل حامون وتانيت باني بعل قرب الحمامات [42]. وتتكون المعابد عادة من مساحة محاطة بسور يقام في وسطها أو في طرفها بناء يضم تمثلا يمثل الآلهة أو صخرا يسكنه الإله[43].

وكان يشرف على الطقوس الدينية كهنة وكاهنات ينتمون عادة إلى العائلات الكبيرة. كما كان القرطاجيون يقدمون لآلهتهم القرابين منها القرابين البشرية المعروفة تحت اسم " المولاك، (Molek) أو (Molk) " التي جلبوها معهم من صور[44]، حيث كانوا يقدمون كل سنة طفلين ذكرين قربانا للإله بعل حامون، تحت إشراف الدولة، إلا أن عدد الأطفال قد يتجاوز ذلك لما يشعر القرطاجيون بخطر معين مثل الكوارث الطبيعية كالجفاف والطاعون، والتهديد الخارجي مثلما حدث عندما غزا

أغاتوكل قرطاجة[45]، وقدم القرطاجيون خمسمائة طفل كقرابين. لكن الملاحظ هو أنه مع مرور الوقت، عوض القرطاجيون المولاك بقرابين حيوانية [46].

وبالنسبة لعملية الدفن، فقد اختلفت حسب العصور والطبقات الاجتماعية. كانت عادة الدفن في بداية تاريخ قرطاجة هي السائدة، لكن وتحت تأثير اليونانيين وابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد تبنى القرطاجيون ظاهرة حرق الموتى ووضع الرماد في أواني تودع في معابد وفي الهواء الطلق [47]، تحت تأثير الأهالي أصبح القرطاجيون يدفنون الجثة على شكل جنين، ويصبغونها بالمغرة الحمراء، وأحيانا يجردون الجثة من لحمها عند دفنها. وفيما يتعلق بالقبور كانت في البداية على شكل غرفة فسيحة تنحت في الصخر على عمق يصل بعض الأمتار، توضع فيها الجثة داخل توابيت أو على الأرض مباشرة، ثم ظهرت القبور الشبيهة بالآبار التي يصل عمق بعضها إلى عشرين مترا، ثم تحولت إلى أقبية قليلة العمق، وقد كانت تخصص في البداية لدفن متوفي واحد أو اثنين لكن مع مرور الوقت انتشرت ظاهرة الدفن الجماعي. وكان القرطاجيون يدفنون مع الميت أثاثا متكونا خاصة من آنية الفخار وأدوات وتمائم.

ثانيا : أوضاع نوميديا منذ عصر الممالك حتى عشية الاحتلال الروماني (القرن الثالث قبل الميلادي / عام 46 ق.م.)

لم يرد ذكر نوميديا عند المؤرخين القدماء إلا في سياق الحديث عن الحروب التي شارك فيها النوميديون سواء الحروب البونية الثلاثة (264/149 ق.م.) أو الحروب الرومانية (204/46 ق.م.) التي دارت في المغرب القديم أو خارجه.

وقد شهدت نوميديا منذ ذلك الحين ؛ نتيجة النزعة الاستقلالية التي ميزت حكامها ؛ صراعات داخلية طاحنة، ترتب عنها تغييرات إقليمية كثيرة، انقسمت إثرها إلى ممالك متفاوتة الأهمية عرفت الاستقرار النسبي حتى توحدت على يد ماسنيسا. وقد تركز اهتمام الملوك النوميديين منذ عهد ماسنيسا بمختلف القطاعات، أهمها الزراعة والجيش.(راجع الخريطة رقم 3)

خريطة الممالك النوميدية

وفيما يتعلق بنظام الحكم في نوميديا في عصر الممالك، فالمعلومات حوله ضئيلة، وتتلخص في أنه كان ملكيا وراثيا يؤول فيه العرش إلى أكبر أبناء الأسرة المالكة، وكانت مختلف المهام موزعة بين الملك وثلاث مؤسسات، فالنسبة لمهمة الملك فتتمثل في قيادة الجيش في الحروب، بينما تختص المؤسسات الأخرى في القضاء التي يشرف عليها القضاة المعروفون بالشوفيت (Suffetes)، ومهمة جباية الضرائب التي يشرف عليها جباة يدعون موحازيم (Muhezim) إلى جانب مجلس الشعب[48] الذي نظم شؤونهم.

وفي المجال العسكري، عرف الجيش النوميدي بالشجاعة وقد تجاوزت شهرته حدود نوميديا، وهو يتكون من المشاة والفرسان، كما كان يضم مرتزقة شأنه في ذلك شأن جيش قرطاجة[49]. وبالإضافة إلى الجيش البري، يعتقد أنه كان لماسنيسا أسطول يكون قد شد أزر الأسطول القرطاجي في حروبه ضد الرومان كما سخر لخدمة الاقتصاد.

أما فيما يخص الحياة الاقتصادية، فقد كانت نوميديا بلدا زراعيا، وأن أهم محاصيلها الحبوب الغذائية كالقمح والشعير، التي تبرز صور سنابلها على عملة ملولكها، وتتأكد هذه الأهمية مثلا من خلال الكميات الهائلة التي كان يقدمها ماسنيسا إلى القوات الرومانية في بلاد الغال ومقدونيا، من جهة، ومن الغرامة العينية التي فرضتها روما على نوميديا عقب احتلالها لها والمقدرة بحوالي 1.2 مليون مكيال (موديوس) (Modii) من القمح في السنة[50].

إلى جانب الحبوب، عرفت نوميديا إنتاج الزيتون والكروم والفواكه المختلفة كالتين والرمان والبلح، كما اعتنى النوميديون بتربية الماشية ومنها الأبقار والأغنام كما أولوا عناية خاصة لتربية الخيل التي تعكسها كثرة صورها على عملتها[51]، والتي كانت تتمتع بشهرة كبيرة في الحروب والمسابقات العامة اللاتينية.

بالإضافة إلى الزراعة والماشية، احتوت نوميديا في عصر الممالك على ثروة معدنية معتبرة تمثلت في معادن النحاس والرصاص وغيرها والمعادن الثمينة كالذهب والفضة. وقد تولدت عن هذه الموارد بشتى أنواعها، صناعات حرفية مختلفة كصناعة الزيت والنبيذ والحلي وغيرها.

وفي هذا الإطار ساعد تنوع المنتجات على تنمية التجارة الداخلية بين مختلف المناطق النوميدية والتجارة الخارجية مع بلدان كقرطاجة وبلاد الإغريق وروما، التي كانت نوميديا تصدر إليها المواد الزراعية والأولية كالخشب والرخام وتستورد منها المواد المصنعة كالخمر والفخار والحلي.

أما فيما يخص حضارة نوميديا، فعلى نحو قرطاجة كان طابعها ليبي- فنيقي وبالنسبة للغة، تكلم النوميديون لغة محلية عرفت بالليبية، انتشرت في منطقة جغرافية واسعة، من شمال إفريقيا، امتدت من واحة سيوة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن المتوسط شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا [52]، وقد تفرعت إلى عدة لهجات في ظروف تاريخية نجهلها. ويذكر بروكبيوس وجود لغات عديدة مستعملة بين القبائل [53].

وفي هذا السياق دائما وصلتنا عدة نقوش بالليبية تعود إلى فترة حكم الملوك الليبيين وحتى الفترة الرومانية، استعملت فيها حروف تشبه كتابة التفناغ للطوارق [54]، لكن لم يتمكن المختصون حتى الآن من فك رموزها [55]، رغم وجود عشرين نقشا مزدوج اللغة، منها ما هو ليبي بونيقي ومنها ما هو ليبي لاتيني، من بينها النقش الذي عثر عليه في ضريح ماسنيسا بدقة والمؤرخ بسنة 139 ق.م. [56].

ويظهر أنه مع مرور الوقت، واحتكاكهم بالفنيقيين ثم القرطاجيين فالرومان، اقتبس الأهالي عدة كلمات أضافوها إلى رصيدهم اللغوي، ورغم ذلك لم ترق اللغة الليبية إلى مصاف اللغات العالمية آنذاك مثل البونيقية والإغريقية واللاتينية، ولم تستعمل في الأدب والإدارة ويتجلى ذلك من تبني الزعماء الأفارقة للغة البونيقية [57].

من الكتابات اللاتينية للمفكرين الأفارقة[58].

نمط معيشة النوميديين :

قامت حياة النوميديين في البداية على الترحال الدائم بحثا عن الطعام الذي توفره الطبيعة، على صيد الحيوانات البرية لاستهلاك لحومها أو لتجنب خطرها

كالحيوانات الضارية، لكن ومع مرور الوقت، عرفوا تربية الماشية، وأصبحوا يتنقلون بقطعانهم وخاصة الغنم والماعز والبقر والجياد [59] بين السهول في الشتاء والجبال في الصيف، أو بين السباسب في الشتاء والسهول التلية في الصيف. وحتى لما تعرف الإنسان المغربي على الزراعة، بقي نشاط الرعي مهيمنا على الحياة الاقتصادية، وهذا ما يجعلنا نستنتج أن معظم سكان المغرب القديم كانوا يعيشون في الريف، لارتباطهم بالأرض بعيداً عن بعض المدن الكبيرة التي تحدثنا عنها المصادر الأدبية والأثرية منها سيغا (Siga) عاصمة الملك صيفاكس وكيرتا (Cirta) وزاما (Zama) وطنجة (Tingi)[60]

أما الزراعة فقد ظهرت في المنطقة ولكن بقي نشاطها محدودا حتى فترة حكم الملك ماسنيسا الذي أعطاها دفعة قوية.

وبالنسبة للسكن فقد استقر الأهالي في الأزمنة الغابرة وحتى العصور التاريخية في مغارات وكهوف إما طبيعية أو من صنع الإنسان. لقد استمر هذا النمط من السكن معتمدا حتى بداية القرن العشرين في منطقة طرابلس [61] وجنوب تونس [62]. لقد اختار الإنسان النوميدي هذا النوع من السكن لما يوفره من امتيازات منها الحفاظ على الحرارة في فصل البرودة والبرودة في فصل الحرارة، كما أنه لا يخشى الكوارث الطبيعية المختلفة.

لكن هذا النمط من السكن لا يتلاءم مع حياة الرعاة الذين تبدوا منازلهم متنقلة (Mapallia)[63]، تتكون من مواد نباتية مثل البروق (Asphodele) والأسل (Jonc)[64] القصب[65] والحشفة (Chaume)، يمكن تركيبها وفكها بسهولة وبسرعة. أما المستقرون فكانوا يسكنون أكواخا من الحجارة والطين المجفف، أو من أغصان الأشجار، إلى جانب مساكن العامة البسيطة نجد القلاع أو الحصون، التي يلجأ إليها الأهالي عند تعرضهم إلى هجمات الأعداء، ويخزنون فيها ثرواتهم، بالإضافة إلى وجود قصور يقيم فيها الزعماء.

وقد تميزت حياة هؤلاء السكان بالبساطة في طعامهم، فكانوا يكتفون بما يوفره لهم وسطهم الطبيعي، حيثوا كانوا يستهلكون ثمار الأشجار البرية مثل النبق والعناب[66] والحيوانات كالأغنام والماعز والجراد والحلزون[67]، مع وجود بعض الاختلاف بين الفلاحين المستقرين ومربي الماشية الرحل، فالأوائل يعتمدون أساسا على الحبوب وبعض المزروعات ومشتقاتها مثل الكسكسي والزيت [68]، أما الرعاة فكانوا يعتمدون على منتجات حيواناتهم من ألبان ومشتقاتها دون اللحوم لأنهم لا يذبحون حيواناتهم ألا عند الضرورة القصوى ويعتبر الصيد المصدر الأساسي للحوم [69].

وبالنسبة للباس، اعتمد النوميديون مثل بقية شعوب العالم القديم على ما يوفره لهم الوسط الطبيعي وخاصة جلود الحيوانات الأليفة مثل الأغنام والماعز[70] والحيوانات البرية التي كانت تزخر بها نوميديا [71] مثل الأسود والنمور والدببة[72] وعادة ما تحتفظ هذه الجلود بصوفها أو شعرها حيث لا تنزع منها إلا نادرا خاصة ما يتعلق بمعاطف النساء [73].

ومع مرور الوقت عوض الأثرياء من النوميديون والنوميديات الملابس الجلدية بالملابس الصوفية [74]، ويبرز ذلك من المعطف الذي يظهر به فارس على عملة تعود إلي فترة حكم الملك صيفاكس[75]، ويذكر بومبونيوس ميلا [76] (Pomponius Mela) أن الأشخاص العاديين يرتدون ملابس من جلود الحيوانات بينما زعماء القبائل فيرتدون معاطف من الصوف، إلى جانب المعطف، ارتدى النوميديون القميص وفي أقدامهم النعال والأحذية الجلدية. وعلى رؤوسهم لم يضع الأهالي في المراحل التاريخية الأولى شيئا، وفي هذا الشأن ذكر شيشرون[77] وهو يتكلم عن ماسنيسا "لا الأمطار ولا البرد تجبر ماسنيسا على تغطية رأسه"، ويظهر أن الوضع تغير فيما بعد إذ يظهر في بعض النقوش رجال يضعون تاجا من الريش [78]، وليس مستبعدا أن يكون هذا التاج مخصصا لكبار القوم. وفي الفترة الرومانية المتأخرة برزت ظاهرة وضع القلنسوة [79] كما يذكر كوربوس [80] أشخاصا يغطون رؤوسهم بقطع من القماش.

بالإضافة إلى اللباس كان النوميديون يتزينون بالحلي، فقد وضع الرجال والنساء على السواء الأقراط في آذانهم، بينما انحصر وضع الخلخال والأسورات والقلادات على النساء. وكانت هذه الحلي في البداية مصنوعة من مواد بسيطة كعظام الحيوانات، لكن مع مرور الوقت أصبحت تصنع من المعادن الثمينة أهمها الفضة.

الحياة الدينية

تميزت الديانة النوميدية بتعدد الآلهة التي جسدت في مظاهر وأشكال مختلفة مستمدة من الطبيعة كالحيوان والنباتات، وقد وجدت في نوميديا آلهة محلية وأخرى أجنبية انتشرت في كل المغرب القديم.

قدس النوميديون الكبش الذي يبرز في بعض الرسوم الصخرية تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، يظهر فيها هذا الحيوان وحول رقبته قلادة وعلى رأسه شكل اهليليجي [81]، وقد عثر على نفس الشكل في نقوش بالجنوب الجزائري وجنوب وهران ومنطقة قسنطينة، مما يدل على انتشار عبادة هذا الحيوان. كما ظهر هذا الحيوان في أكثر من نقش وإلى جانبه الثور، مما يدل على أنه كان لهذا الأخير قدسية لدى الأهالي [82].

وقد عبد النوميديون آلهة محلية ذات قوة خفية مجسدة في الينابيع والمغارات والجبال لكن لا نعرف عنها شيئا، ويظهر أن الأهالي لم يروا ضرورة تخليدها في تماثيل أو معابد، وقد وصلتنا أسماء بعض الآلهة تعود إلى الفترة الرومانية عن طريق رومان مروا أو استوطنوا بإفريقيا، أو أفارقة ترومنوا في بعض الإهداءات، منها : Dii mauri) [83]) و (Matres Afrae) [84] وماكورغوس (Macurgus) وماكورتا (Macurta) وإيونا (Iuna) وفيلونا (Viluna)[85]، لكن لا نعرف ما تمثله ولا دورها.

إلى جانب الآلهة المحلية، عبد النوميديون مثل بقية الشعوب الليبية آلهة امتد تأثيرها إلى منطقة المغرب القديم وعلى رأسها الإله آمون وهو الإله الإفريقي، إلى

جانب عبادتهم الآلهة البونيقية مثل الإله بعل حامون [86] وتانيت التي يظهر رمزها على مسكوكات ماسنيسا وخلفائه [87].

ورغم انتشار عبادة آلهة محلية وأخرى ذات نطاق أوسع سواء كانت ذات أصل إفريقي وأجنبي لم يتخل النوميديون عن تقديس الجن والمغارات والملوك.

أما ما يتعلق بالعادات الجنائزية فقد استعمل النوميديون الأوائل ؛ لدفن موتاهم مغارات محفورة في الجبال، وهي القبور التي تسمى " الحوانيت "، تكون إما متتابعة أو فوق بعضها البعض [88]، وهي القبور التي تنتشر من شرق تونس إلى المغرب الأقصى، ويعد هذا النوع من القبور بونيقي الأصل وقد وقع التخلي عنه في بداية العصور التاريخية. إلى جانب الحوانيت نجد البازينا (Bazina)، وهي قبور ذات شكل مخروطي أو هرمي تتكون من حجارة مختلفة الأحجام وتحفها حجارة مربعة أو مستطيلة تحتوي على حفرة في وسطها توضع فيها الجثة إما مباشرة على الأرض أو في تابوت [89].

ثم نجد الدولمان (Dolmen) وهي قبور منحوتة من صخور [90]. كما وجد نوع آخر من القبور يعرف بالشوشات، وهي عبارة عن قبور أسطوانية الشكل قطرها حوالي خمسة أمتار وعلوها متران ونصف، أقيمت عادة في المرتفعات.

إلى جانب كل هذه الأنواع من القبور، دفن النوميديون موتاهم في أماكن إقامتهم بالهواء الطلق وحتى تحت البيوت[91]. كما دفنت بعض الشعوب المغاربية مثل الغرامنتيين موتاها في قبوور[92]. ويمكن إضافة نوع آخر من القبور تعرف بالجدار (Djeddar)، تعود إلى الفترة البيزنطية، وهي قبور كبيرة بداخلها دهاليز.

كانت جثة الميت توضع على شكل منحني[93] وعند بعض القبائل جالسة[94]، وأحيانا كانوا يجردون الجثة من لحمها [95]. أما ظاهرة حرق الجثث فقد اقتبسها النوميديون من القرطاجيين لكن استعمالها بقي محدودا، وقد قام النوميديون بتلوين الجثة بالمغرة الحمراء ويضعوا إلى جانبها بعض الأثاث والأواني والحلي.

ثالثا : أوضاع ليبيا قبل الاحتلال الروماني

تنقسم ليبيا جغرافيا وتاريخيا إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

1) قورينايـة : (Cyrenaïque)

تقع في الشمال الشرقي من ليبيا، وأهم مدنها قورينة (Cyrene) وأبولونيا (Appolonia) استوطن فيها تجار إغريق منذ القرن السابع قبل الميلاد، واستمر تواجدهم هناك حتى عام 323 ق.م. تاريخ وفاة اسكندر المقدوني، وسقوطها بيد البطالمة حتى عام 96 ق.م. حين منحها بطليموس أبيون (Ptolemée Apion) آخر ملوكهم إلى الرومان بحجة عدم وجود وريث له، وظلت منذ ذلك التاريخ تحت سيطرتهم حتى عام 429 م. وبحكم قرب هذا القسم من مصر وبلاد الإغريق، وبناء على علاقاته الوطيدة مع هذين البلدين، فقد صنف ضمن بلدان الشرق.

2) طرابلس (Tripolitaine):

تقع في غرب قورينايـة، ومن أهم مدنها سبراطة ولبدة (Leptis Magna)، وكان سهل الجفارة مشهورا بأسواقه المعروفة باسم (Emporia) قد خضع لسلطة قرطاجة حتى عام 148 ق.م. حين افتكه منها الملك ماسنيسا معتبرا إياه تركة أسلافه وضمه إلى مملكته، وقد ظل سكان هذا السهل يدفعون الضرائب إلى نوميديا حتى فترة حكم الملك يوغرطه، حين ناشدت المدن الثلاثة لبدة وطرابلس وسبراطة حماية روما لها، بعد أن اتضحت قوتها إثر قضائها على قرطاجة، وبدأ تمهيدها لاستعمار بقية بلدان المغرب القديم.

3) الفـزان

تتكون من المناطق الجنوبية لطرابلس وظلت بيد السكان المحليين المعروفين باسم الغرامنت (Garamantes) وهم من البدو الرحل حتى عام 146 ق.م. تاريخ ضم الرومان إلى قرطاجة، التي أصبحت تعرف باسم إفريقية القديمة تمييزا لها عن نوميديا التي أصبحت تحمل اسم إفريقية الجديدة، وتعتبر غات ومرزوق أهم مدنها (الخريطة رقم 4).

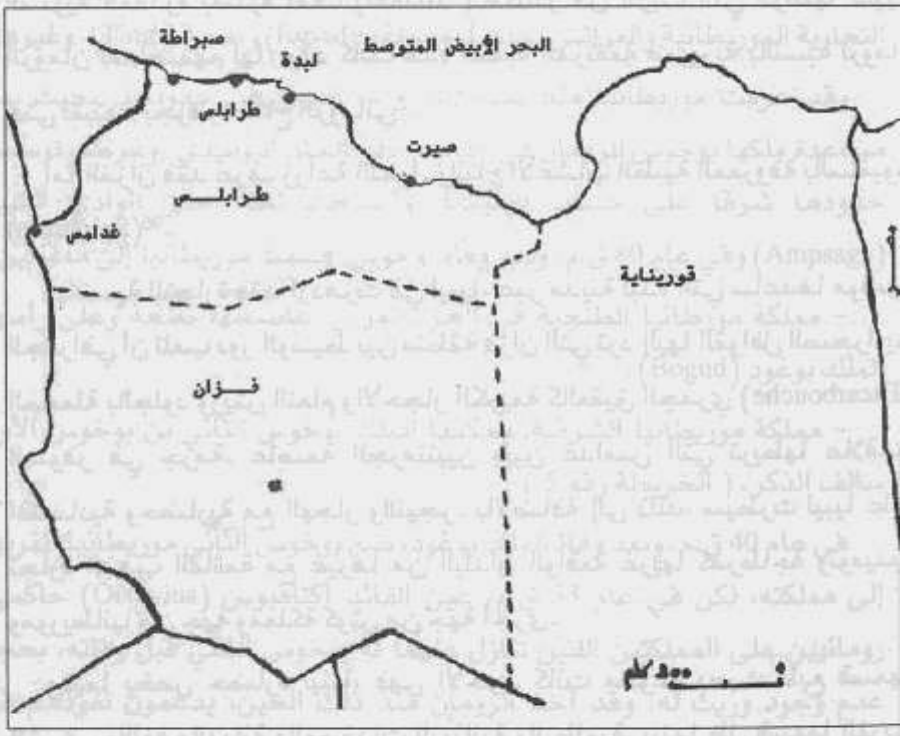

مقاطعة طرابلس

أما ما يخص الحياة الاقتصادية في ليبيا ؛ فإنه تبعا لتباين ظروفها المناخية والتضاريسية؛ كانت متنوعة بحيث مارس الإغريق في قورينايا بالساحل الشرقي المتاخم لمصر زراعة القمح والشعير والكروم، وهي محاصيل اعتمدوا عليها في حياتهم كما مونوا بها بلادهم التي كانت تفتقر إلى هذه المنتجات.

وقد اشتهر سهل الجفارة بزراعة الفواكه ومنها التين وكذلك بزراعة الزيتون التي ازدهرت في سهول لبدة وسبراطة وطرابلس، وتبرز هذه الأهمية من خلال الضريبة السنوية المقدرة بعشرة آلاف (10.000) هكتلتر من الزيت التي فرضها عليها الرومان بعد ضمهم لها. وقد كانت هذه الكمية المرتفعة ضرورية بالنسبة لروما، حتى لقبتها "بجوهرة التاج الروماني".

أما الفزان فقد عرف زراعة النخيل وإنتاج الأعشاب الطبية المعروفة بالسلفيوم (Sylphium)[96].

وبالنسبة للتجارة فقد ازدهرت في ليبيا، عبر مدينة لبدة التي ساعدها موقعها الجغرافي أن تلعب دور الوسيط بين منطقة فزان التي ترد إليها القوافل الصحراوية المحملة بالجلود وريش النعام والأحجار الكريمة كالعقيق الجمري (Escarbouche) المتوفر في جرمة، عاصمة الجرمنتيين وبين غدامس التي تربطها علاقات اقتصادية وحضارية مع الهجار والنيجر. بالإضافة إلى ذلك، سيطرت ليبيا على تجارة الذهب القائمة مع غيرها من البلدان الواقعة غربها كقرطاجة ونوميديا وموريطانيا من جهة ومملكة كوش من جهة أخرى.

وفيما يخص حضارة ليبيا، فهي الأخرى كانت متنوعة بحيث طبع قسمها الشرقي باللغة والديانة والمعتقدات اليونانية والبطلمية، بينما ظل قسمها الغربي والجنوبي محتفظين بأصالتهما مع تأثيرات قرطاجية وأخرى نوميدية.

لقد أقام سكان ليبيا الأوائل الذين ؛ أطلق عليهم الفراعنة اسم "تميهو (Temehou) ؛ علاقات مع مصر الفرعونية لكنها لم تكن دائما ودية. بعد أن غزت القبائل الليبية مصر مرات عديدة، أولها سنة 1227 ق.م. ثانيها في 1194 ق.م

وثالثها في 1188 ق.م.، وقد استطاعت هذه القبائل أن تستولى على الحكم فيها سنة 950 ق.م. بزعامة ملكها ششنق (Chechonq)، وكان قادتها يتميزون بوضع ريشة خلف الرأس وباللباس المخطط، وقد اشتهرت هذه القبائل بعبادة الإلهين آمون وإزيس في واحة سيوة بجنوب قورينائية [97].

رابعا : أوضاع موريطانيا قبل الاحتلال الروماني

كما هو الحال بالنسبة لنوميديا، تردد الفنيقيون ثم القرطاجيون على المحطات التجارية الموريطانية والعرائش (Lixus) ومليلة (Rusadir) وطنجة (Tingi). وغيرها.

وقد عرفت موريطانيا منذ سنة 105 ق.م. تغييرا في حدودها، بحيث بعد مساعدة ملكها بوخوس للرومان في القضاء على الملك النوميدي يوغرطه، توسعت حدودها شرقا على حساب نوميديا، وأصبحت تمتد حتى الوادي الكبير (Ampsaga) وفي عام 80 ق.م. وبعد وفاة بوخوس، قسمت موريطانيا إلى مملكتين :

- مملكة مورطانيا الطنجية في الجزء الغربي، عاصمتها طنجة وعلى رأسها الملك بوغود (Bogud).

- مملكة موريطانيا الشرقية، يحكمها الملك بوخوس الثاني بن بوخوس الأول سالف الذكر. (الخريطة رقم 5)

في عام 40 ق.م. وبعد وفاة الملك بوغود، ضم بوخوس الثاني موريطانيا الغربية إلى مملكته، لكن في عام 33 ق.م. عين القائد أكتافيوس (Octavius) حاكمين رومانيين على المملكتين اللتين تنازل عنهما له بوخوس الثاني قبل وفاته، بحجة عدم وجود وريث له. وقد أخذ الرومان منذ ذلك الحين، يدعمون نفوذهم في المنطقة بإقامة المستعمرات في المواقع الإستراتيجية، منها ثلاث مستعمرات على سواحل البحر المتوسط، هي إيجلجلي (Igilgili) وصالداي (Saldae) وروزاسوس (Rosazus)، وثلاث على سواحل المحيط الأطلسي، تتمثل في زليس (Zilis) وبابا (Babba) وبناسا (Banasa)، وبينما أسست توبوسبتو(Tubusuptu) أو (Tubusuctu) وأكواي كالداي (Aquae Caldae) وزوكبار (Zucchabar) في الداخل[98]

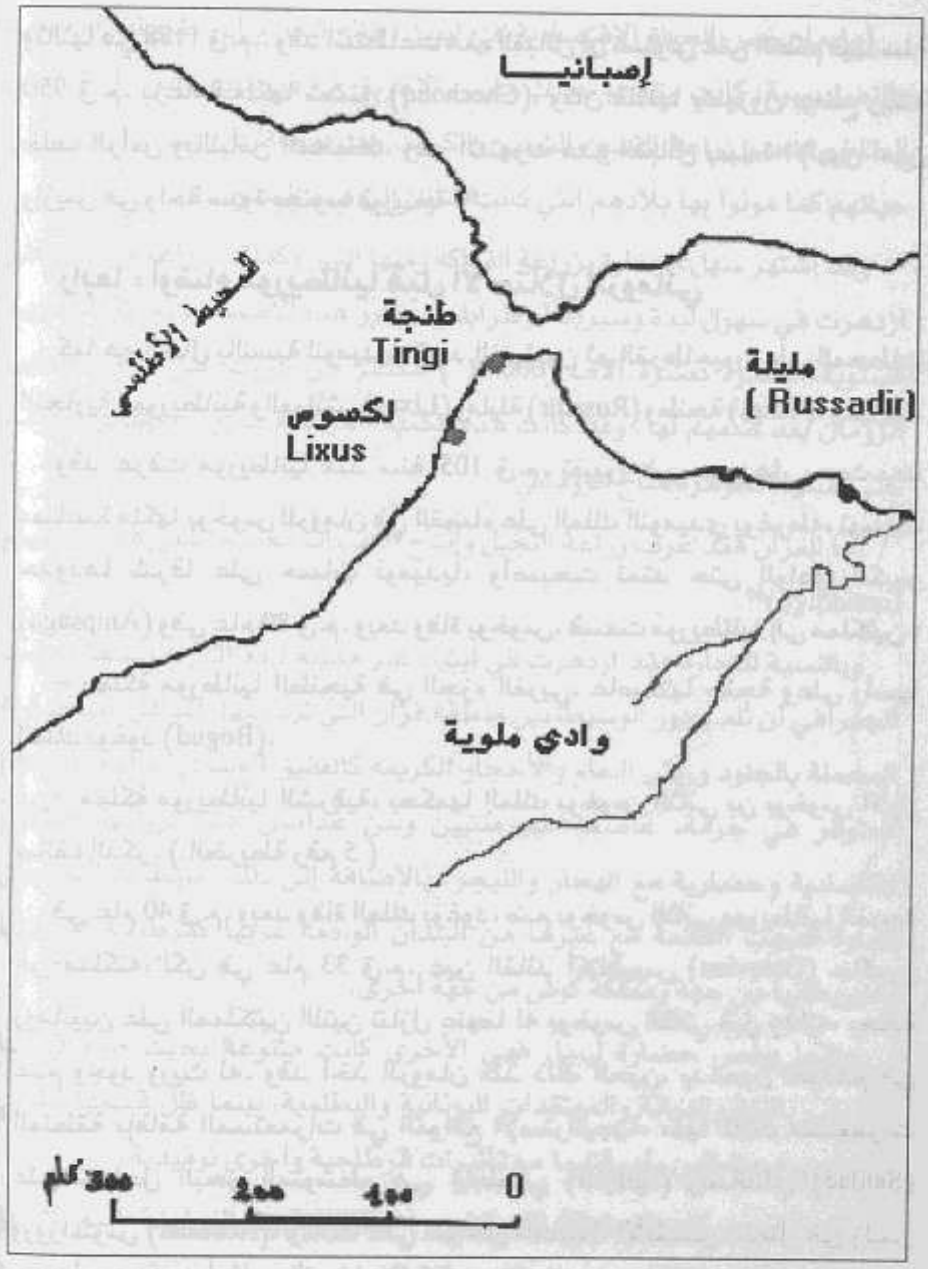

موريطانيا الطانجية

حتى عام 25 ق.م. حين عينوا يوبا الثاني ملكا على موريطانيا الشرقية، فاختار مدينة يول (Iol) الساحلية عاصمة له، وأطلق عليها اسم القيصرية نسبة إلى قيصر ولي نعمته، عرفانا منه لرعايته له. وقد تميزت سياسته بالولاء المطلق لروما لهذا ساندها في التصدي والقضاء على الثورات التي هزت إفريقيا أيام حكمه، ومنها ثورة الجيتوليين (Getules) عام 6 ق.م، ونفس النهج سار عليه ابنه بطلميوس(Ptolemée) وخليفته على عرش موريطانيا القيصرية، فقد تميز بالتسيب وإهمال شؤون الدولة، والانغماس في الترف والبذخ، وخدمة المصالح الرومانية، وهذا ما جعله يدعم روما بالمساعدات للتصدي لثورة تكفارناس بين 17 و24 م. وفي عام 40 الميلادي ؛ وبعد إعدامه الملك بطلميوس، ضم كاليغولا (Caligula) موريطانيا القيصرية بصفة نهائية إلى روما، ومن ثم انتهى حكم الملوك النوميديين في منطقة المغرب القديم.

أما فيما يخص الحياة الاقتصادية، فقد امتازت موريطانيا كغيرها من بلدان المغرب القديم بمناخ معتدل، وبثروة زراعية، أهمها القمح والشعير والفواكه ومنها الكروم، إلى جانب الثروة الغابية التي توفر أخشابا ذات جودة عالية مثل خشب العفصية، كما كانت لموريطانيا ثروة حيوانية معتبرة تتمثل في البقر والخيل والحيوانات المتوحشة كالفيلة والأسود، التي نقل منها الرومان الآلاف لعرضها في مسارحهم. بالإضافة إلى الثروة البحرية المتنوعة كسمك التونة، الذي ذاع صيته في حوض المتوسط. وفي الصناعة ازدهرت صناعة الصباغة الأرجوانية، حيث أقام يوبا الثاني مراكز لها في الصويرة، وقد بلغت منتجاتها من الجودة درجة تغنى بها الشعراء الرومان تحت اسم "المرجان الجيتولي" (Pourpre getule). لم يتوقف وهتم يوبا الثاني بتطويرها.

وفي المجال الثقافي اعتبر يوبا الثاني ملكا مثقفا، إذ بعد أن تشبع بالثقافة الإغريقية واللاتينية في شبابه، اهتم بالفن والعلوم لما نصب ملكا، فجلب النحاتين والفنانين والعلماء إلى عاصمة ملكه، وكتب في التاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي والفلسفة، لكن يظهر أن هذا الاهتمام لم يعرف تواصلا مع ابنه بطلميوس.

وفيما يتعلق بنمط معيشتهم، لا نعرف عنها الكثير، ويقول في هذا الشأن بروكوبيوس " أنهم يسكنون في أكواخ تقل فيها التهوئة، لا الثلج والحرارة ولا شيء آخر يدفعهم إلى تركها، ينامون على الأرض والغني منهم يملك قليلا من الماشية، وكانت ملابسهم عبارة عن جلباب طويل ومعطف، يعتمدون في طعامهم على القمح والشعير "[99] وحسب صالوستيوس يعتمد الموريون في حياتهم على الصيد

الأوضاع في شبه جزيرة إيطاليا عشية تدمير قرطاجة

ينقسم تاريخ شبه جزيرة إيطاليا إلى ثلاث مراحل رئيسية :

- عصر الملكية من 753 إلى 509 ق.م.
- عصر الجمهورية من 509 إلى 27 ق.م.
- عصر الإمبراطورية من 27 ق.م. إلى 476 م.

تقع شبه جزيرة إيطاليا في شمال غرب المتوسط، جنوب غرب أروبا. تأسست خلال القرن الثامن قبل الميلادي (753 ق.م.)، استقرت بها وبجزيرة صقلية جماعات إغريقية، ثم تبعتها عناصر اترسكية نزحت من ليديا (Lydie) بآسيا الصغرى، استوطنت بالسواحل الغربية لإيطاليا، واستغلت أراضيها بفضل خبرتها الزراعية العميقة وصناعتها المتطورة. وفيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد، استطاعت روما أن تؤسس دولة قوية وواسعة شملت أهم السهول الغربية لإيطاليا كسهل البو (Po) اللاتيوم وكمبانيا .(الخريطة رقم 6)

وفي 530 ق.م. نشب الصراع الإغريقي الأترسكي بعد أن تصدى الأترسك بمساعدة الشعوب اللاتينية وقرطاجة للزحف الإغريقي نحو مستعمرة ألاليا (Alalia) بجزيرة كورسيكا بالبحر التيراني، وقد تمكن الإغريق ؛ بمؤازرة حاكم سرقوزة بصقلية ؛ من تحطيم الأسطول الأترسكي في عام 474 ق.م.

وفي القرن السادس أسست روما مع ست قرى لاتينية حلفا يعرف باسم العصبة اللاتينية، تعهدوا فيه بتبادل المساعدات أثناء الحروب، وقد لعبت فيه روما دورا بارزا [100].

شبه جزيرة إيطاليا

ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد، شرعت روما في ضم وتوحيد شبه جزيرة إيطاليا بعد إخضاع قبائلها تدريجيا، كالأترسك سنة 351 ق.م. والسابينيين والفلسكيين في واللاتين في سنة 338 ق.م. والسمنتيين في سنة 295 ق.م. ثم إغريق بجنوب إيطاليا.

وفي حوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، أطلقت روما على الأراضي التي ضمتها اسم أراضي العامة .(cuspubli Ager) "، ومنحت لسكانها حقوقا سياسية متباينة، عززتها بحوالي 250 مستعمرة مدنية أو عسكرية، ذات حقوق لاتينية أو رومانية، تضم كل واحدة حوالي 300 مستوطن مهمتهم استغلال الأراضي الزراعية الموزعة عليهم، وحمايتها عند الضرورة من أي خطر خارجي.

وبدءا من عام 264 ق.م. دخلت روما في صراع مع قرطاجة، تميز بقيام ثلاث حروب، معروفة بالحروب البونية انتهت بانهزام قرطاجة وزوالها سنة 146 ق.م[101]

وقد سبق احتلال الرومان لقرطاجة، احتلالهم لكل من كورسيكة وصقلية في عام 230 ق.م.، وتحويلهما إلى ولايتين رومانيتين، ومن ثم أتمت روما سيطرتها على الحوض الغربي للمتوسط. وللتحكم في الحوض الشرقي منه دخلت؛ منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلادي ؛ في صراع مع مقدونيا، دارت خلاله ثلاث حروب امتدت الأولى من 210 إلى 205 ق.م.، والثانية من 200 إلى 197 ق.م. والثالثة والأخيرة من 171 ق.م. إلى 168 ق.م.

لم يتوقف التوسع الروماني عند هذا الحد، وإنما امتد إلى كل مناطق حوض المتوسط حيث احتلت عام 146 ق.م. كورنثيا (Corinthe) ببلاد الإغريق وفي عام 133 ق.م. مدت نفوذها إلى مملكة برغام (Pergame) بآسيا الصغرى، وفي 67 ق.م. استولت على جزيرة كريت، ثم جاء دور بتينيا (Bithynie) لتسقط تحت السيطرة الرومانية في عام 65 ق.م.، ولقيت سوريا نفس المصير سنة 64 ق.م. وتلتها على التوالي كل من بلاد الغال في 51 ق.م.، ومصر في 31 ق.م. بعد معركة أكتيوم (Actium).

وبضمها جميع الأقاليم الواسعة والهامة في آن واحد، أصبحت روما في أواخر عصر الجمهورية أكبر قوة في حوض المتوسط دون منازع.

وفيما يخص الحياة الاقتصادية في شبه جزيرة إيطاليا، يمكن القول أن الشعب الإيطالي كغيره من شعوب المتوسط كان مزارعا. وقد أسهم في ذلك الإيمان الراسخ لدى المواطنين الرومان في أن المهمة الأولى والأساسية لكل روماني هي المشاركة في الحروب دفاعا عن الوطن، وأن النشاط الزراعي يعد المواطن للحرب أحسن إعداد، عكس النشاطات الأخرى مثل التجارة ومختلف الحرف، التي تعتبر أقل شرفا للمواطن الروماني، ولهذا كان اهتمام الأثرياء الرومان كالنبلاء والأشراف والفرسان بالزراعة، مما لم يساعد على تطور بقية القطاعات. ولهذا كذلك لم يكن التجار وأصحاب الحرف يستدعون للخدمة العسكرية إلا في أوقات الضرورة القصوى، ويستخدمون عادة كجنود على ظهر السفن الحربية.

كانت الزراعة تقوم على الحبوب كالقمح والشعير، أما الصناعة فقد كانت متأخرة عن مثيلتها في بلدان الشرق، وترتكز أساسا على صناعة الفخار، أما التجارة البرية فقد اهتم بها السكان الأصليون بينما التجارة البحرية تولاها المستوطنون الإغريق.

أما في عصر الإمبراطورية، فقد تغير الاقتصاد الروماني، ذلك أنه بعد استيلاء روما على مختلف الأراضي سالفة الذكر، شرعت في تعمير واستغلال أراضيها الخصبة والواسعة عن طريق المستعمرات. وقد تكالب الأثرياء الرومان على هذه الأراضي، وفشلت كل المحاولات الرامية إلى تحديد مساحتها، وأصبحت روما تستورد حاجاتها من المواد الزراعية والصناعية كالقمح والزيت وحتى النبيذ، دون التصدير. لكن بعد تفطنهم للأرباح التي يمكنهم جنيها من ورائها أولى الأثرياء الرومان اهتماما متزايدا بالتجارة التي كانت أنذاك حكرا على الشرقيين كالسوريين والمصريين والإغريق.

الحضارة الرومانية

استطاع الرومان ؛ في بضعات قرون ؛ أن يبنوا إمبراطورية واسعة، وقد أثرت روما تراثها الحضاري باقتباس ما يتلاءم معها من حضارات الشعوب التي أخضعتها، وهذا ما يلاحظ في بعض مقومات حضارتها المتمثلة في اللغة اللاتينة والتشريع والحياة الدينة والفن المعماري، التي ستسعى إلى فرضها على الشعوب التي أصبحت تحت سلطتها بما فيها سكان منطقة المغرب القديم.

بالنسبة للغة اللاتينة أحد أهم مقومات الحضارة الرومانية، كانت في الأصل، لغة سكان سهل اللاتيوم الريفيين، لذلك تميزت ببساطتها وبمحدودية رصيدها اللغوي، فهي عاجزة عن التعبير عن كل ما هو تقني وما هو مجرد [102]، وهذا الضعف جعل الرومان الأوائل غير قادرين عن الإبداع الفكري، لكن ولتدارك هذا النقص، لجأت روما إلى اللغة الإغريقية واقتبست منها كل ما تحتاج إليه؛ خاصة وأن الرومان كانوا على دراية باللغة الإغريقية عن طريق التجار الإغريق في المنطقة، والمسافرين القادمين من جنوب إيطاليا.

وتدريجيا، أثريت اللغة اللاتينية، وأصبح با الفرد مكان الروماني أن يعبر عن أفكاره وكل ما هو محسوس ومجرد. كما تطورت مختلف مجالات الإبداع الفكري من شعر ونثر ومسرح وخطابة وعلوم التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية.

وقد سعت روما إلى فرض لغتها على كل الشعوب التي أخضعتها ابتداء من العصر الإمبراطوري، بإعلانها اللاتينية لغة الإدارة والجيش والتجارة، وهذا ما يفند ادعاء البعض في أن روما لم تكن ولم ترد أن تكون أحادية اللغة [103].

كذلك عرفت الحياة الدينية نفس المسار الذي مرت به اللغة اللاتينية، إذ تميزت الديانة الرومانية في المجتمع البدائي الريفي بالبساطة [104]، فقد كانت كل أسرة تعبد الأرواح أو القوى الخفية التي ترعى البيت ومقر العمل والحياة الريفية، ومن أهم الآلهة التي كانت منتشرة نجد الإله مارس، باعث الحياة في النبات [105] ويوبتر (Jupiter)[106] إله الأرض والسماء، ويانوس[107] (Janus)، حارس الأبواب.

وقد كانت فكرة المعبودات غامضة وغير محددة عند الرومان الأوائل، ولهذا لم يبنوا لها المعابد ولم يقيموا لها التماثيل، أما الطقوس فكانت بسيطة إذ تتمثل القرابين في قدر من اللبن أو الخمر أو العسل[108]. ومع مرور الوقت تطورت بعض الآلهة الريفية، وأصبحت آلهة وطنية فأصبح يانوس حامي أبواب روما ومارس إله الحرب ويوبتر الإله الأكبر، كما برز الثالوث الروماني الأكبر المتكون من يوبتر ويونو ومينرفا. وفي أواخر العصر الملكي وبداية العصر الجمهوري بدأت التأثيرات الإغريقية تبرز بشكل جلي، حيث أخذ الرومان يشبهون آلهتهم بالآلهة الإغريقية المتماثلة في الخصائص، كما أزاح هذا التأثير الغموض الذي كان يكتنف الآلهة الرومانية التي أخذت أشكالا آدمية، وهذا ما ساعد على بروز المعابد والتماثيل[109]. لكن الطبقة الحاكمة، إن غضت الطرف عن التأثيرات الإغريقية في البداية، فإنها عملت على وضع حد لها منذ القرن الثالث قبل الميلاد، فمنعت إدخال آلهة أجنبية جديدة وحظّرت إقامة بعض الشعائر المستوحاة من الديانة الإغريقية.

بالإضافة إلى هذا اهتم الرومان بمجال التشريع في وقت مبكر، فقد كان القانون المطبق في بداية الأمر شفويا، لكن بإلحاح من طبقة العامة التي كانت تشتكي من عدم تطبيق القانون بعدل بين مختلف طبقات المجتمع، تم سن أول القوانين في منتصف القرن الخامس قبل الميلادي (حوالي 450 ق.م.)، وهي قوانين اللوحات الإثني عشرة، ومن بين ما نصت عليه، حق المواطن الذي يحكم عليه بالنفي أو الإعدام في الاستئناف مع إيقاف تنفيذ الأحكام في هذه الحالة، كما فصلت هذه القوانين بين الحياة الدينية والحياة المدنية [110]. ورغم طابعها البدائي، استمرت هذه القوانين ولمدة طويلة أساس الدولة الرومانية.

وقد تطورت القوانين استجابة للتطور الذي شهدته الدولة الرومانية في كل مجالات الحياة. وكون قوانين اللوحات الإثني عشرة كانت معقدة وغامضة بالنسبة للمواطن البسيط، أوكلت مهمة توضيحها إلى الكهنة في المرحلة الأولى، لكن مع التطور الذي عرفه المجتمع الروماني، برزت شخصيات اختصت بدراسة القوانين، لقبت " بفقهاء القانون، (Iuris Prudentes) "أو مستشارين قانونيين" (Iuris consulti)[111].

وفي مجال الفن المعماري، تميزت حياة الرومان في بداية عهد مدينة روما بالبساطة، فكانت منازل عامة الرومان تتكون في المدينة من غرفة أو غرفتين، بينما في الريف كانت عبارة عن أكواخ مبنية من الطين والقش، أما ميسوري الحال فكانوا يسكنون منازل واسعة تتكون من غرفة واسعة وعدد من الغرف الصغيرة [112]، وفي أواخر العصر الجمهوري وبداية العصر الإمبراطوري، وأمام تدفق الثروات من المقاطعات أصبحت منازل الطبقة الأرستقراطية فخمة تشبه القصور تتكون من عدد كبير من الغرف مصحوبة بكل الكماليات مثل الحمامات ودورات المياه والتدفئة [113]. أما عامة الشعب فوضعهم لم يتحسن كثيرا عما كانت عليه من قبل، حيث استمروا يسكنون شققا تتكون من غرفة أو إثنين توجد في أماكن مكتظة بالسكان.

وفما يتعلق بالمرافق العامة فقد ساعد تدفق الثروات على مضاعفة عدد المعابد وأقواس النصر والمسارح ومضامير سباق الخيل [114] والجسور المبنية من الحجارة، كما وقع الاهتمام بفتح الطرقات وقنوات نقل المياه.

الهوامش :

1) تتضمن المعاهدة الأولى التي أبرمت بين قرطاجة وروما سنة 509 ق.م. خمسة بنود تتمثل في التسهيلات التي ينبغي أن يقدمها كل طرف للآخر في الحالات الطارئة كالعطب الذي يلحق بالسفن، وتتمثل في السماح للطرف الآخر بالبقاء مدة لا تتجاوز الخمسة أيام مع عدم القيام خلالها بأي نشاط تجاري مع حلفائها خلالها. ويتلخص محتوى المعاهدة الثانية التي عقدت في عام 348 ق.م. والتي تضم ستة بنود، حياد روما في حالة هجوم قرطاجة على المدن اللاتينية الغير خاضعة لروما، وتحديد موقف الطرفين تجاه أسراهما ومواطنيهما، بالإضافة إلى تحديد مناطق نفوذهما وحقوقهما التجارية في كل من سردينيا وليبيا. أما المعاهدة الثالثة والأخيرة التي تعود إلى عام 278 ق.م. فكانت ذات طابع عسكري في مجملها، ويبرز فيها شبه توازن في قوة الطرفين قبل خوضهما للحرب البونية الأولى، راجع :

Polybe , Histoire , texte traduit , présenté et annoté par Denis Roussel , edit., Gallimard, Denis Roussel, Paris, 1970, III , 22, 24.

2) خرب حنبعل طيلة هذه المدة الأراضي المحيطة بروما، ونكل ببعض سكانها تنكيلا وتحالف مع البعض الآخر منهم، ونتيجة عدم وصول الإمدادات القرطاجية له في الوقت المناسب، منيت جيوشه بخسائر بشرية كبيرة خاصة بعد تفشي مرض الطاعون في صفوفها، راجع،

Tite Live, Histoire romaine, edit, W. Weissenborn et A. Muller 1962 . XXVII, 25, 28, 35, 51

وبعد عودته إلى إفريقية وانهزامه في معركة زاما سنة 202 ق.م. أمام سكيبيو، وبعدما علم برغبة الرومان في محاكمته، وفقدانه هيبته، توجه حنبعل إلى أنتيوكوش الثالث (Antiochos) حاكم سوريا ثم إلى بروزيا (Prusia) ملك بتينيا (Bithynia) حيث انتحر هناك عام 183 ق.م. بعد أن علم بملاحقة الرومان له راجع Ibid , XXX, 19, 20, 25, 29;Polybe, XI, 1-3 ; XV, 5-9 معروف أن ماسنيسا كان في أول الأمر يساند قرطاجة في صراعها مع روما، لكن عندما أدرك تواطئ قرطاجة مع خصمه صيفاكس، غير موقفه تجاهها وتحالف مع روما باعتبارهما أقوى من قرطاجة آنذاك لينتقم منها، بسبب تنكرها لما قدمه لها من مساعدات وتلاعبها بمصير النوميديين.

4) Decret (F), Carthage ou l'empire de la mer , Tours , 1977 , PP, 72/73
5) Ibid.
6) Ibid.
7) Ibid.
8) Aristote, Politique , II , 8,2.
9) Decret (F) , op cit , P , 73.
10) Ibid.

11) هو اللقب الذي منح إلى المسؤول الأول في البلديات ،

Toutain (J) , Cité romaine de Tunisie , étude sur l'histoire de la colonisation romaine dans l'Afrique du nord , Paris , 1895, n° 2 , P, 351.

بينما يرى ستيفان غزل أن مصطلح الشوفاط يعني القاضي،

Histoire de l'Afrique du nord , Osnabruck , 1972, T, II , P, 193 .

12) Aristote , op cit ., II , 8, 5.

13) Tite Live , XXVIII , 37, 2.

14) Ibid .

15) Polybe , X , 2, 18 XXXVI , 1, 4 .

16) Tite Live , XXX, 16, 3.

17) Decret (F) , op cit , P, 77 .

18) Muller (L) , Numismatique de l'ancienne Afrique , Copenhague , 1860/62, T, III , P, 60 ,

19) Ibid , supplement , 1874 , P, 67 , n° 76.

20) Polybe , I , 80, 6.

21) Gsell (S) , op cit , T, VI , PP, 108/109.

22) Mazard (J) , Corpus Nummorum Mauretaniaque , Paris, 1955 , P, 18, n° 1.

23) Ibid , P, 21 , n° 13.

24) Ibid , P, 30 , n° 17/18.

25) Muller (L) , op cit , P, 88 , n° 1 ; supple., P, 60.

26) Ibid , PP, 42/43 , n° 50, 58 ; Mazard (J) , op cit, P, 50 , n° 84,85 ,87, 90 ,93.

27) Muller (L) , op cit , P, 48 , n° 59,64 , supple., P, 65.

28) Ibid , PP, 97/98 , n° 9,11 , Mazard (J) , op cit , P, 62 , n° 107.

29) Muller (L) , op cit , P, 110.

30) Mazard (J) , op cit , P, 126 , n° 396.

31) Polybe , XII , 26, 3 ; Herodien ,Histoire romaine , edit., K. Stavenhagen , 1922. V , 5, 10

32) جوليان (شارل أندري)، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة، محمد مزالي والبشير سلامة تونس 1969، ص117

33) Gsell (S) op. cit , T, IV , 188 ; Tite Live , XXI , 9 21

34) Gsell (S) op, cit , T, IV ,P ,301.

35) Ibid, P, 226

36) Ibid , P, 231

37) C.I.S., 195

38) C.I.S., 380 ; Cintas (P) , Le sanctuaire punique de Sousse , R.Af, n°, XC, 1947, PP, 44/45.

39) Decret (F), op cit, P, 136.

40) Gsell (S), op cit ,P, 301 ; Decret,(F), op cit, P. 133.
41) Ibid , P, 132.
42) Gsell (S), op cit, P, 391.
43) Ibid, P, 393.
44) Decret (F) ,op cit ,P, 141
45) Diodore de Sicile, edit. C. H. Oldfather, 1967, XX, 4 ,14.
46) Decret (F), loc cit.
47) Gsell (S), op cit , P, 144.
48) Dion Cassius , Histoire romaine, trad, Gros (E), Paris,1845/ 1870, XXIV,10
49) Bellum civium , Librer edi Appianus , t, Teubner, 1906 V, 11.
50) Plutarque, Les vies des hommes illustres, trad. Amyot,Gallimard, edit, Caes, 35
51) Mazard ,(J) op cit , PP , 22,23, 30, 32, 45, 52
52) Gsell (S) op cit , T, I , P, 316
53) Johannis , ed, Diggle,Goodyear , London, 1970 XVI, 6 "Varia ...linguas"

54) تم العثور على حوالي 1125 نقش ليبي، ويؤكد أحد الرومان الذي كان يقيم في إفريقيا أيام الحكم الروماني أنها تتكون من 23 حرفا، جوليان (ش.أ)، المرجع السابق ،ص 78

55) جوليان (ش. أ.)، المرجع السابق

56) إن هذا النقش إهداء من طرف الملك مكيبسا لوالده ماسنيسا، أنجزه في السنة العاشرة لحكمه، وهو ما يقابل عام 139 ق.م..

57) Mazard,(J) op cit, P, 18, n°, 1, 2, 3; P, 21, n°, 13, 15 ; P, 30, n°, 17, 18, 19
58) Mommsen (T), Histoire romaine, Paris, 1985; P, 961.

59) جوليان (ش. أ.)، المرجع السابق، ص، 75.

60) Gsell (S), op cit, T, V, P ,253.

61) جوليان (ش.أ)، المرجع السابق، ص، 75.

62) Gsell,(S) op cit, P, 214
63) Herodote,Oeuvres completes, Enquêtes, trad. A. Barquet, Belgique, 1982 IV, 190 Virgile, Georgique, edit., H. Goltzer, Paris, 1956 , III , 343/44 ; Tite Live XXIX, 31,8 ; Pline l'ancien, Histoire Naturelle, trad. J. Beaujeu, edit., les Belles Lettres Paris, 1950 ,V, 22 ,
64) Ibid, XVI , 178
65) Herodote, loc cit
66) Herodote, loc cit ; Strabon , Géographie ,edit., H.L.Jones , Londres 1949 , III, 4,3 ; XVII , 3,8 ; Pline l'ancien, XIII , 104,106 ,
67) Varron, L'économie rurale ,trad., Rousselot , Paris, 1843. III , 14, 4 ; Pline l'ancien. X , 173 ; XXVIII, 211 ; XXX, 44/45
68) Procope , La guerre des vandales , edit. (P) Mury, ,Paris , 1990, II , 6, 13

69) Gsell (S) , op cit ,T, VI , P, 7
70) Elien , De la nature des.animaux., XIV , 16
71) Pomponius Mela , Collection Nisard, Paris , 1850 I, 41; Strabon , XVII , 3, 11
72) Ibid , XVII , 3, 7
73 Herodote , IV , 189
74) Gsell (S) , op cit , T, IV , P, 23
75) Muller (L) , op cit , P, 90/91, n° 2
76) Pomponius Mela , I , 41

77) نقلا عن Gsell (S), op cit, T, VI, P, 23

78) Ibid
79) Tissot (Ch),Géographie comparée de la province romaine d'Afrique. Paris,1884,T,I ,P, 495
80) Johannis ,II , 135/36
81) Gsell (S) , op cit, T, I , P, 226, n° 13
82) Leglay (M), Saturne africain ,Paris , 1966, PP, 140/41 (82
83 C .I.L. , VIII , 2637, 2641
84) C.I.L ., VII , 248

85) جوليان) ش.أ . (، المرجع السابق، ص، 254

86) Gsell (S) , op cit, T, VI , P, 171
87) Muller (L) , op cit , P, 18, n° 291
88) Gsell (S) , loc cit

89) جوليان (ش.أ) ، المرجع السابق، ص، 79

90) Gsell (S) , op cit, P, 191
91) Ibid , P, 177.
92) Silius Italicus , Punica , edit Lud Bauer, 1890/1892, XIII, 479/80.
93) Camps (G) Monuments et rites funéraires protohistoriques , Paris, 1961 , PP,477/499
94) Herodote , IV, 190

95) جوليان (ش. أ .)، المرجع السابق، ص، 79.

96) لم يستطع المؤرخون والجغرافيون تحديد هذا النبات، وبصفة عامة كان الليبيون يستعملون أوراقه وأغصانه وعسقله وعصيره كخضر وكدء وتوابل ودواء لمعالجة عدة أمراض، ونظرا للأهميته نقش الليبيون صورته على عملتهم، ونظرا لإستعماله المكثف انقرض اليوم.

Pline l'ancien, XII ; Herodote, IV, 169 ; Strabon , XVII 322 ; 100 - 100105.

97) Aldred (Cyril) Les Egyptiens, Paris ; 1985 PP, 198/199. Dumas,(F) La civilisation de l'Egypte pharaonique; 1987, p, 82.

98) Benabou (M), La résistance africaine à la romanisation , Paris, 1976, P, 56

99) La guerre contre les vandales, livres III et IV, Trad ,et commenté par Denis Roques, Paris, 1990, II, IV, 10.

100) أسست سبع قرى لاتينية هذا الحلف، وشارك فيه السابنيون (Sabins) والرومان إلى جانب اللاتين والأترسك والتزموا بإخضاع جميع الشعوب الغازية لأراضيهم. وقد كان لروما هيبتها ومكانتها الممتازة في العصبة، بعد استيلائها ؛ في العهد الملكي ؛ على أراضي واسعة كثيرة، تتمثل في ألبة لونجة (Alba longa) وأستيا. (Ostia) لكن في عام 509 ق.م. ؛ عندما طردت روما آخر ملوك الأترسك ؛ هاجمها الأترسكيون بقيادة بورسينة(Porsenna) ، وسيطروا على المدينة لفترة قصيرة، تدخلت القبائل اللاتينية إلى جانب روما، حلت إثرها تلك العصبة. وفي سنوات 499 ق.م. و494 ق.م. و430 ق.م. دخلت روما في حروب مع أعضاء العصبة، انتهت لصالحها وإثر ذلك بعثت العصبة ثانية، وبرز دور روما في حماية سهل اللاتيوم من هجمات الأترسك..

101) أنظر الصفحات، 8 و9.

102) Grimal (P) La civilisation romaine , Tours ,1984 , PP, 149/150

103) Benabou (M) op, cit , P, 471

104) Homo (L), Nouvelle histoire romaine , Paris, 1969 , P, 52

105) Schmidt (J), Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine , Paris 1965, PP, 192/193 ,

106)Ibid , 174

107)Ibid , 171

108) نصحي (إبراهيم)، تاريخ الرومان، القاهرة، 1978، ص، 93 ؛

109) نفسه، ص، 425

110) Grimal (P), op cit, P, 99

111) نصحي (إبراهمي)، المرجع السابق، ص، 422

112) نفسه، ص، 15 ؛ Grimal (P), op ,cit , P 195

113) Ibid, 231.

114) Maurice (S), Tranoy (A), La méditerranéen antique , IV° siecle av.J-C/ III ap.C.J. Paris, 1990, P, 169.

الباب الأول

الاحتلال الروماني
لبلدان المغرب القديم

بعد تأسيسها في القرن الثامن قبل الميلاد في شبه جزيرة إيطاليا، وإخضاعها للقبائل اللاتينية والأترسكية والسانية والفلسكية وغيرها، أخذت روما تتطلع إلى الهيمنة على بلدان حوض المتوسط، فدخلت في صراع مرير مع سيدة البحر المتوسط قرطاجة، وتمثل هذا الصراع في خوضها غمار الحروب البونية الثلاثة، التي امتدت من 264 ق.م. إلى أن انتهت لصالحها في عام 146 ق.م. لكن قبل الحديث عن الاحتلال الروماني الاستيطاني لبلدان المغرب القديم، ينبغي معرفة دوافع هذا الاحتلال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

الفصل الأول

دوافع الاحتلال الروماني لقرطاجة ونوميديا وموريطانيا القيصرية

أولا : الدوافع الاقتصادية

1) تراجع الزراعة الرومانية في شبه جزيرة إيطاليا

ارتبطت حياة الفرد الروماني منذ أقدم العصور ارتباطا وثيقا بالأرض، وكان يفضل امتلاكها، والاعتماد عليها في حياته رغم ظروف العمل الصعبة، أكثر من اعتماده على أي نشاط آخر. فقد كان استغلال الأرض وتربية الماشية وما يوفر له من محاصيل، أهم نشاط اقتصادي عرفته روما، وكانت الأرض تستغل بصفة جماعية من قبل كل أفراد الأسرة، وبالنسبة للإنتاج كان القمح أهم محصول زراعي وأساس غذاء السكان[1].

ورغم تطور روما من قرية إلى مدينة كبيرة وفيما بعد إلى عاصمة إمبراطورية مترامية الأطراف، فإن الإنسان الروماني ظل متعلقا بالأرض، وعبر عن ذلك الشاعر كلوديان (Claudien) (370/404م.) بقوله :

سعيد من يعيش في حقوله الموروثة
راضيا بما تغله الأرض
ومن يستطيع النظر إلى حياته الماضية بابتهاج
ومن لا يمكن إغراءه على الفرار من مزرعته

ومن ليس بتاجر قلق على الربح
فلا ترهبه العواصف التي تلاطم البحر الهادر
ومن ليس بجندي يخشى نداء الحرب
ومن لا يفزع من الصرخات المنطلقة في المحاكم الصاخبة...[2]

لهذا كان الرومان، ما إن يستولوا على منطقة، إلا وأعلنوا أرضها ملكية عامة للشعب الروماني (Ager publicus)، وتبعا لذلك، استحوذت روما على مساحات شاسعة وزعتها على المواطنين الرومان البسطاء ليستوطنوا بها ويستغلونها، والملاحظ أن عدد هؤلاء كان في البداية قليلا بالنظر إلى شساعة الأرض المحتلة، وهذا ما سمح فيما بعد للسلطة الرومانية بتوزيعها على الشخصيات المرموقة في المجتمع والمتمثلة في الأشراف والنبلاء إلى جانب أعضاء مجلس الشيوخ والقادة العسكريين البارزين [3]، لكن الحروب التي خاضتها روما، إن سمحت بتوسيع ممتلكاتها، فإنها في نفس الوقت أتت بنتائج سلبية على الزراعة الرومانية، بحيث عوض أن يتضاعف الإنتاج بتضاعف الأراضي الزراعية، حدث العكس. ذلك أن الحروب الرومانية في شبه جزيرة إيطاليا وفي المتوسط، سمحت للطبقة الغنية بالاستحواذ على أراضي شاسعة في وسط وجنوب إيطاليا، بعد تخلي ملاك الأرض الصغار الذين كانوا يعيشون من عملهم في أراضيهم وتحولوا إلى أجراء لدى الملاك الكبار[4] الذين تميزوا بالجشع حيث لم تعد الأرض التي استفادوا منها تكفيهم وظلوا يستولون على أراضي الملاك الصغار إما بالإغراء والتراضي أو بالقوة [5].

لقد ترتب عن هذه الظاهرة، الاختفاء التدريجي للمزارع الصغيرة والمتوسطة التي كانت تساهم بقدر كبير في إنتاج الحبوب. لكن تردي حالة الزراعة الإيطالية، لم يتوقف عند هذا الحد، بل ازدادت سوءا ذلك أن التوسعات سمحت لروما بامتلاك آلاف العبيد الذين كانوا يستغلون في الضيعات الواسعة كعمال أو رعاة بدل العمال الأحرار[6]. وأمام البطالة التي أصبحوا يعانون منها، انتقل العمال الأحرار إلى المدن بصفة عامة وإلى روما بصفة خاصة بحثا عن ظروف حياة أحسن، لكن مواطن الشغل كانت محدودة، واكتظت المدن بالعاطلين عن العمل، مما دفع السلطة إلى أن توفر لهم المساعدات الغذائية مجانا، تفاديا لما قد يحدثونه من مشاكل.

إلى جانب هذا، تطلبت الحروب العديدة التي خاضتها روما في مختلف جهات العالم، مضاعفة عدد جنودها، وبما أن قوتها العسكرية قبل عصر القائد ماريوس (Marius) انحصرت في ملاك الأرض، فإن الكثير من هؤلاء كانوا عند تجنيدهم يبيعون أراضيهم إلي الملاك الكبار، أما الذين يرفضون التخلي عنها للعودة إليها واستغلالها بعد قضاء الخدمة العسكرية، يكتشفون أنها أصبحت في حوزة مالك كبير وعن هذه الظاهرة يذكر الخطيب كنتليوس فاروس (Quintilius Varus) 100/30م. "أصبحت الحقول التي كانت تغذي عائلات عديدة، حديقة شخص واحد وامتدت ضيعة الغني بعيدا كالنهر الذي يفيض دون احترام النصب التي تحده، أزيلت مباني المزارع الصغير والمتوسط، وهدم معبد العائلة، وفر الفلاحون مع زوجاتهم وأبنائهم... بالتحامها تحولت المزارع إلى عزلة تامة "[7].

بالإضافة إلى النتائج السلبية المترتبة عن موضوع البطالة والتجنيد، تم تغير المزروعات، إذ عوضت الزراعات النقدية والصناعية كالزيتون والكروم زراعة الحبوب وأهمها القمح، مما أجبر روما على جلب هذه المادة الحيوية من الخارج، وهذا أدى إلى تدفق قمح المستعمرات على روما مجانا أو بأسعار زهيدة كقمح صقلية وسردينيا التي كانت تحصل عليه روما في شكل ضريبة عينية، والملاحظ أنه تدريجيا أصبح القمح المستورد ينافس القمح المحلي المحدود، ومن ثم ترتب عن هذه المنافسة، إفلاس الكثير من مزارعي الحبوب [8]، وتخلي البعض الآخر عن زرعها وخاصة القمح وتوجه إما نحو زراعات جديدة كالكروم والزيتون، وإما نحو تربية الماشية، وهذا أدى في حد ذاته إلى تحول مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية إلى مراعي [9]، لا سيما وأن عملية الرعي لا تتطلب تخصصا، وتتم من طرف العبيد تحت إشراف مراقبين.

وتجدر الإشارة إلى أن تغيير النشاط الزراعي في شبه جزيرة إيطاليا، كما سبق ذكره، لم ينقذ الملاك الصغار من الإفلاس، حيث لا تتلاءم النشاطات الجديدة مع الوحدات الزراعية الصغيرة والمتوسطة، إذ تحتاج إلى مساحات واسعة ويد عاملة كثيرة، وهما العنصران اللذان يفتقر إليهما الملاك الصغار، بينما يتوفران لدى الملاك الكبار[10]. وبهذه الأساليب، اختفت المزارع الصغيرة والمتوسطة التي يقول

عنها صالستيوس (Sallustius) "يتقاسم القادة العسكريون المنتصرون ثمار التوسعات بطرد أبناء أو أحفاد الجنود "[11]. ويضيف الشاعر اللاتيني هوراس (Quintus Horatius Flaccus) "رجل جشع نراك تقتلع نصب المزرعة المجاورة لمزرعتك وتقفز على حدود أتباعك وتطرد الزوجة والزوج..."[12].

لقد أدت كل هذه الأوضاع إلى خلو الريف الإيطالي من المزارعين الأحرار، وهذا ما لاحظه المصلح غراكوس (T.Gracchus) عندما تنقل من روما إلى نومانس عبر أتروريا (Etrurie)، حين شاهد هذا البلد الجميل، خاليا من العمال الأحرار ولا يستغل إلا من طرف الأجانب والبرابرة [13].

إن وضع الملاك الصغار متشابه في كل شبه جزيرة إيطاليا، وتشغيل الملاك الكبار للعبيد دفع العمال الأحرار إلى الهجرة نحو المدينة وخاصة روما التي تبدو فيها الحياة سهلة ورائعة، حيث تتميز بتوفر وسائل التسلية التي تتمثل في ألعاب السيرك والمسارح..لكن إلى جانب ذلك ينبغي توفير الغذاء، ولذلك أخذ الشعب الروماني يطالب بالخبز والسيرك (Panem et Circenses) ، حتى قال المؤلف فارو (Marcus Terentius Varro) في هذا السياق "كل أرباب الأسر تركوا المنجل والمحراث وهاجروا إلى روما أين اختاروا التصفيق في المسرح وفي السيرك بدل عمل الأرض" [14].

ومهما يكن من أمر، فإن التراجع في الإنتاج الزراعي بصفة عامة والقمح بصفة خاصة، دفع بروما إلى البحث عن مصادر جديدة تمون بها المدن الرومانية تفاديا لحدوث المجاعات من جهة، وأحداث الشغب من جهة أخرى.

2) ازدياد حاجة روما إلى المنتجات الزراعية

وجدت روما في سهول بلدان المغرب القديم المجال الحيوي المناسب، خاصة وأن شهرتها في إنتاج القمح وصلتها منذ زمن بعيد، فقرطاجة وبطلب من سكيبيو مونتها سنة 203 ق.م. بـ500 ألف صاع من القمح و300 ألف صاع من الشعير مقابل السلم الذي كانت تطلبه[15]، وفي بداية القرن الثاني وبعد معركة زاما، فرض عليها

سكيبيو تموين الجيوش الرومانية بالقمح والشعير لمدة ثلاثة أشهر [16]. وفي عام 200 ق.م. مونتها ب400 ألف صاع من القمح و750 ألف صاع من الشعير [17]، إلى جانب ذلك اشتهرت نوميديا في عهد ماسنيسا بإنتاجها وتصديرها للقمح، وهذا ما يبرز من الكميات الهائلة التي كان يرسلها نحو بلاد الإغريق يموّن بها الجيوش الرومانية المحاربة في الشرق، إذ أرسل عام 200 ق.م. 200 ألف صاع من القمح وكمية مماثلة من الشعير، وفي عام 191 ق.م. زود روما ب300 ألف صاع من القمح و250 ألف صاع من الشعير، وفي سنة 170 ق.م. أهدى الجيوش الرومانية في مقدونيا مليون صاع من القمح.

3) أطماع الأثرياء الرومان في المقاطعات

إلى جانب الزراعة، عمد النبلاء والقادة العسكريون ؛ الذين كانوا يسعون إلى تكوين الثروات الضخمة الضرورية لمواجهة متطلبات حياتهم الاجتماعية والسياسية إلى ممارسة التجارة، هذا النشاط الذي استمر حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد مزدريا من طرف طبقة النبلاء والإقطاعيين الذين كانوا يحتقرون من لا يعيش من الأرض، وخير دليل على عدم اهتمام روما بالتجارة الخارجية حتى النصف الأول من عمر الجمهورية، المعاهدتان اللتان عقدتهما مع قرطاجة سنتي 509 ق.م. و348 ق.م.، حيث أمنت روما في المعاهدة الأولى سلامة سهل اللاتيوم من الاحتلال الأجنبي، لكنها اعترفت لقرطاجة باحتكار التجارة في الحوض الغربي للمتوسط، كما سمحت للتجار القرطاجيين دخول روما وأقاليم حلفائها اللاتين دون أدنى قيد أو شرط، في حين لم تتحصل روما على نفس الحقوق في قرطاجة والأقاليم التابعة لها، ونفس الوضع حافظت عليه المعاهدة الثانية [18].

ودائما في نفس الصدد، نلاحظ كيف يلخص شيشرون ازدراء الرومان للأعمال اليدوية والتجارة، ومدى تعلقهم بالزراعة بقوله : "أن الذين يزاولون الأعمال اليدوية ليسوا فنانين وأن التجار لا يستطيعون الظفر بما يكسبون دون الإفراط في الكذب" [19]. كما أن القانون الروماني حظر على أعضاء السناتو مزاولة التجارة والأعمال

المصرفية، لكن الواقع يختلف عن ذلك، إذ لم يكن من العسير عليهم ممارسة هذه النشاطات عن طريق وكلاء [20].

4) توسيع النشاط التجاري للأثرياء

وإذا ما أردنا التطرق إلى العوامل التي ساعدت في تنشيط التجارة الرومانية، فإنه يمكن حصرها في النقاط التالية :

1) توسع الإمبراطورية وتنوع أقاليمها من جهة، وتزايد عدد سكان روما من جهة أخرى، إذ لم تعد مطالب الرومان تنحصر في المواد الضرورية كالقمح والشعير والزيت، بل تعدت ذلك إلى المواد الكمالية كالحلي والعطور والملابس الفاخرة. وأمام تراجع الإنتاج الإيطالي أصبحت الحاجة ملحة لتغطية العجز عن طريق الاستيراد.

2) تحالف طبقة النبلاء لكمبانيا مع نبلاء روما لدفع السلطة الرومانية إلى التوسع نحو الجنوب حتى صقلية، وبالتالي دفعها إلى التصادم مع قرطاجة والقضاء على احتكارها لتجارة الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقد دافع القنصل أبيوس (Appius Claudius Caudex) الذي كانت تربطه علاقات متينة مع نبلاء روما وكمبانيا عن هذا التوجه، متذرعا بالخطر الذي تشكله قرطاجة على شبه جزيرة إيطاليا بصفة عامة وروما بصفة خاصة [21]، بينما الواقع يدل على أن التجار الإيطاليين كانوا يطمحون إلى الهيمنة على تجارة هذه الجهة من المتوسط.

3) الأرباح الضخمة التي كانت تجنيها قرطاجة والمدن الإغريقية من ممارسة التجارة في جنوب إيطاليا، مما حدا بأفراد طبقة الفرسان التي تعتبر طبقة أرستقراطية، أن تتطلع لتوسيع نشاطها ومده إلى مختلف الأقاليم المتوسطية الغربية ومنها إلى بلدان المغرب القديم التي تزخر بثروة زراعية وحيوانية معتبرة، يكثر عليها الطلب في روما، ويتجلى اهتمام الرومان بهذه المنطقة من إقامة عدد من التجار الإيطاليين بها، كالذين أقاموا في مدينة كيرتا [22] (Cirta)، وهم التجار الذين ساندوا أدهربعل في حربه ضد يوغرطه، بالإضافة إلى التجار الذين استقروا في مدينة باجا (Vaga)[23]

وتجدر الإشارة إلى أن الإقطاعيين الإيطاليين وعلى رأسهم كاتو، لعبوا دورا مهما في توجيه السياسة التوسعية الرومانية في بلدان المغرب، ذلك أن الزراعة شهدت في قرطاجة وفي الأراضي التابعة لها بنوميديا وموريطانيا وليبيا تطورا سريعا بعد الحرب البونية الثانية ؛ إذ يظهر أن قرطاجة، بعد أن فقدت دورها الريادي في التجارة بحوض المتوسط ؛ ركزت اهتمامها على الزراعة لتلبية حاجاتها الداخلية، وبذلك تطورت زراعة الحبوب والزيتون والكروم وغيرها من المحاصيل. لكن هذا التطور، أثار مخاوف منتجي الخمر والزيت الإيطاليين من عودة قرطاجة إلى السوق العالمية [24]، خاصة وأنها تملك تجربة واسعة في مجال المبادلات التجارية مع المناطق التي كانت تابعة لها قبل فقدانها إثر الحرب البونية الثانية، بينما كان الإيطاليون يطمحون في احتكار تجارة المواد المذكورة آنفا، ولذلك لم يكن كاتو ومن ورائه الملاك الكبار يترددون في الضغط على السلطة الرومانية لتدمير قرطاجة بترديده جملة المشهورة " يجب تدمير قرطاجة (Delenda est Carthago).

والملاحظ أن أهمية بلدان المغرب تضاعفت بالنسبة لروما، التي أصبحت تابعة بنسبة كبيرة لمحاصيلها، وغدت تخشى المجاعات كلما أوقف المتمردون بهذه البلدان تصدير إنتاجها نحوها، وهذا ما نلمسه في قصيدة الشاعر اللاتيني كلوديان (Claudien) وهو يتحدث على لسان روما، عندما تمرد القائد جيلدون (Gildon) وحجز القمح الموجه نحوها في عامي 379 م. و398 م. بقوله :

لقد أعطوني ليبيا ومصر
حتى الملك الشعب
بمجلس شيوخه سيد البحر
يمكن أن يمون بحرا كل صيف
ويرى خزائنه ملأى قمحا
من طرف هذا البلد أو ذاك
كانت إذا الحياة مؤمنة
وإذا غابت منفيس (Memphis)

يعوض بقمح الجيتول
حصة مصر
الأساطيل تتنافس
لتأمين حمولتها من الحبوب
وهاهو جيلدون
حرمني من هذا المورد [25]

وفي هذا السياق نلاحظ أن الرومان حاولوا دون جدوى احتكار التجارة في بلدان المغرب القديم التي كانت بيد الشرقيين، والذين حققوا من ورائها أرباحا ضخمة. وبصفة عامة تحولت روما إلى أكبر مركز تجاري في العالم، بحيث كانت وجهة كل سلع الأراضي الواقعة حول البحر المتوسط، زراعية كانت أم صناعية وهي الوضعية التي عبر عنها الخطيب يوليوس أرستيد (Julius Aristide) بقوله : "من كل الأراضي والبحار تتدفق عليكم منتجات كل الفصول... ضيعتكم الفلاحية تضم صقلية ومصر وكل الأراضي المزروعة في إفريقيا، مع ذهاب وإياب مستمرين للسفن في موانئكم " [26]

إن رغبة روما في السيطرة على بلدان المغرب تهدف إلى البحث عن الثروات عن طريق السلب والنهب وفرض الضرائب المرتفعة على المهزومين، وفي هذا السياق تبنى الرومان وسائل أخرى تقضي بجمع كنوز الأسر الحاكمة المغلوبة على أمرها، بهدف إقامة النصب التذكارية ومكافأة الجنود بعد الحروب، ويذكر على سبيل المثال أنه بعد معركة زاما تحصل كل جندي روماني من المشاة على 40 دينيي (Denier)[27]، و5 دينيي لكل (Centurion) و75 دينيي لكل فارس، كما غنم القائد الروماني ماريوس بعد هزيمته ليوغرطه على كنز معتبر قدر ب3007 رطل من الذهب و5775 رطل من الفضة و17028 دراخمة [28].

وفي الحقيقة ساهم هذا السخاء في تعزيز العلاقة بين القائد وجنوده على حساب الأهالي.

بالإضافة إلى سياسة الاستنزاف التي تبنتها الإمبراطورية الرومانية، وجعلتها عماد سياستها الخارجية وأحد مصادر الثروة، حولت روما نسبة كبيرة من الشعوب المهزومة إلى عبيد، شكلوا بدورهم مصدرا آخر للغنى وهذا ما قام به على سبيل المثال ماريوس، إثر تدميره مدينة قفصة (Capsa) سنة 107 ق.م. خلال صراعه مع يوغرطه، حيث قتل عددا كبيرا من البالغين وباع الباقي كعبيد، وتقاسم ما درته عليه هذه العملية من أموال مع جنوده[29].

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المصدر المالي لعب دورا هاما في الاقتصاد الروماني، حتى أن روما أعفت مواطنيها سنة 167 ق.م. من دفع بعض الضرائب.

ثانيا : الأسباب السياسية والاجتماعية للاحتلال الروماني لبلدان المغرب القديم

1) تمويل الحملات الانتخابية للمسؤولين الرومان

تتمثل الأسباب السياسية والاجتماعية للاحتلال الروماني لبلدان المغرب في سعي المسؤولين الرومان إلى كسب تأييد المواطنين الرومان في الانتخابات المختلفة لنيلهم المناصب العليا أو المحافظة عليها، وهذا كما هو معروف لن يتأت لهم إلا بتوفير كل ما يحتاجه هؤلاء من مواد غذائية، ووسائل الترف، كما سبق ذكره[30]. لذلك عمد الطامعون في المناصب المرموقة إلى دفع السلطة إلى خوض غمار الحروب لتحقيق المكاسب المالية، وليتمكنوا من توفير الأموال الضرورية التي تحتاجها "حملاتهم الانتخابية". ومن بين أهم المناطق المتوسطية التي ساهمت في ذلك، بلدان المغرب التي كانت توفر جزءا كبيرا من القمح في أول الأمر والزيت وغيرها من المواد الأساسية والكمالية فيما بعد.

2) توطين العناصر الإيطالية في المقاطعات

سعت السلطة الرومانية إلى التخلص من العناصر العاطلة عن العمل تجنبا لأحداث الشغب التي كانت تتسبب فيها من حين لآخر، ولإبعاد النازحين من

الإيطاليين الذين أفلسوا من جرّاء الأزمة الاقتصادية، وسهرت روما على توطينهم في المستعمرات اللاتينية أو الرومانية التي أنشأتها في بلدان المغرب[31]، لأن الوضع المتأزم لهؤلاء أثار مخاوف مجلس الشيوخ الذي كان يعتبر أي تغيير أو تجديد في الوضع بمثابة تهديد لمصالحه.

إن كل هذه المعطيات تدحض ادعاءات بعض المؤرخين الغربيين الذين يعيدون توسعات روما في بلدان المغرب القديم إلى أسباب عسكرية ما دام تهجير العناصر الإيطالية الخطيرة إلى المقاطعات يعني، ضمان أمن روما وحمايتها[32]. وفي الحقيقة هذا الرأي مقبول إلى حد ما في عصر الجمهورية، لو انحصر الوجود الروماني في سهل اللاتيوم أو في شبه جزيرة إيطاليا وما جاورها من جزر، ولو اقتصر صراعها مع مختلف الشعوب التي وجدت في ايطاليا وقرطاجة، لكن أن نعتبر السيطرة على كل بلدان المغرب وحوض المتوسط يهدف إلى تأمين سلامة ترابها وشعبها فهذا أمر مبالغ فيه.

3) صراع الحضارات

إلى جانب الهدفين المذكورين والتي كانت روما تعمل على تحقيقهما عند خروجها إلى البحر المتوسط، وضعت روما نصب عينيها هدفا ثالثا، تمثل في تدميرها لحضارتين عريقتين في حوض المتوسط، إحداهما في الحوض الشرقي وهي الحضارة الإغريقية التي تعتبر مهد الحضارة الأروبية، وثانيهما في الحوض الغربي وهي الحضارة القرطاجية التي امتزجت فيها الحضارة الليبية الأصلية والحضارة الفنيقية. والهدف من قضائها على حضارتين عريقتين يرمي إلى فرض حضارتها التي بنتها على عاتق الشعوب المهزومة. وحتى يتسنى لها ذلك، قامت روما بتدمير هاتين الحضارتين، حيث مباشرة بعد أن قضت على قوتهما [33]، عمدت إلى تطبيق سياسة الرومنة في كل المجالات كما سيتضح لاحقا.

الفصل الثاني

مراحل الاحتلال الروماني ومظاهر المقاومة لشعوب المغرب

اعتمدت روما في استيلائها على بلدان المغرب على سياسة المراحل، بحيث سيطرت على قرطاجة في عام 146 ق.م.، وفي القرن الأول قبل الميلاد على ليبيا بأقسامها الثلاثة، وفي عام 46 ق.م. على نوميديا، وأخيرا على موريطانيا في عام 33 ق.م. وكانت روما كلما استولت على مقاطعة تقوم بمصادرة أراضيها، ثم تقوم بمسحها وتقسيمها إلى وحدات، وأخيرا توزعها على الإيطاليين، قصد تعميرها واستغلالها وتأمينها.

وبمقتضى حق الاحتلال، تحولت أراضي المغرب كغيرها من أراضي المستعمرات الرومانية إلى أراض عامة تملكها الدولة، وتتصرف فيها كما تريد بالبيع أو التأجير أو الإهداء، وتبعا لذلك كانت هذه الأراضي في القرن الثاني الميلادي مقسمة على النحو التالي :

- أراضي تملكها الدولة الرومانية
- أراضي يملكها الأباطرة، وكانت تشمل في معظمها أراضي الضياع والمراعي الواسعة والأراضي التي تحتوي على مناجم المعادن الثمينة.
- أراضي تملكها العناصر المرموقة في المجتمع الروماني كالنبلاء والأشراف وأعضاء مجلس الشيوخ والقادة البارزين كالفرسان.
- أراضي يملكها مواطنون رومان أو أتباع.

- أراضي وزع بعضها على الجنود المسرحين، وأعطي البعض الآخر للأفارقة الذين تم تجنيدهم.

- أراضي اشتراها أفارقة بعد حصولهم على حقوق المواطنة الرومانية الكاملة.

والملاحظ أن الإدارة الرومانية كانت تبيع هذه الأراضي لمن يرغب في شرائها من المواطنين الرومان عن طريق المزاد العلني، إلا أنه رغم تحول هذه الأراضي بعد شرائها إلى أراضي خاصة، فإنه كان لروما الأولوية في الحصول على منتجاتها عند الضرورة.

كان لسكان المغرب القديم ردود فعل عنيفة تجاه الاحتلال الروماني، إذ رفضوا الخضوع له وتصدوا له، وهذا ما تجسد في الثورات التي عرفتها المنطقة طيلة الحكم الروماني، وسنحاول في هذا الباب التطرق إلى مراحل الاحتلال الروماني وموقف الأهالي منه.

1) الاحتلال الروماني في عهد الأخوة جراخوس (121/133 ق.م.)

قبل الاحتلال الروماني لقرطاجة، أنشأ سكيبيو الإيملي (Scipion Emilien) حفيد سكيبيو الإفريقي، قاهر قرطاجة في معركة زاما سنة 201 ق.م. خندقا على الحدود القرطاجية الغربية يعرف بالخندق الملكي (Fossa Regia)، أو خندق سكيبيو (Fossa Scipionis)[34]، لفصل قرطاجة عن نوميديا، وللحد من أطماع ماسنيسا وأبنائه، الهادفة إلى استرجاع أراضي أسلافه التي ضمتها قرطاجة وهي في أوج ازدهارها، وبالتالي حماية أراضي قرطاجة التي تنوي روما السيطرة عليها. أما في عام 146 ق.م.، وبعد الحرب البونية الثالثة، تم تدمير قرطاجة وتحويلها إلى ولاية أو مقاطعة إفريقية (Provincia Africa)[35].

بعد ضم قرطاجة وبلاد الإغريق، أصبحت روما جمهورية واسعة، تشمل ولايات عديدة يختلف سكانها عن بعضهم البعض من حيث الأصل والعقيدة واللغة، ولضبط شؤون هذه المقاطعات، استوجب الأمر على روما أيجاد نظم جديدة تتماشى وهذه الأوضاع.

وقبل التطرق إلى موضوع المقاطعات، ينبغي الإشارة إلى أنه في هذه الفترة وبالذات من عام 133 ق.م. إلى 31 ق.م.، كانت روما تعاني من مشاكل داخلية عديدة أثرت سلبا على سياستها الخارجية، وتتلخص هذه المشاكل في الصراع بين فئة الأثرياء القدماء المكونة من النبلاء والإقطاعيين من جهة، وبين فئة الأثرياء الجدد المكونة من الفرسان الذين جمعوا ثروات هائلة نتيجة ممارستهم التجارة من جهة أخرى.

وبينما كان الصراع قائما بين هاتين الفئتين الغنيتين، لاحظت الطبقة العامة الرومانية التي يعود لها الفضل في تحقيق النجاح لروما في توسعاتها، أنها مهضومة الحقوق السياسية والاقتصادية، بعد عدم حصولها على الإمتيازات التي تستحقها.

إلى جانب هذه الطبقة من الرومان أدرك الإيطاليون الذين ساهموا كذلك كجنود في التوسعات الرومانية خارج شبه جزيرة إيطاليا، أنهم لم يستفيدوا من الحقوق التي منحتها روما للجنود الرومان، معتبرة إياهم أتباع مغلوبين عن أمرهم شأنهم في ذلك شأن سكان الولايات الخاضعة لها. ولما ضاق هؤلاء بالحالة المزرية التي أصبحوا يعانون منها، هددوا روما بالانفصال عنها ما لم تحكم بالعدل بينهم وبين الرومان.

أدت هذه المشاكل الكثيرة إلى قيام ثورة أهلية في روما دامت أكثر من قرن ومن ثم امتدت من 133 ق.م. إلى 27 ق.م.، ظهرت خلالها إصلاحات عديدة أهمها إصلاح الأخوين جراكوس، حاول فيه أكبرهما سنا ت. سمبرونيوس جراكوس (Sempronius Gracchus، T. 133/162 ق.م)، بعد أن فوجئ خلال سفره إلى إسبانيا عبر أتروريا، ببؤس الفلاحين الإيطاليين والرومان، واندهش من اتساع الملكيات الزراعية ،و من الأعداد الهائلة من العبيد العاملة فيها. ولتحسين ظروف هؤلاء وتعمير الريف الإيطالي، اقترح مجموعة من الحلول تتلخص في :

1) تحديد مساحة الملكيات الزراعية الفردية التي توسعت بعد ضمها للوحدات الزراعية الصغيرة بخمسمائة فدان روماني (حوالي 125 هكتار) والاحتفاظ بمساحة 250 فدان روماني (62.5 هكتار) للابن الواحد.

2) تقسيم فائض الأراضي الزراعية التي استولى عليها الملاك الكبار والتي استرجعتها السلطة، إلى مساحات صغيرة تبلغ 30 فدانا رومانيا (705 هكتار) تؤجر إلى صغار الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم.

وبالرغم من أن مجلس الشيوخ أمر بتعديل المشروع حين ألغى الفقرة التي تقضي بمنح الأراضي الزائدة عن 500 فدان روماني من الأراضي العامة إلى الفلاحين الصغار، وبالرغم من أنه أمر بتكوين لجنة ثلاثية، مهمتها حماية الأراضي المتوارثة، والبث في وضعية الأراضي العامة المكتسبة، فشل مشروع جراكوس بعد مقتل صاحبه.

لكن وفاة سمبرونيوس جراكوس لم يقض عن عزم أخيه المصلح كايوس جراكوس (Gracchus .C) في إقرار العدالة بين أفراد المجتمع الإيطالي. وسعى هو الآخر إلى تحسين أوضاع الطبقة العامة في جميع مجالات الحياة، وطالب بتوزيع أراض جديدة على هؤلاء. لذلك طالب بإنشاء مستعمرات زراعية في كل من كابو (Capoue) وتارنت (arenteT) وكورنثيا (Corinthe) ببلاد الإغريق وفي قرطاجة، التي تحولت في عام 122 ق.م. إلى مستعمرة يونونيا (Junonia Colonia Carthago)، وبلغ عدد المهاجرين الإيطاليين نحوها حوالي 6000 شخص [36]. واختار كايوس جراكوس هذه المناطق لأنها لم تكن ضمن الأراض التي استحوذ عليها رجال مجلس الشيوخ والنبلاء الرومان.

إلى جانب ذلك طالب كايوس جراكوس بتوزيع القمح المستورد من المقاطعات إلى روما على متوسطي الحال مجانا أو بيعه بأسعار زهيدة.

لكن مجلس الشيوخ دبر مقتل هذا المصلح، بعد أن عارض مشروعه بحجة أن توزيع القمح يعني تشجيع فئة العاطلين على البقاء في روما، والاعتماد كلية على الدولة، وأن تسعيرة القمح المستورد ستؤدي إلى إفلاس المزارعين الرومان المنتجين للقمح، الذي كان أقل جودة وأغلى من قمح المقاطعات.

والملاحظ، أنه رغم فشل مشروعي الأخوين جراكوس، استمرت توسعات روما في إفريقية، حيث تمكن القائد الروماني ماريوس (Marius)، بعد انتصاره في عام 105 ق.م. على الملك النوميدي يوغرطه، من توزيع أراض زراعية بنوميديا على جنوده الرومان والأجانب، حيث استفاد كل واحد من 100 يوجرة [37].

مراحل الاحتلال الروماني من عام 46 ق.م. إلى عام 31 ق.م. فترة حكم قيصر، الحكومة الثلاثية وبداية حكم أغسطس

1) فترة حكم قيصر :

منذ انتصار قيصر على الجمهوريين وحلفائهم النوميديين في موقعة ثابسوس (Thapsus) في أفريل 46 ق.م.، تعرضت نوميديا إلى عدة تغييرات إقليمية وسياسية بعد أن اتخذ قيصر ثلاث خطوات رئيسية، حيث إزاء انضمام ماسنيسا الثاني ملك نوميديا الغربية [38] ؛ التي كانت تمتد من وادي الملوية غربا إلى الوادي الكبير شرقا؛ إلى الجمهوريين أعطى قيصر النصف الغربي من هذه المملكة إلى بوخوس ملك موريطانيا، مكافأة له عما قدمه من مساعدات في حربه ضد الجمهوريين، وتبعا لهذا توسعت مملكة بوخوس شرقا حتى الوادي الكبير. كما كافأ قيصر المغامر الإيطالي سيتيوس (P.Sittius) وجنوده المرتزقة الإيطاليين والإسبان والموريين[39] على مساعدته له في حربه بالمغرب القديم، بمنحه الجزء الشرقي من مملكة ماسنيسا الثاني، وكان يضم كيرتا وضواحيها (Colonia Cirta Sittianorum)[40]. وأخيرا كون قيصر من الأجزاء المتبقية من مملكة يوبا الأول ولاية جديدة، أطلق عليها اسم "ولاية إفريقية (Provincia Africa Nova)، وعين صالستيوس (Crispus Sallustius) حاكما عليها برتبة بروقنصل (Proconsul). وتبعا لذلك أصبحت ولاية إفريقية الأصلية تدعى "ولاية إفريقية القديمة (Africa Vetus Provincia). إلى جانب ذلك قام قيصر بتأسيس خمس مستعمرات في إفريقية القديمة تتمثل في رأس الطيب (Caput Mercuri) وقليبية (Clupea) ونابل(Neapolis) ومريسة (Carpi) وبنزرت (Hippo Diarrhytus).

وقد تعرض النوميديون منذ ذلك الحين، إلى استغلال فاحش على يد صالستيوس الذي بادر منذ تعيينه واليا على إفريقية الجديدة إلى فرض ضرائب مرتفعة على سكانها، وإلى مصادرة الكثير من أملاكهم [41]، وبالرغم من الشكاوى التي رفعت ضده[42]، لم يكف عن تصرفاته لأنه كان يحظى بحماية قيصر [43]. أما سيتيوس فقد دخل في حرب مع أرابيون (Arabion) بن ماسنيسا الثاني، وكان قد فر إلى إسبانيا[44] بعد انهزام الجمهوريين في عام 46 ق.م.، وعاد بعد موت قيصر إلى نوميديا لاسترجاع مملكة أبيه.

وقد كان من نتائج هذه الحرب مصرع سيتيوس [45]، واحتفاظ جنوده بالمنطقة. والأمر الذي تجدر الإشارة إليه في هذا الشأن، هو أن الحرب التي وقعت بين أرابيون وسيتيوس ذات دلالة هامة، تتمثل في جرأة الزعيم النوميدي على محاولة استعادة مملكة أبيه وقدرته على شن حرب لقي فيها القائد الروماني مصرعه، حتى وإن فشل أرابيون في تحقيق هدفه.

وبالنسبة لسياسة الاستيطان، فيمكن القول بشأنها أن قيصر واصلها، حيث أرسل 80 ألف معمر لمختلف المستعمرات التي أسسها.

2) الحكومة الثلاثية وبداية عصر أغسطس

بعد انتهاء مدة حكم صالستيوس، عين القائد كورنيفيكيوس (Q. Cornificius.) واليا على إفريقية الجديدة. وبعد أن كون كل من أنطونيوس وأوكتافيوس وليبدوس الحكومة الثلاثية الثانية في 27 نوفمبر 43 ق.م.، عادت صقلية وسردينيا والولايتان الإفريقيتان لأوكتافيوس، طلب سكستيوس (T.Sextius) وكان صديقا وفيا لأوكتافيوس، أن يتنازل له كورنيفيكيوس عن ولاية إفريقية القديمة، لكن هذا الأخير رفض الطلب دون استشارة السناتو، واثر ذلك نشبت بينهما حرب، انتصر فيها القائد سكستيوس الذي استفاد من مساعدة أرابيون الذي لقي حتفه في هذه الحرب، فاستولى على الولايتين الإفريقيتين عام 42 ق.م.، وظل يحكمهما إلى أن تولى بعده فانجو (C. Fuficius Fango) في نفس السنة حكم ولاية، لكن في العام

الموالي أصدر أنطونيوس أمرا إلى سكستيوس بتسليم ولايته إلى فانجو، وبذلك أصبح هذا الأخير يحكم الولايتين الإفريقيتين.

في نفس السنة عندما طلب سكستيوس من فانجو أن يعيد له ولاية إفريقية القديمة رفض، وأعلن عليه الحرب التي انتصر فيها والتي استرد ولايته، كما احتل ولاية إفريقية الجديدة، وبذلك أصبح في أواخر سنة 41 ق.م. للمرة الثانية واليا على الولايتين الإفريقيتين.

وفي عام 40 ق.م، آلت الولايتان السابق ذكرهما إلى ليبدوس، بعد أن ثبتت براءته من تهمة تعاونه مع بومبي الصغير، وشارك عام 36 ق.م. في الحرب التي أعلنها أوكتافيوس على بومبي الصغير، إلا أن ليبدوس لم يظهر كفاءة تستحق التقدير فسحبت منه الولايتان وعين مكانه تاوروس (T. Taurus Statilicus). وختاما لهذه الفترة يجدر بنا ملاحظة أربعة أمور تتمثل في :

- احتلال الرومان لنوميديا وتقسيم أراضيها إلى ثلاثة أقسام، اثنين منها وضعت تحت السيطرة الرومانية، والقسم الثالث تحت النفوذ الموريطاني.

- بداية استغلال الولاة الرومان سكان نوميديا

- لم يقض احتلال الرومان لنوميديا على أمل الأمير النوميدي أرابيون في استعادة مملكة أبيه بشن حرب على سيتيوس، ولم يقعده ما مني به من فشل في هذه الحرب، إذ انتهز فرصة الصراع بين سكستيوس وفانجو ليتدخل فيه من أجل توسيع الهوة بينهما وإضعافها على أمل أن يمهد ذلك السبيل إلى استعادة نوميديا لأصحابها الشرعيين. ولم يكن موقف أرابيون جديدا، فقد سبق واتخذ مثل هذا الموقف يوبا الأول وماسنيسا الثاني حين انضما إلى الجمهوريين في صراعهم مع قيصر.

تكالب القادة الرومان للفوز بحكم الولايتين الإفريقيتين اللتين كانتا مصدر خير وثراء لمن يتولى حكم إحداهما أو كلتيهما. (الخريطة رقم 7)

حدود الامبراطورية الرومانية

ثانيا ـ في الفترة من 30 ق.م. إلى 68 م.
(عهد الأسرة اليوليوكلاودية)

1) عهد الإمبراطور أغسطس 27 ق.م./14 م.

عقب موقعة أكتيوم (Actium) في عام 29 ق.م. [46]، أعاد أوكتافيانوس إحياء مملكة نوميديا، وأقام على عرشها يوبا الثاني (Juba II) بن يوبا الأول مكافأة له على الخدمات التي قدمها أثناء الحرب الأهلية، ولكنه تمهيدا لدعم نفوذ روما في شمال إفريقيا، أتخذ أغسطس (أوكتافيانوس) في عام 25 ق.م. خطوتين أساسيتين، كانت إحداهما تتمثل في تنصيب يوبا الثاني على موريطانيا بقسميها الشرقي والغربي، وثانيهما في إدماج ولايتي إفريقية الجديدة وإفريقية القديمة في ولاية واحدة، تعرف باسم "إفريقية البروقنصلية [47] (Africa Proconsularis)، وذلك خدمة للأهداف التالية : (الخريطة رقم 8)

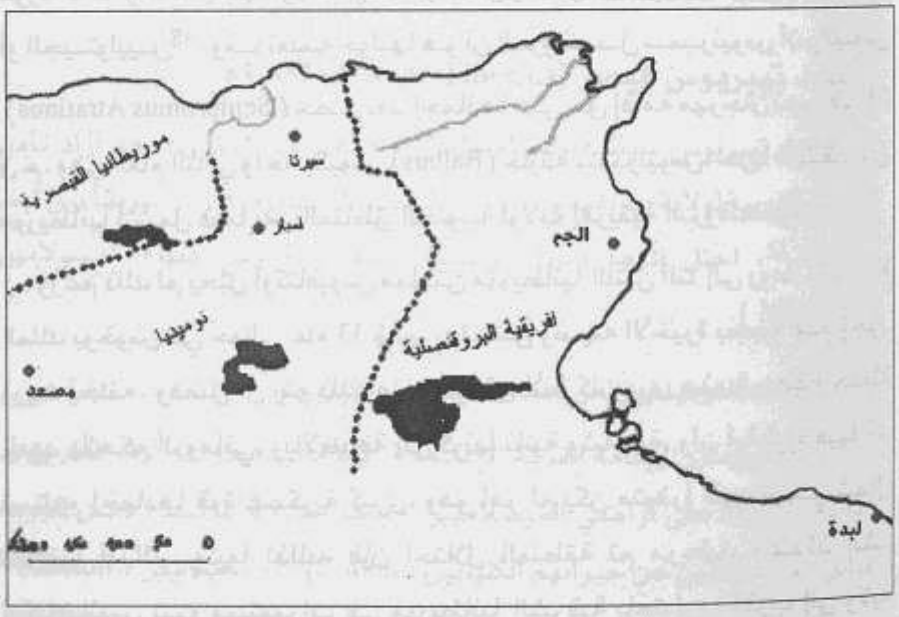

إفريقية البروقنصلية والمقاطعات

- القضاء على دوافع النزاع والتنافس القائمة بين حاكمي الولايتين إفريقية القديمة وإفريقية الجديدة، على نحو ما فعل سكستيوس ضد كورنيفيكيوس ثم ضد فانجو.

- توحيد الولايتين الإفريقيتين قانونيا وإداريا، خاصة وأن إفريقية الجديدة كانت ولاية حديثة العهد بالاحتلال، ولم يتعود أهلها بعد على الحكم الروماني.

- توحيد قوة الولايتين الإفريقيتين ووضعهما تحت سلطة قائد واحد، حتى يمكن مجابهة أية ثورة تنشب في المنطقة. وقد واكب هذا الإجراء، خروج أغسطس على قاعدته المألوفة، وهي وضع القوات العسكرية للمقاطعة، بما فيها الفرقة الأغسطية الثالثة (Legio III Augusta) تحت إمرة البروقنصل حاكم الولاية، الذي ينتمي لفئة أعضاء السناتو.

لم ينقض وقت طويل حتى تدخلت الفرقة الأغسطية الثالثة لوضع حد لثورة، لا نعرف أسبابها ولا من قام بها، لكن يحتمل أن تكون قبائل الموسولاميين أو الجيتوليين[48]. وما نعلمه حولها هو أن البروقنصل سمبرنيوس أتراتينوس (Sempronius Atratinus) حصل بعد إخمادها على حق إقامة مهرجان نصر في 21 ق.م. وفي العام الثاني واجه بالبوس (Balbus) خليفة سمبرنيوس، حربا انطلقت من موريطانيا لتشمل فيما بعد المناطق الجنوبية لولاية إفريقية البروقنصلية.

ورغم ذلك لم يحتل أوكتافيوس مملكتي موريطانيا اللتين آلتا إلى روما عند وفاة الملك بوخوس في حوالي عام 33 ق.م. بمقتضى وصيته الأخيرة بحجة عدم وجود وريث يخلفه. وفضل أن يتم ذلك على مراحل، لأنه كان يرى هذه المنطقة حديثة العهد بالحكم الروماني، وبالإضافة إلى كونها نائية وشاسعة، وأن أية ثورة فيها قد تستلزم إخمادها قوة عسكرية كبرى، وهو أمر لم يكن متوفرا للرومان في شمال إفريقيا آنذاك. وتبعا لذلك، فإن احتلال المنطقة تم مرحليا، وعندئذ أنشأ أوكتافيانوس تسع مستعمرات في موريطانيا الشرقية باعتبارها أقرب إلى ولاية إفريقية. وفي عام 25 ق.م. أقام على موريطانيا بقسميها الشرقي والغربي، يوبا

الثاني [49]، الذي كان قد ترعرع في روما وتزوج من كليوبترا سيليني (Selene Cleopatre) ابنة كليوبترا السابعة، ملكة مصر. وكان الهدف مزدوجا من إقامة هذا الأمير النوميدي على رأس موريطانيا، وهو منح هذا الأمير مملكة تعوضه عن مملكة أبيه، وكذلك تجنب أي رد فعل قد يصدر من سكان موريطانيا إن تم تعيين حاكم روماني عليهم.

وفي عام 27 ق.م. شرع أغسطس في توطين قدماء محاربين ومواطنين رومان بلغ عددهم 3000 في المستعمرات [50] التي أسسها في ولاية إفريقية لأغراض اقتصادية، وهي ست في قرطاجة وتتمثل في رادس (Maxula) وأدنة (Uthina) وطبربة (Thuburbo Minus) والكاف (sicca Veneria) وشمتو وحيدرة (Ammaedara)، وفي هذه الأخيرة تم نقل إليها الفرقة الأغسطية الثالثة. كما أقام تسع مستعمرات في موريطانيا، ست منها ساحلية وهي جيجل وبجاية وأزفون وبرج البحري وسيدي ابراهيم وتنس، وثلاث داخلية تتمثل في تكلات وحمام ريغة وملیانة. وتتميز هذه المستعمرات بأهميتها الزراعية والمنجمية.

عهد تيبريوس قيصر (Caesar Tiberius) 14/37م.

واصل تيبريوس سياسة دعم الاحتلال الروماني في المغرب، وقد أراد تأمين الحدود الغربية لولاية إفريقية من غارات الأهالي المستمرة، فأنشأ طريقا بين تبسة وقفصة [51]، احتل إثرها مناطق رعوية لقبيلة قوية وهي قبيلة المسولاميين (Musulami).

أ. موقف النوميديين من أعمال أغسطس وتيبريوس

سيطر الرومان ؛ بإقامة الفرقة الأغسطية الثالثة في حيدرة وإنشاء الطريق بين قفصة وتبسة ؛ على أراضي الموسلاميين ووفقا لمبدأ فرق تسد، فصل الرومان قبائل الموسلاميين عن جيرانهم الكنيثيين (Cinithi) [52] والجيتوليين (Gaetuli)[53]. ولم يكن الطريق الذي أنشأه تيبريوس في صالح قبائل الموسلاميين، التي كانت

تسكن نوميديا الشرقية، حيث قسم أفرادها وأراضيها إلى شطرين، كما كان بمثابة حاجز أمام سكان الجنوب الذين يتنقلون في فصل الصيف إلى المناطق الشمالية بحثا عن المراعي والمياه الضرورية لهم ولقطعانهم، بالإضافة إلى أنه يكون عائقا في وجه التجارة بين الشمال والجنوب.

ب) ثورة تاكفرناس (24/17 م.) :

إزاء هذه الحواجز، لم يكن أمام الأهالي إلا أحد الأمرين، إما الخضوع والاختناق، وإما المقاومة، فاختاروا الأمر الثاني، وقاموا بثورة تزعمتها قبائل المسولاميين التي تعود أهميتها إلى ما قبل الاحتلال الروماني، إذ شاركت في حرب يوغرطه، وإذا كان المؤرخ صالستيوس قد أغفل ذكرها، فإنه ذكر مدينة تالا التابعة لها، والتي لم يستول عليها القائد متلوس إلا بعد معارك عنيفة.

لقد قاد هذه الثورة شاب، يدعى تاكفرناس (Tacfarinas)، وكان عمل جنديا في الفرق المساعدة للجيش الروماني كغيره من الأفارقة الذين تم تجنيدهم، ثم فر مع عدد من رفاقه من إيطاليا وعاد إلى إفريقية، ولتدعيم جيشه بقوات إضافية، تحالف مع قبائل الموريين التي كان يقودها مازيبا[54] (Mazippa)، وقبائل الكنيثيين. وكانت فرق تاكفرناس العسكرية مدربة وفقا لأساليب القتال الرومانية، بينما كانت فرق الموريين والكنيثي مدربة على أساليب الحرب التي يتحكم فيها الأفارقة وهي القائمة على الكر والفر.(راجع الخريطة رقم 9)

وفي عام 17 م. قام تكفارناس بأول حملة له في إفريقية، لكن الوالي ماركوس (F. Camillus Marcus) تصدى له وانتصر عليه بدعم من يوبا الثاني.

لم ييأس تكفارناس بعد عدم نجاحه في الانتصار على القوات الرومانية، وقام في السنة نفسها بمهاجمة عدة مدن في إفريقية كاد أن يستولي عليها لولا مجيء القائد كايصيانوس (L Aspronius Caesianus.)، الذي استطاع إجبار تكفارناس على الانسحاب نحو الجنوب. وبفضل هذا الانتصار، حصل القائد الروماني على

خريطة أهم القبائل لبلدان المغرب القديم

camps (G), Aux origines de la Berberie; 1960, Fig 27.

حق إقامة مهرجان انتصار، وحصل ابنه على مكان في لجنة الإدارة السباعية (Semptemvirat) مع أنهما لم يقضيا على الثورة نهائيا.

ونتيجة استمرار الثورة اختار الإمبراطور تيبريوس (37/14 م.) واليا جديدا اعتقد أنه قادرا على إنهاء الثورة، وهو بلايسيوس (Q. Junius Blaesus)، في حين أعاد تكفارناس تكوين قواته في الصحراء، وأرسل إلى الإمبراطور تبريوس (Tiberius) بعثة تطلب منه منحه وجنوده ما يكفيهم من الأراضي وإلا يواصل الثورة.

وإثر فشل القوات الرومانية وعلى رأسها الفرقة الأغسطية الثالثة في القضاء على هذه الثورة، استدعيت الفرقة الإسبانية التاسعة (Legio IX espana) بقيادة سكيبيو (P.Cornelius Scipio .).

أمام عدم نجاح تكفارناس في تحقيق انتصارات فاصلة على الجيوش الرومانية بتطبيقه أسلوب الحرب النظامية، عاد إلى حرب العصابات التي يتقنها الأفارقة، وقلده في ذلك القائد الروماني بلايسيوس، الذي قسم جنوده إلى ثلاثة أقسام : وضع القسم الأول في الجبهة الشرقية لحماية منطقة السرت[55]، والقسم الثاني في الغرب لحماية أراضي قسنطينة [56]، أما القسم الثالث الذي قاده بنفسه فتموقع في الوسط، لحماية المنطقة الممتدة من تبسة إلى حيدرة [57]. وفي عام 22 م. قام بلايسيوس بحملته الثانية، لكنه فشل مرة أخرى في القضاء على الثورة، الأمر الذي دفعه إلى التخلي عن قيادة الجيش، فأرسلت روما بدلا منه القنصل دولابيلا (P. Cornelius Dolabella).

ج. انضمام الأفارقة إلى تكفارناس

في هذه الفترة، كون تكفارناس جيشا لم يسبق له مثيل، أنضم إليه الموريون الذين نفروا من حكم بطلميوس (Ptolemaios) بن يوبا الثاني حليف الرومان، كما ساندة ملك الجرامنتيين (Garamantes)[58]، وعدد آخر من المناهضين للحكم الروماني في بلدان المغرب.

وقبل أن يشرع تكفارناس في حملته الثالثة ؛ وليرفع معنويات جنوده ؛ نشر أخبارا مفادها " أن أمما كثيرة تصدت للإمبراطورية الرومانية ونالت استقلالها، وعلى

الذين يفضلون الحرية على العبودية أن يسلكوا الطريق نفسه ". ويحدثنا تاكيتوس بأنه بعد ذلك، قام تكفارناس بتدمير مدينة تبورسيكوم(Thubursicum)[59]

د . لجوء الرومان إلى حرب العصابات

ردا على هجوم تكفارناس، قام القائد الروماني دولابيلا باتباع أسلوب خصمه في القتال بعد أن تلقى مساعدات من بطلميوس ملك موريطانيا، فقسم جنوده إلى أربعة أقسام، وقاد حملة [60] بالقرب من سور الغزلان (Auzia) التي تمركز فيها تكفارناس مع عدد كبير من جنوده، وقد استطاع دولابيلا مباغتة القائد الإفريقي الذي لقي مصرعه بعد مقاومة شديدة وأسر إثرها ابنه [61] مع عدد من الثوار في عام 24 م. وبذلك انتهت هذه الثورة التي دامت أكثر من سبع سنوات وكلفت الرومان خسائر مادية وبشرية كبيرة وبصفة عامة تدل هذه الثورة على :

- قدرة تكفارناس على التكيف مع الظروف، بحيث اتبع في الأسلوب الروماني في تنظيم جيشه وفي طريقة القتال، وأمام عدم نجاحه، عدل عنها وعاد إلى أسلوب حرب العصابات التي يتقنها الأهالي.

- إن استمرار الحرب أكثر من سبعة أعوام (من 17 إلى 24 م.) يدل على قدرة الأفارقة على تجاوز خلافاتهم واتحادهم في جبهة واحدة هدفها مشترك، هو القضاء على الوجود الروماني في المنطقة.

- أظهر الأفارقة في هذه الثورة جرأة وكفاءة عسكرية عالية، حتى أن الفرقة الأغسطية الثالثة فشلت في إخمادها، مما فرض على السلطة الرومانية تعزيزها في عام 23 م. بالفرقة الإسبانية التاسعة (Legio IX Hispana).

- تحدي تكفارناس لتيبريوس الإمبراطور الروماني، وتهديده بمواصلة الحرب إذا ما رفض مطالبه.

هـ . نتائج حرب تكفارناس :

لقد كان لثورة تكفارناس عدة نتائج تتلخص فيما يلي :

- عدم حصول الأفارقة بصفة عامة والمسولاميين بصفة خاصة على أراضيهم أو أراضي أخرى.

- وضع القبائل الإفريقية التي شاركت في هذه الثورة تحت رقابة الفرقة الأغسطية الثالثة وتجزئتهم، وتوطينهم في أماكن استيطان جديدة، يشرف على كل منها حاكم عسكري (Praefectus)..

3) عهد الإمبراطور جايوس قيصر أغسطس جرمانيكوس (C. Caesar Augustus Germanicus) 41/37 م. :

عرف التنظيم الإداري والعسكري في عهد هذا الإمبراطور الذي يعرف باسم كاليجولا (Caligula) بعض التغييرات، فبعد غارات المسولامس على المراكز الرومانية سنة 36 م.، سحب كليجولا قيادة الفرقة الأغسطية الثالثة من الوالي ومنحها إلى قائد عسكري (Legatus)، وبذلك أصبح الجزء الغربي لولاية إفريقية (إفريقية الجديدة) تابعا للإمبراطور وله سلطة عسكرية، في حين بقي الشطر الثاني (إفريقية القديمة) تابعا للوالي لكن لا يتمتع إلا بسلطة مدنية. إلى جانب ذلك احتل كاليجولا موريطانيا، بعد أن استدعى ملكها بطلميوس وقتله في مدينة ليون سنة 40 م.

أثار إعدام بطلميوس غضب قبائل الموريين، التي قامت في العام نفسه بثورة عارمة تزعمها أيديمون، وكان من حاشية الملك [62].

4) عهد الإمبراطور كلاوديوس (Tiberius Claudius Nero Germanicus) 41 /54 م.

شارك الموسلامس في ثورة الموريين التي استمرت إلى عهد الإمبراطور كلاوديوس، وأمام فشل القوات الرومانية المحلية في القضاء على هذه الثورة، استقدمت إلى بلدان المغرب قوات إضافية تمثلت في الفرقة المقدونية الرابعة (Legio IV Macedonica) وفرقة النصر السادسة (Legio VI Victorix) والفرقة

الجرمانية العاشرة (Legio X Germanicus)، وعين فروجي (.L .Crassus Frugi) قائدا عاما للعمليات العسكرية. ورغم الانتصارات التي حصل عليها الرومان[63] ، لم يقض على عزيمة الأهالي، فقد ظلت مقاومتهم إلى عام 42 م. عندما نجح القائد باوليتوس. (C. Suetonius Paulius)[64] في مطاردة أيديمون في جنوب الأطلس الصحراوي حتى وادي غير [65]، وفي عام 43 قرر الإمبراطور كلاويديوس تقسيم مريطانيا إلى قسمين يفصلهما وادي ملوية : موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة ،و مريطانيا القيصرية وعاصمتها القيصرية (Caesarea).

5) عهد الإمبراطور نيرون (Nero Claudius Caesar.L) 68/54م

ساء الوضع من جديد بالنسبة للرومان في عهد الإمبراطور نيرون، حيث عادت الثورة وامتدت إلى شمتو بين عامي 55 و58 م.، ولا نعرف عنها سوى قيام الفرقة الأغسطية الثالثة وفرقة أخرى بقيادة فيتيلوس (Vitellus) بإخمادها.

ثالثا : عهد الأسرة الفلافية 96/69 م.

1) الوضع في بلدان المغرب القديم

شهدت الإمبراطورية الرومانية عند وفاة نيرون عام 68 م. اضطرابات شديدة دامت عاما كاملا تقريبا، تعاقب فيه ثلاثة أباطرة على العرش (جاليا وأوتو وفيتلوس) إلى أن نصب فسباسيانوس نفسه إمبراطورا دون منازع.

وبينما كانت مختلف القوى : في روما : منهمكة في الصراع على العرش، انتهزت مدينتا لبدة وطرابلس الليبيتين الفرصة للفصل في نزاع وقع بينهما، استنجدت خلاله مدينة طرابلس بالجرامنتيين الذين قاموا بمحاصرة لبدة وتخريب الأراضي الزراعية المحيطة بها.

2) عهد الإمبراطور فسباسيانوس (Flavius Vespasianus)، 69/79 م.

نقل الإمبراطور في عام 75 م. مقر الفرقة الأغسطية الثالثة من حيدرة التي أصبحت مستعمرة رومانية إلى تبسة، وذلك لمنع تدخل قبائل الموسلامس في الصراع الدائر على السلطة من جهة، ولسلب أراضي زراعية جديدة، واحتلال مواقع استراتيجية يمكن من خلالها مراقبة القبائل الرحل بالمناطق الجنوبية، من جهة أخرى، ومواصلة لسياسة التوسع الرومانية، أنشأ في عام 76 م. الطريق الذي كان يربط مدن تبسة مداوروش بطريق عنابة. وقد عرجت هذه الطريق بمدينة مداوروش لأنها تقع بالقرب من مناطق قبائل المسولامس المعادية للرومان، ولأنه كان يسكن هذه المدينة، جنود مسرحون يمكن عن طريقهم ؛ مراقبة سكان المنطقة إلى أن يتم ترحيلهم من أراضيهم الخصبة والمهمة للاقتصاد الروماني. وقد كانت هذه الطريق بمثابة الخط الفاصل بين قبائل المسولامس والجيتوليين، أي بين منطقة السهول الخصبة والمناطق الرعوية. وكان لهذه الطريق أهمية سياسية وعسكرية واقتصادية، تتخلص في السيطرة على مناطق تميز سكانها بشدة العداء لروما، وتسهيل وصول الإمدادات العسكرية اللازمة من الشمال إلى الجنوب أو العكس، في حالة نشوب ثورات، بالإضافة إلى ذلك من أجل تسهيل نقل خيرات أراضي تبسة وما حولها إلى ميناء عنابة، واستكمالا للحصار المفروض على شمال منطقة الأوراس بإقامة عدة حاميات فيها، وتوزيع أراض على الرومان.

3) عهد الإمبراطور تيتوس فسباسيانوس Titus Vespasianus، 81/79 م.

وقعت في عهد الإمبراطور فسباسيانوس عدة اضطرابات في موريطانيا القيصرية، لم ترد عنها معلومات فيما عدا اختيار القائد روفوس (Rufus.C. Velius) للقضاء عليها [66]، وتشير النقوش التي نشرها المؤرخ ليشي (L.Leschi)[67] أنه في هذه الفترة، أنشئ لجنود الفرقة الأغسطية الثالثة معسكر في لمباز، ومد طريق تكاب ـ قفصة ـ حيدرة ـ تبسة حتى مدينة لمباز، وذلك لربط هذا المعسكر

ببقية المناطق المحتلة. وكذلك لمراقبة تحرك الأهالي ومنع أية محاولة اتصال وتعاون بينهم وبين قبائل الموريين، بالإضافة إلى عرقلة تنقل الجيتوليين إلى شمال نوميديا وموريطانيا القيصرية، وتدعيم التواجد الروماني بإقامة عدد من المستعمرات بين لمباز وتيمغاد.

وخلاصة القول أن الرومان بعد احتلالهم للمنطقة، استولوا على أخصب الأراضي وأقاموا المستعمرات والمعسكرات والخنادق والطرق الاستراتيجية لتضييق الخناق على الأفارقة.

رابعا : في الفترة الممتدة بين 96/ 193 م.

(عهد الأسرة الأنتونية)

1) عهد الإمبراطور نيرفا (Nerva Marcus Cocceius)، 98/96 م.

أقام الإمبراطور نيرفا حاميات في كل من مدينة الجميلة (Cuicul) وقصبايت (Mopth) وأقام مستعمرة سطيف (Sitifis) لحماية نوميديا وموريطانيا القيصرية من هجمات قبائل المناطق الجبلية والصحراوية التي رفضت الخضوع للسلطة الرومانية، ولربط قسنطينة بالمستعمرات التي أنشأها الإمبراطور أغسطس في موريطانيا.

وكان شأن هذه المراكز شأن غيرها، بحيث تتمتع بموقع استراتيجي ممتاز وإمكانيات اقتصادية معتبرة، مثل مدينة الجميلة التي تقع بالقرب من الوادي الكبير، وتشرف على مواقع القبائل النوميدية والموريطانية ، ومراكزهم التجارية مثل قبائل جبال البابور. ومثل مدينة سطيف التي تشرف على السهول العليا التي تلائم زراعة الحبوب. وفضلا عن ذلك، فإن هذه المدن والمستعمرات تعتبر حلقات أساسية في الخط الدفاعي الذي يمتد من منطقة المزاق شرقا إلى موريطانيا القيصرية غربا، وهو الحزام الأمني الذي أقامه الرومان لحماية المناطق الشمالية من خطر القبائل الرافضة للسيطرة الرومانية سواء القبائل المتنقلة بين الصحراء والسهول الوسطى والشمالية أو بين السهول والجبال، أو القبائل المقيمة في المناطق الجبلية الوعرة، مثل سكان جبال الحضنة أو الأوراس.

2) عهد الإمبراطور ترايانوس (M .Ulpius Trajanus)، 98/ 117م.

تم في عام 100 م. وعلى يد الإمبراطور ترايانوس بناء مستعمرة ثموجادي (Thamugadi)، وإقامة حاميات عسكرية بينها وبين خنشلة (Mascula)، وتعود هذه الإجراءات إلى عدة أسباب، منها العسكرية والاقتصادية والسياسية، فالنسبة للأسباب الاقتصادية نجد سعي روما في الاستيلاء على أراضي ثموقادي الخصبة، وإقامة عدد من المزارع فيها [68] أما الأسباب العسكرية فتتمثل في أن تموجادي تتمتع بموقع استراتيجي، إذ يمكن عن طريقها التحكم في الممرات المؤدية إلى شمال جبال الأوراس وجنوبا إلى وادي العبد ووادي الأبيض. ولربط مستعمرة تموجادي بالمراكز الرومانية الأخرى المنتشرة في المنطقة، أنشأ ترايانوس طريقا تربطها بمدينة فريانة (Telepte)، التي تقع جنوب شرقي تبسة، وتمر عبر لمباز وخنشلة. ولحماية المنشآت السابق ذكرها أقام، ترايانوس طريقا تمتد من مدينة شبيكة (Ad Pecuniam) جنوب تبسة إلى بسرياني (Ad Majores)، يمر بتادرت (Ad Medias) غرب بسرياني ونغرين (Nigrenses).

أما على المستوى السياسي فإن الرومان أعطوا وضع البلدية (Municipium) لعدة مدن مثل مدينة خميسة [69] وقلعة بوعتفان (Diana Veteranorum)[70] التي تقع غرب لمباز. وكان التمتع بوضع البلدية ينطوي على التمتع بالحقوق اللاتينية، التي تؤهلهم إلى التمتع بالحقوق الرومانية الخاصة، مع حق حضور حكام هذه المدن مجالسها تلقائيا، ثم الاستفادة من حقوق المواطنة الرومانية كاملة. ومنح مدينة من مدن الولايات الرومانية وضع المستعمرة، كان يعني إما أنها كانت أصلا مدنا أسسها مواطنون من روما نفسها، وإما سكنها أهالي كانوا يتمتعون بالحقوق الرومانية. وكان مبدأ وضع مستعمرات في بلدان المغرب القديم يهدف إلى تهيئة السبل لدعم النفوذ الروماني، الذي وصل في هذه الفترة إلى جنوب السهول العليا وشمال الصحراء حيث امتد إلى منطقة الشطوط مثل شط الغرسة وشط ملغيغ وشط الجريد وغيرها.

كما فتحت في عهد هذا الإمبراطور عدة طرقات، منها طريق تربط قابس (Tacape) بمدينة لبدة بقورينايا (Cyrenaique) والإسكندرية. كما أقام طريقين آخرين تربط الأولى تموجادي بخنشلة (Mascula) والثانية تبسة بفريانة (Thelepte)

3) عهد الإمبراطور هادريانوس (P.Aeillius Hadrianus) 137/117 م.

قامت في عهد هادريانوس عدة ثورات في موريطانيا، أهمها وأخطرها هجومات قبائل الباقات (Baquates) على مدينة تنس عام 122 م.، ولإخمادها أرسل الإمبراطور القائد توربو (Q. Marcius Turbo)، وتفاديا لامتداد المتاعب إلى نوميديا، أنشئ معسكر القصبة (Gemellae)[71] على حافة وادي جدي بجنوب الأوراس، تمركزت فيه كتيبة من الكلدانيين (Chalcideni). وقد قامت القوات الرومانية بتطويق القنطرة (Calceus Herculis)، ومدت طريق من لمباز إلى قرطاجة عبر تبسة.

وبمناسبة زيارته إلى لمباز عام 128 م. أنشأ بها الإمبراطور هادريانوس معسكرا، ورفع مدينة حمام دراجي (Bulla Regia) بجنوب طبرقة إلى وضع المستعمرة. ولتسهيل عملية نقل الرخام المستخرج من شمتو إلى روما، أمر هذا الإمبراطور بإقامة طريقا يربط المحجر بمدينة طبرقة. وفي عام 124 م. فتح طريقا يربط سور جواب (Rapidum) بسور الغزلان (Auzia) عبر البرواقية (Tanaramusa) وطريقا آخر يمتد بين سطيف وبجاية (Saldae).

بالإضافة إلى ذلك قامت قبائل الموريين انطلاقا من موريطانيا الطنجية بهجمات على ولايات إسبانية، وخاصة على مقاطعة بتيكا (Betique) في عام 168 م. مما دفع السلطة الرومانية إلى تأسيس سور في قصر فرعون (Volubilis). وقد تواصلت هجمات الموريين على إسبانيا طيلة سنوات 171 و173 و177 م.

عهد الإمبراطور كومودوس
M. Aurelius Commodus 192/180 م.

أقيم في هذه الفترة حصن في جنوب الأوراس لمراقبة الممرات الرابطة بين الأوراس وشمال نوميديا، كما أنشئت الطريق الرابطة بين القنطرة وطبنة (Thabùnae).

خامسا : عهد الأسرة السيفرية من 193 إلى 235 م.

1) عهد الإمبراطور سبتيموس سيفروس

(Septimius Severus). 211/193م

تربع في نهاية القرن الثاني على عرش الإمبراطورية الرومانية ؛ لأول مرة في تاريخها رجل إفريقي بحكم مولده في مدينة لبدة الليبية، ألا وهو سبتيميوس سيفروس، وقد قام هذا الإمبراطور بعدة أعمال، منها فصل ولايتي موريطانيا عن ولايتي إفريقيا فيما بين عامي 198 و199 م.، وتوسيع رقعة النفوذ الروماني في جنوب نوميديا، بوضع حاميات عسكرية في كل من سدوري ودوسن، وتأسيس معسكر مسعد [72] .(Castellum Dimmidi) بالإضافة إلى منح الإمبراطور عددا من المدن وضع البلدية مثل سوق أهراس (Thagaste) [73] ووضع المستعمرة الرومانية إلى لمباز التي حولها بعد ذلك إلى عاصمة عسكرية لنوميديا بدلا من حيدرة.

وكان رد فعل الأهالي من المورين والجيتوليين وسكان طرابلس تجاه هذا التوسع، تنظيم غارات على نوميديا وموريطانيا وطرابلس سنة 207 م.، مما اقتضى تسخير جزء من الفرقة الأغسطية الثالثة، ونقل وحدة عسكرية أخرى إلى شمال الأوراس لحماية سكانها من جهة، وتدعيم التخوم وتقويتها في نوميديا وموريطانيا وطرابلس [74]، ثم فصل نوميديا عن إفريقيا وتعيين قائد الفرقة الأغسطية الثالثة حاكما عليها من جهة أخرى.

وإذا لم يتجاوز حينذاك التغلغل الروماني في عهد الأنتونيين الخط الممتد من قابس إلى تبسة عبر قفصة، فإنه وصل في هذه الفترة إلى الأراضي الصحراوية ومن ثم بلغ عدد المقاطعات التي ضمها الرومان 47 موزعة عبر أروبا وإفريقيا وآسيا[75]. وقد بلغت عندئذ عدة مدن أوج ازدهارها الاقتصادي.

2) عهد الإمبراطور كركلا
M. Antonius Caracalla 217/212م.

ساد بلدان المغرب الهدوء في فترة حكم هذا الإمبراطور، وهذا يعود في اعتقادنا إلى تقرب الإمبراطور من الأهالي بتقديمه الهدايا إلى الحكام المحليين من الأفارقة [76] كسبا لمودتهم، وتفاديا لحركات التمرد، وفي تشجيع الأهالي على تقبل أساليب الحياة الرومانية.

وقد ركز الإمبراطور كركلا اهتمامه على ليبيا بتأسيسه عدة طرقات في طرابلس منها واحدة تربط بين قابس ولبدة. وأخرى بين لبدة وترهونة(Tarhuna) وطريق ثالثة داخلية تربط طرابلس (Oea) بفزان عبر غريان ومزدة.

3) عهد الإمبراطور اسكندر سيفروس
(Severus Alexander) 222/ 235م.

تميزت فترة حكم هذا الإمبراطور بتضاعف الأخطار التي هددت حدود الإمبراطورية في الشرق وعند نهري الدانوب والراين، برغم اتخاذ السلطة الاستعدادات لصد الخطر ومهاجمة القبائل الجرمانية فإن الجنود قاموا بقتل الإمبراطور بسبب تعاطفه مع الأهالي ونادوا بزعيمهم ماكسيمينوس إمبراطورا.

نفس الوضع عرفته الولايات الإفريقية، فقد تميز الوضع بعدم الاستقرار وانعدام الأمن نتيجة مهاجمة الأهالي للمزارع وتخريبهم لها، كما ثارت قبائل الباقات (Baquates) في منطقة قصر فرعون (Volubilis) بين سنوات 226 و229 م. وكذلك في سورالغزلان سنة 227 م بعد أن قامت السلطة بتوزيع أراضي جديدة على الجنود

المسرحين الذين كانوا يحرسون التخوم مما دفع بالسلطة إلى مضاعفة بناء التحصينات خاصة في السهول العليا الشرقية، وقد كانت نتائج ذلك كارثية على الخزينة، وعلى عملية التموين بالمواد الغذائية، حيث انخفض الإنتاج الزراعي، وبالتالي انخفضت الكميات التي كانت توجهها نحو روما، كما ارتفعت مصاريف الإمبراطورية، ولمواجهة عجز الخزينة لجأت روما إلى أسهل الحلول وهي مضاعفة الضرائب المفروضة على الأهالي إلى حد إرهاقهم حتى أصبحوا يرفضون أداءها [77].

سادسا : عهد الفوضى العسكرية بين 235 /268

1) عهد الإمبراطور ماكسيمينوس

(C.J. Varus Maximus) , 238/235 م.

عندما آلت السلطة إلىٰ ماكسيمينوس كان من أعماله فرض ضرائب مرتفعة على المزارعين الرومان في الولايات الإفريقية، فضرب كثير منهم عرض الحائط بهذه القوانين، وشنوا في مارس من عام 238 م. حملة على الجم (Thysdrus) بإفريقية البروقنصلية، تم إثرها مقتل محاسب قرطاجة الذي أتى إلى المنطقة لجمع الضرائب بأمر من الإمبراطور، ونادى المزارعون الرومان بجورديانوس بروقنصل إفريقيا إمبراطورا بدلا من ماكسيمينوس [78].

2) عهد الإمبراطور جورديانوس

(M.Antonius Gordianus Sempronius)، مارس 238 م.

أشرك الإمبراطور جرديانوس الأول ابنه جرديانوس الثاني في الحكم، وهلل سكان الولايات بالإمبراطور الجديد، وقتلوا أنصار ماكسيمينوس، وحطموا تماثيله، وأقاموا محلها تماثيل الإمبراطور الجديد. وهنا يجب التساؤل عما دفع الأفارقة إلى الدخول في صراع كان يعني الرومان، مع علمهم بأنهم لن يجنوا شيئا من وراء انضمامهم إلى الرومان الثائرين على الإمبراطور، لأن تغيير هذا الأخير أو تخفيف الضرائب على المزارعين الرومان لا يكفي لتحسين حالهم ؟

إن الإجابة على مثل هذا التساؤل ربما تكمن في أن موقف الأفارقة عندئذ يماثل موقف أسلافهم من الصراع بين الجمهوريين وقيصر، ومن الصراع بين سكستيوس وفانجو للفوز بمنصب الولاية، أي انتهاز كل فرصة يتصارع فيها الرومان للانضمام إلى أحد الجانبين تعميقا للخلاف من أجل إضعافهم، أملا في توفير الظروف الملائمة للتخلص من الهيمنة الرومانية. ويؤيد ما نذهب إليه، أنه عندما أصدر جورديانوس الأول أمرا بعزل كابليانوس (Capellianus) الوالي الروماني لنوميديا، ورفض هذا الأخير تنفيذ الأمر، وشن حملة عسكرية على الإمبراطور شارك فيها النوميديون [79]. وقد هب جورديانوس الثاني للتصدي لهذه الحملة لكنه قتل، وعقب ذلك انتحر والده الإمبراطور جورديانوس الأول. وقد خرب كابليانوس البلاد وقضى على معظم مؤيدي جورديانوس، واستولى على جميع المدن التي خانت قضية الإمبراطور ماكسيمينوس، وتركها فريسة لجنوده، ونفى الملاك الكبار والأثرياء وبعض رجال العامة، ووزع الثروات على الجنود المتعطشين للمال [80].

3) الوضع في إفريقيا وفي الإمبراطورية من فترة حكم جورديانوس الثالث (M. Antonius Gordianus) ، 238/ 253 م.

بعد موت كل من جورديانوس الأول والثاني، بعد حكم لم يدم أكثر من اثنين وعشرين يوما، لقي ماكسيمينوس حتفه، عندما كان يحاول الدخول إلى روما، وعين السناتو إمبراطورين في أواخر عام 238م. وهما بابينوس (Calvinus D.C.Babianus) وبوبيونوس (M.C.Pupienus Maximus)، لكن الحرس الإمبراطوري لم يرض عن ذلك فأعدم الإمبراطورين بعد حكم دام ثلاثة شهور، ونادى بجورديانوس الثالث في نفس العام إمبراطورا، وكان صبيا في الثانية عشرة من عمره، ونظرا لقصوره، تولت أمه أمور الدولة حتى عام 241 م.، عندما قبض على زمام الأمور قائد الحرس الإمبراطوري، وكان من أهم ما حدث في عهد هذا الإمبراطور فيما يتعلق ببلدان المغرب القديم هو حل الفرقة الأغسطية الثالثة سنة 238 م.، لأنها شاركت في التمرد ضد جورديانوس الثالث، ووضعت بدلها وحدات عسكرية لحراسة الحدود

الجنوبية للمنطقة. وتبعا لهذا القرار سجل انخفاض في عدد القوات الرومانية، وكان من عواقب ذلك وقوع تمرد الجنود الأفارقة سنة 240 م.، فقد نادى جنود إفريقية بالبروقنصل سابينيانوس (Sabianianus) إمبراطورا، لكن هاجمه والي موريطانيا الذي بقي وفيا لجورديانوس الثالث وألقى عليه القبض [81]. كما نسجل هجوم القبائل الإفريقية المستقرة وراء الحدود الجنوبية التي أقامتها روما. بالإضافة إلى ذلك سحبت روما الوحدات العسكرية المتمركزة في مسعد وفي طريق دوسن وسادوري (Ausum) وقد نتج عن ذلك تقلص مساحة المناطق الخاضعة للسلطة الرومانية.

ونتيجة الضعف السياسي والعسكري الذي أصبحت عليه الإمبراطورية، تكالبت عليها الأخطار من كل الجوانب، تتلخص في مقتل الإمبراطور جورديانوس الثالث في عام 244 م. وتولي فليبوس العربي (M .Julius Philippus.)، 244/249 م. مكانه. ثم قيام ثورات عسكرية في ميسيا (Mysia) بالشرق ومحاولة إقامة أحد قادتها إمبراطورا، مع مناداة فرق الدانوب باكاثيانوس (Ti. Pacatianus Claudius) أحد قادتها إمبراطورا في عام 248 م.[82]، بالإضافة إلى ذلك، عرفت سوريا اضطرابات مماثلة بسبب ارتفاع الضرائب تبعها تنصيب أحد سكانها إمبراطورا، وكذلك قيام القوط (Goths) والوندال (Vandales) من الشعوب الجرمانية بغزو الدانوب وولاية ميثينا، ومصرع القائد ماسيوس دكيوس (C. Massius Decius) 201/ 249م. اثر تعيينه إمبراطورا، فخلفه الإمبراطور فاليريانوس (Licinus .L Valerianus) 254/ 265م.، الذي بلغت الفوضى العسكرية في فترة حكمه أقصاها حيث :

- قامت في إفريقيا البروقنصلية وفي الإسكندرية أضطرابات نتيجة رفض المسيحيين المشاركة في تقديم القرابين للآلهة الوثنية لتهدئة غضبها [83].

- نصب ديكيوس (Caius Decius) الابن إمبراطورا في عام 251 م.

- ظهر القوط من جديد في عام 253 م. على الدانوب، فردهم حاكم ميسيا آيميليانوس (Aemilianus) الذي أقيم إمبراطور في نفس العام.

الوضع في بلدان المغرب القديم والإمبراطورية من عام 253 إلى عام 411 الميلادي

خلال الفوضى العسكرية سجلت عدة أحداث نذكر منها :

1) تطاحن كبير بين القادة الرومان للفوز بمنصب الإمبراطور

2) اختطاف الأهالي لرعايا مسيحيين، وأمام تجاهل السلطة للمختطفين دفع الأساقفة فدية لاسترجاعهم [84].

3) قيام قبائل البافار (Bavari) مع قبائل أخرى معروفة بالأمم الخمس (Quinquegentiani) وقبائل أخرى انطلقت من موريطانيا القيصرية بقيادة فراكسان (Faraxen) بثورة شملت المنطقة الممتدة من موريطانيا الطنجية حتى نوميديا، واستمرت من عام 259 م. إلى عام 260 م.

4) في أواخر عصر الإمبراطورية، وبالذات منذ عام 305 م. ظهر صراع ديني مذهبي في كل من كيرتا وقرطاجة، حيث انشقت عن الكنيسة المسيحية الكاتوليكية الرسمية مجموعة اشتهرت في التاريخ باسم الدوناتيين (Donatistes) نسبة إلى زعيمهم دوناتوس (Donatus) بسبب قبول الكنيسة الرسمية الإنضواء تحت لواء السلطة الرومانية وخدمة المصالح السياسية للإمبراطور، واتهامها بالتخلي عن المبادئ المسيحية الحقة [85]. وقد تحالف معهم الأهالي الذين كانوا يعانون الفقر والجوع، ويئسوا من السيطرة الرومانية والطبقة الأرستقراطية، وأعلنوا ثورة شعبية ضد السلطة وكل من يخدمها، والذين عرفوا في التاريخ باسم الدوارين (cellas-Circum) بمعنى الطوافين حول مخازن الحبوب[86].

لقد أضفت الدوناتية على الثورة الأهالي طابع القداسة وعلى الثوار صفة الطهر وعلى موتاهم صفة الشهداء. وقد ألحقت هذه الثورة خسائر كبيرة ونشرت الرعب في أوساط الطبقة الأرستقراطية والسلطة الرومانية في نوميديا وموريطانيا لكن انعدام القيادة السياسة والحنكة العسكرية، جعلها تفشل في تحقيق هدفها الأسمى وهو التخلص من السيطرة الرومانية، لذلك لم يتردد الثوار في الانضمام لحركة

فرمرس (Firmus) ضد السلطة الرومانية سنة 372 م.، وقد أرسلت روما قوات ضخمة للقضاء على هذه الثورة، ودارت معارك كبرى بين الطرفين دامت أربع سنوات، كلفت القوات الرومانية خسائر جمة. لكن التناقض بين أسباب ثورة الأهالي والدوناتيين ذات الصبغة الاجتماعية والدينية من جهة، ودوافع تمرد فرموس ذات الصبغة القبلية جعل التحالف لا يدوم طويلا [87].

ورغم ذلك لم ينته تمرد فيرموس حتى ثار أخاه جيلدون سنة 386 م. بتأييد من الدوناتيين وحجز المؤونة الموجه إلى روما بغرض تجويعها، مما زاد الوضع تأزما في روما، لكن السلطة الرومانية استطاعت القضاء عليه [88].

5) انتشار مرض الطاعون في جميع ولايات الإمبراطورة سنة 268 م. بالإضافة إلى حدوث زلزال في بلدان المغرب وإيطاليا وآسيا الصغرى.

6) استمرار غارات القوط والوندال على وسط أروبا والبلقان وآسيا الصغرى، حتى عام 533 م. التاريخ الفعلي لسقوط الإمبراطورية الرومانية.

جدول ثورات الأهالي بين 20 ق.م. و298 م.

التاريخ	الإمبراطور	القبائل والشعوب الثائرة	مواقع الثورات
20 - 6 ق.م.	أغسطس	الجيتوليون، الجرامنتيون والموريون	جنوب تونس، فزان، منطقة خميسة وثالة وموريطانيا
17 /24 م.	تيبريوس	ثورة تاكفرناس، الموسلاميون، الكتيتي والموريون	الأوراس، السيرت الصغرى وجنوب قسنطينة
45/40 م.	كلوديوس نيرون	ثورة أيدمون : الموريون، النوميديون والموسلاميون	جبال الأطلس الغربية وجنوب نوميديا
57/52 م.	نيرون	عمليات تطهير	شمتو
68/ 75م.	غالبا وفسباسيانوس	الجرامنتيون	موريطانيا، طرابلس
86/80 م.	دومسيانوس	الناسمونس، الموريون	منطقة السيرت الكبرى وموريطانيا
117/98 م.	تراجانوس	الموريون الغربيون	موريطانيا الطنجية
122/118م	هادريانوس	الموريون والباقات	موريطانيا القيصرية
152/144م.	أنتونان	ثورة شاملة في كل المغرب الأقصى	صلا بموريطانيا الطنجية وفي الحضنة والونشريس والظهرة والأوراس
174 م.	مارك أنتوان	الموريون والباقات	موريطانيا القيصرية
188 م.	كومودوس	الموريون	موريطانيا القيصرية
211/209م	سبتموس سيفروس	الموريون، الباقات وقبائل غير محددة	طرابلس وجبال الأطلس بموريطانيا الطنجية والقيصرية ونوميديا
227/226م.	سيفروس ألكسندر	الموريون	سطيف وموريطانيا الطنجية
253/262م	غاليان	الباغار والحلف الخماسي وفراكسنائس	البابور وجرجرة
289/298م	ديوكلثيانوس	ثورة شاملة	كل المغرب القديم

الهوامش

1) Rostovtzeff (.I. M.), Histoire economique et sociale de l`empire. edit. Robert, Lafont,Paris,, 1988. P, 25.

2) بارو (ر. هـ.)، الرومان، ترجمة عبد الرازق يسري، مراجعة القلماوي (سهير) دار النهضة، مصر، 1968، ص ص، 132/133

3) Rostovtzeff (.I. M.), op cit, P, 26

4) Ibid, P, 31

5) Homo (L), Nouvelle histoire romaine, Paris, 1969, P, 139

6) Rostovtzeff (.I. M.), op cit, P, 32 ; Homo (L), loc cit,

كانت طبقة العبيد في إيطاليا تشكل خطرا على مجلس الشيوخ وعلى النظام العام في روما، كما كانت تهدد الاقتصاد في كل شبه جزيرة إيطاليا، بحيث لم يحترف معظمهم في الزراعة مثل صغار الفلاحين الرومان. زد على ذلك المستنقعات التي طغت على مساحات زراعية واسعة، وكذلك توسيع الكروم على حساب القمح الضروري للمجتمع الروماني. وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن الظروف المزرية التي كان يعيشها العبيد في إيطاليا دفعت بهؤلاء إلى التمرد عدة مرات، أهمها ثورة سبارتكوس (Spartacus) التي استغرقت سنتين كاملتين من 73 إلى 71 ق.م.

7) Quintillianus, Declamatio, XIII, 2, Les classiques dans Lemaire (M.F.)
Quod cives pascebat, nunc dividis unius hortus est pasquam proximos quosque revellendo terminos ager locupletis latius inundavit aequatae solo villae, et excisa patria sacra et cum cojugibus parvisque liberis, repectantes patrum larem migraverunt veteres coloni m et latae solitudinus indiscreta unita facta est

8) Homo (L), op cit, P, 140

9) Varron, De re rustica, I, II, trad., Dubois (L), edit, C.L.F.Panckouke, Paris,1954.
" Itaque in terra culturam agri docuerunt pastores progeniem suam, qui codiderunt urbem ibi contra progenjes eorum, propter avaritiam, contra leges, ex sagetibus fecit prata, ignorantes non idem ess agriculturain et pactionem " ; Suetone, Vit . augusti, XLII, textes etabli et trad. Par Aillourd, les belles lettres, Paris,1932, " Quod fiducia cultura agrorum cessaret " ; Albertini (E), L'empire romain, Paris, 1929, P, 219 ; Mispoulet (J), Institutions politiques romaine, 1882, P, 238 ; Marquardt (J), L'organisation financiere chez les romains, Paris, 1888, P, 142.

10) كان الملاك الصغار ؛ نظرا لانعدام الإمكانيات المادية لديهم ؛ يلجؤون إلى الاقتراض من الملاك الكبار الطامعين في أراضيهم، لكن وبسبب انخفاض إنتاجهم وارتفاع التكاليف، وبالتالي عدم قدرتهم على منافسة إنتاج الضيعات الواسعة من جهة، والمواد المستوردة من جهة أخرى، يعجزون عن تسديد ديونهم، مما يدفعهم إلى بيع أراضيهم للطامعين فيها حتى يتسنى لهم تسديد ديونهم، أو يستولي عليها المقرضون، Homo (L) , op cit, P, 141.

Homo (L), op cit, P, 141 ; Grimal (P), La civilisation romaine, Paris, 1984, P, 186.

11) Salluste, Bellum Jugurthinum, Ernout, edit., Les belles lettres, Paris,

12) Horace, odes, edit. F. Villeneuve, C.U.F., 1932, II, 18, 23,28.

13) Plutarque, Les vies,, Grac. VIII, P, 1,3

14) Varron, De re rustica, trad. Dubois (L), C.U.F., Panckouke editeur, Paris, 1845, II, PP, 1,3

15) Tite Live,Histoire romaine,edit.Weissenborn (W) et Muller(A.J),1962, XXX, 16,11; Gsell (S), H.A.A.N., T, IV, P, 11, note 1

16) Polybe,Histoire, texte traduit presente et annote par Denis Roussel, edit,Gallimard, Paris, 1970, XV, 18,6

17) Tite Live, loc cit ; Gsell (S), loc cit

18) Polybe, III, 22, 1, III, 24 ; Decret (F),Carthage ou l'empire de la mer,edit, Seuil, Paris, 1977, PP, 105/106

19) Ciceron, Ad.familiares, edit, Bouvet (A), C.U.F., 1962, XIII,16 .

20) نصحي (إبراهيم) ، تاريخ الرومان، ج الثاني ، مصر، 1978، ص، 734 يوجد قانون يعود إلى القرن الثالث قبل الميلادي يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء امتلاك أكثر من ثلاث سفن متوسطة الحجم، أي ما يسمح لهم بنقل محاصيلهم الزراعية فقط،

... Grimal (P), La civilisation romaine, Paris, 1984, P, 193

21)Decret (F), op cit, P, 221

22) Sallustius, B.J., XXI, XXVI, 1,3 (22

23) Ibid, XLVII 1

24)Rostovtzeff (M.I.), op cit, P, 30

25) Gostynski (T), L'Afrique du nord dans l'antiquite', Marrakech, P, 173

26) Aristide (J), Eloge de Rome, PP, 94/95

27) Sartre (M), Tranoy (A), La mediterranee antique, P, 55

28) Plutarque, op cit, Caius Marius, XXI.

29) Sallustius, B.J. XXXVII, XCII,2

30) بلغ عدد هؤلاء في عهد الإمبراطور أغسطس 200 ألف، يتحصلون مجانا على مليون مكيال من القمح كل شهر، راجع، جوليان (شارل أندري)، تاريخ شمال إفريقيا، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969 ص، 206.

بالإضافة إلى المال، ينبغي الإشارة إلى أن جنود ماريوس المسرحين ،بعد القضاء على يوغرطه

تحصلوا على أراض في الحوض الجنوبي لوادي مجردة (Bagradas) في كل من هنشير تيباري Atlas Archéologique de Tunisie, f, Souk el Arbaa, n° 16, (Thibaris) وفي هنشير الدواميس (Uchi Majus) وفي توبرنيكا (Thuburnica) بنوميديا، Ibid , n° 62 ، وفي نفس المناسبة استفاد الجيتوليون الذين حاربوا إلى جانبه من المواطنة الرومانية ومن أراض، وهذا ما جعل ماريوس يكسب شعبية واسعة في أوساط العامة.

31) جوليان (ش.أ.)، المرجع السابق، ص، 217

32) أيمار (أندري)، تاريخ الحضارات، ج،II ، ترجمة فريد داغر، ص، 109

33) قضت روما على حضارة الإغريق بنقلها لكل الفئات المتعلمة والمثقفة، من أطباء ومهندسين معماريين وفلاسفة وشعراء وفنانين ورياضيين وغيرهم إلى شبه جزيرة إيطاليا، مع جمعها لإنتاج هؤلاء وتسخيره لخدمة روما. أما فيما يخص قرطاجة فقد قضت روما على حضارتها بتدميرها في عام 146 ق.م. لكل منشآتها ومعاملها ومقوماتها الحضارية بما فيهاالمكتبات، وحتى لا تعود إليها الحياة، بادرت روما إلى زرع أرضها ملحا، ثم شرعت في وضع أسس الحضارة الرومانية وسهرت على تطبيقها وتطويرها.

34) ينطلق هذا الخندق من مصب الوادي الكبير إلى مدينة باجة ودقة حتى جنوب غرب زغوان جنوب تونس

35) كانت هذه الأرض عبارة عن وحدة إدارية يسيرها حاكم روماني عادة ما يكون القائد العسكري المنتصر عليها، ويساعده مجلس شيوخ يتكون من عشرة أعضاء يرأسهم نفس القائد، يسن القوانين التي تسيرها تعرف بقوانين الولاية (Lex Provincia)، تحدد حقوق وواجبات سكانها..

36) لقد سبق ت. سمبرنيوس جراكوس (T. Sempronius Gracchus) أخاه كايوس جراكوس (Caius Gracchus) وقدم في عام 133 ق.م. مشروعه الإصلاحي الخاص بمصير الأراضي العامة في الولايات، وقد أصبح هذا المشروع قانونا يعرف باسم قانون سمبرونيا (Lex Sempronia) نسبة إلى عشيرته، وهو يحتوي على ثلاثة بنود هامة تتلخص فيما يأتي :

أ . لا يستفيد النبلاء من أكثر من 500 يوجرة (125 هكتار) من الأرض العامة، ولا يحق لأحد أبنائهم الثلاثة حيازة نصف هذه المساحة. ب . يمكن للحكومة الرومانية استرجاع الجزء الفائض من أرض الحيازة المذكور في البند الأول وتوزيعه على صغار المزارعين بشرط عدم بيعه. ج. انتخاب لجنة ثلاثية تقوم بتنفيذ ما جاء في البند الأول والثاني من القانون. لكن النبلاء عارضوا هذا المشروع ونجحوا في القضاء على ت. سمبرونيوس جراكوس وأنصاره. وفي عامي 129 و122 ق.م. أراد كايوس جراكوس حل المشاكل الرومانية بنقل صغار الفلاحين الرومان إلى الولايات وضمهم في مستعمرات دون المساس بمصالح كبار الملاك، ولذلك أصدر قانون

روبرية (Lex Rubria)، لكنه وجد معارضة شديدة وقتل عام 121 ق.م. عندما حاول التمرد على الحكومة.

37) يعتقد أنه لتشجيع عملية الإنخراط في الجيش التي شرع فيها، قام ماريوس في عام 100 ق.م. بناء على قانون ل. أبوليوس ساترننوس(Saturninus Appuleius .L) بتأسيس مراكز رومانية جديدة غير محددة في نوميديا، كما وزع أراض زراعية على الجنود المسرحين من الجيتوليين الذين ساندوه، ومنحهم حقوق المواطنة الرومانية.

Cesar, Bellum. Africum, edit, Bouvet (A), C.U.F., 1962., XXXII, 3, XXXV, 4, LVI, 3 .

38) App,Bellum civium, IV.

39), Gsell, (S); Histoire de l'Afrique du nord; Onasbruck, 1979, T, VII, P, 275.

كان إقليم القائد الروماني سيتيوس يضم أربع مستعمرات هي : ميلة (Milev) وسكيكدة (Rusicade) والقل (Chullu) وكيرتا . وكانت هذه الأخيرة عاصمة إدارية لهذه المستعمرات..

41) Dion Cassius, VLIII, 9

42), Ciceron, De lege agraria, edit, Boulanger (A), C.U.F.,1932, V

43) Dion Cassius, XLIII

44) App, B. CV, 3

45) Dion VLIII Cassius, 9

46) تعود أسباب الخلاف بين أنطونيوس وأوكتافيانوس إلى علاقة الأول بكليوبترا السابعة ملكة مصر ثم زواجه الرسمي منها، وبعد ذلك اعترافه بقيصرون بن قيصر الأكبر، راجع، إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عهد البطالمة، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1972، ص، 350

47) كان يتولى إدارة إفريقية البروقنصلية بروقنصل (Proconsularis provinciae Africae) راجع،

Berthier, (A), La Numidie, Paris, 1937, P, 125

48) Petit (P), Histoire générale de 1'mpire romain, I, Le haut empire, Paris, 1978, P, 39 ; Poule (A) travers A la Mauretanie Setifiennen, RS. A.C. n° 7, 1863, P,107.

49) Dion Cassius, XLI

50) تعود فكرة توطين قدماء المحاربين في إفريقيا إلى عهد القائد سكيبيو الذي وعد جنوده بأراضي في إفريقيا إذا ما انتصروا على قرطاجة، Dion Cassius , Liv ، 9XXX، وإلى الآن لم يعثر على ما يؤكد بره بوعده رغم الإنتصار الروماني آنذاك. ودخلت الفكرة حيز التنفيذ في عهد نقيب العامة جايوس جراكوس (Caius Gracchus) في عام 123 ق.م. حين أرسل حوالي ستة آلاف شخص إلى إفريقيا رغم رفض مجلس الشيوخ هذه الخطوة. أما في عام 105 ق.م. فقد استطاع القائد ماريوس ؛ بعد انتصاره على يوغرطه ؛ بفضل مساعدات تربيون العامة أبوليوس ساترنيوس (Appuleius Saturnius) استصدار قانون لصالح قدماء محاربي يوغرطه، نص على منح كل واحد من هؤلاء المحاربين اقطاعا في إفريقيا.

51) Baradez(J) Fossatum Africae, Paris , 1913, P,151

52) تسكن قبائل الكنيثي طول الساحل الليبي، الذي يمتد من قابس إلى لبدة

53) الجيتوليون قبائل متنقلة شديدة المراس تقيم في الجهة الجنوبية لمملكة موريطانيا وإفريقية البروقنصلية.

54) Tacit. nnA,II,
55) Ibid, IV, 13
56) Rachet (M), Rome et les berberes, Bruxelles, 1970 PP, 41/42
57) Ibid, P21/24
58) Tacit, Ann., VI, 20/24
59) Ibid, III, 74
60) Ibid, 20/24
61) Ibid, IV 24
62) ine IPI ancien, Histoire Naturelle, texte etabli traduit et commenté par Desanges (Johan), Paris, 1980, V, 1
63) 8Dion Cassius, LX
64) Rachet,(M), op, cit PP134/138.

65) ينبع من جنوب شرق المغرب الأقصى ويصب في جنوب غرب الجزائر، (Dion Cassius , LX , 9

66) Pfaum (H.G), Les procurateurs equestres sous le haut empire romain, Paris, 1959, P, 127.
67) Leschi (L) Inscriptions latine de Lambese et de Zana, Libyca, Alger,T, I, P, 189
68) Gsell (S), Atlas Archéologique d'Algérie, T, I, texte, Alger, 1997, f, 27, n°324.
69) Leglay (M), africain Saturne, Paris, 1961,P, 365
70) Gsell (S), A.A.A, f,18.
71) Gascou (J), La politique municipale de l'empire romain en Afrique Proconsulaire de Trajan à Septime Severe, Rome, 1972,P 200.
72) la Pflaum(G.H.) propos de la date de création de la Numidie, Paris, 1951, T, V, PP, 61/75.
73) Carcopino (J) Limes de Numidie et sa garde syrienne, Syria, Paris, 1925, T, VI, PP, 30/57, 118/149.

74) عملت روما منذ وطأت أقدامها منطقة المغرب على إثبات وجودها وتدعيم مركزها حتى يتسنى لها تحقيق أغراضها الاستعمارية، منها تأمين المنطقة لتوفير السلم والراحة والاستقرار للمراكز السكنية الكبرى، وكذلك حتى يتسنى للمعمرين من استغلال الأراضي التي حصلوا عليها في ظروف آمنة. إن هذه الأهداف جعلت روما تتبنى سياسة معادية للأهالي خاصة الذين رفضوا وجودها، وتصدوا لتوسعاتها، وذلك بمصادرة أملاكهم وتحديد أماكن إقامة بعض القبائل وطرد الأخرى إلى المناطق الوعرة الفقيرة كالجبال وحددت من تنقل البدو الرحل بين الصحراء والسهول

التلية، بفرض رقابة صارمة على كل المعابر وقد تمحورت هذه السياسة فيما عرف بخط الليمس(Limes) ، وهو جهاز عسكري معقد ومرن في نفس الوقت، فهو معقد في مكوناته، ومرن في تطوره الدائم وتكيفه مع مختلف الأحداث التي كانت تعرفها منطقة المغرب القديم. يتكون هذا الخط الدفاعي من ثلاثة عناصر أساسية أضيفت إلى بعضها تدريجيا، وهي الخندق (Fossatum) الذي تتخلله أبراج وحصون ومراكز مراقبة. وثانيا أبراج وقلاع محصنة منعزلة، وأخيرا شبكة من الطرقات الإستراتيجية،

Baradez (J), Fossatum Africae, Paris, 1949, P, 134.

اعتبر خط الليمس الحد الفاصل بين أراضي الإمبراطورية الرومانية وأراضي الشعوب المعادية لها، مهما كانت هذه الحدود، طبيعية كالجبال والأودية، أو مصطنعة كالطرقات والمراكز العسكرية. لكن هذه الحدود لم تكن على شكل خطوط محددة بنصب أو خنادق كما هو متعارف عليه اليوم، بل منطقة عازلة لا يقل عرضها في بعض الأماكن عن ستين كيلومتر، ,Ibid , P, 138، مثل ليمس الحضنة القنطرة، وهي مجهزة بكل وسائل الدفاع الضرورية لحماية أراضي الإمبراطورية. وما يلاحظ على الليمس أن الغرض من إقامته، كان خلال القرنين الأول والثاني هجوميا، لكنه تحول ابتداء من القرن الثالث إلى خط دفاعي، ,Ibid , P, 135، كما توقف تطوره من فترة إلى أخرى على شخصية كل إمبراطور وسياسته التوسعية وامكانياته المادية، وكذا على الخطر الداخلي والخارجي.

75) Krieg (C), Précis d'antiquité romaine, trad.,l'abbé O .Jail, Paris, 1892, P139.
76) Besnier (M), Histoire romaine, Paris, 1937, P, 63.
77) Kotula (T), L'insurrection de Gordien et l'Afrique romaine, Eos. Paris,1959/60, PP, 197/211 .
78) Herodien, Histoire romaine, edit, K.Straven Hagon, 1922, VII
79) Benabou (M), La résistance africaine à la romanisation, Paris, 1971, P, 207
80) Toutain (J), Les cités romaines, Paris, 1895, P, 366
81) Herodien, H.R., 23, P, 4 (81
82) Besnier (M), op cit, T, III, P, 153
83) Saint Syprian, Epist, 58/59 (83
84) Besnier (M), op cit, P, 155

(85 شنيتي) محمد البشير)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة ،الجزائر، 1981، ص، 324

86) Saumagne (Ch), Ouvriers rodeurs de celliers ? Les circoncillions d'Afrique, A.H.E.S., IV, 1934, P. 351.

87) شنيتي (محمد البشير)، المرجع السابق، ص 354

88) Cagnat (R) L'armée romaine de l' Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, Paris, 1909, PP, 70/80

الباب الثاني

سياسة الرومنة عن طريق الجيش وإقامة السلام

سياسة الرومنة

بعد ضم أراضي المغرب القديم، وتثبيت سيطرتهم عليها، اتخذ الرومان جملة من التدابير العاجلة كما رأينا في الباب الأول من هذا البحث، تمثلت هذه التدابير في تعيين حكام عليها يديرون شؤونها، وفي تنصيب ولاة وقادة يحمونها بواسطة جيوشهم ومستعمراتهم التي استوطن بها مواطنون رومان وقدماء محاربين دون الأهالي، الذين أبعدوا إلى مناطق نائية وجرداء، ثم فرقوا بشتى الوسائل تطبيقا لمبدأ فرق تسد تجنبا لأي اتصال أو تعاون بينهم من شأنه أن يشكل خطرا عليهم.

والملاحظ أنه رغم التعزيزات العسكرية المكثفة التي أرسلتها روما إلى المنطقة وتصديها لثورات الأهالي، ساد بلدان المغرب جو لا أمن ولا استقرار، حيث واصل الأفارقة مقاومتهم للوجود الروماني، بمهاجمتهم مزارع الملاك الكبار ونهبها، وشنهم هجمات متتالية على المراكز العسكرية الرومانية في مختلف الجهات بتنظيم أنفسهم في شكل تحالفات واتحادات أحيانا، وبانضمامهم إلى أحد طرفي النزاع القائم بين الساسة الرومان وأعدائهم أحيانا أخرى، لعلهم يساهمون في تعميق الخلاف بينهم، ويسعون من وراء ذلك إلى إضعافهم ،و هذا يسهل عليهم التخلص منهم والقضاء عليهم.

لكن ما يهمنا في الباب الثاني من موضوع بحثنا المحدد بعنوان سياسة الرومنة، مسائل كثيرة معقدة ومتداخلة فيما بينها، كمفهوم هذه السياسة والعوامل التي أدت إلى بروزها وتطبيقها، وأسس إدارتها، ومفهوم المواطنة الرومانية والحقوق المترتبة عنها وتطورها. ولما كان موضوع سياسة الرومنة يعني إدماج أهالي ولايات الإمبراطورية ممن تتوفر فيهم شروط محددة في المجتمع الروماني، سنتطرق إلى كيفية تطبيق سياسة الرومنة أولا، عن طريق التجنيد، كما سنتناول سياسة الرومنة

عن طريق الجيش والأمن والمنشآت الرومانية وأثرها على أهالي المقاطعات الإفريقية سواء الذين رومنوا أو الذين ظلوا خارج الإدارة الرومانية، من جهة وعلى روما من جهة أخرى وثانيا عن طريق) إقامة السلام الروماني (Pax romana) وثالثا عن طريق إنشاء المدن الرومانية (كالبلديات والمستعمرات في المقاطعات. كما سنتناول آثار سياسة الرومنة عن طريق الجيش والأمن والمنشآت الرومانية على أهالي المقاطعات سواء الذين رومنوا أو الذين ظلوا خارج الإدارة الرومانية من جهة، وعلى روما من جهة أخرى.

مباشرة بعد سيطرتها على قرطاجة وإنشائها للخندق الملكي، شرعت روما في عام 122 قبل الميلاد في عملية مسح أراضي مستعمرة قرطاجة، التي أصبحت تسمى ينونيا (Iononia)على يد الأخوين جراكوس، وتتلخص هذه العملية في إحصاء وتوزيع الجنود والمساحين العسكريين (Agrimensores) على هذه الأراضي بهدف مسحها وتقسيمها إلى وحدات زراعية مربعة أو مستطيلة، تبلغ مساحة كل وحدة 200 يوجرة (50 هكتارا)، تختلف اتجاهاتها باختلاف طبيعة الأرض وموقعها، بحيث تكون إما شمالية جنوبية أو شرقية غربية.

وفي هذا الصدد عرفت مدن إفريقية أخرى كثيرة ؛ بعد قرطاجة ؛ نفس المصير كعنابة وسوسة ولبدة وغيرها.

وإذا تهافت الرومان على أراضي مستعمرة إفريقية (Colonia Iononia) بمعنى قرطاجة سابقا تهافتا كبيرا، بحيث تقاسم هذا الجزء من الأراضي ستة آلاف روماني استفاد كل واحد من مساحة تقدر بحوالي 225 هكتارا، فإنه في عهد الأخوين جراجوس بلغت المساحة التي تقرر توزيعها على المزارعين 150000 هكتارا، قسمت إلى وحدات زراعية مساحة كل واحدة منها خمسين هكتارا، في حين بلغت القطع الموزعة في نوميديا 13000 هكتارا.

وتجدر الإشارة إلى أن روما دأبت ؛ بعد كل عملية مسح وتقسيم ؛ على رسم خريطة المنطقة المعنية (Forma) تحتوي إلى جانب المخطط، على أسماء أصحاب الملكيات الخاصة والعامة التي تحصل عليها أصحابها من روما أو

اشتروها أو أجروها، لتمديد قيمة الضرائب التي ستفرض عليها، ولمعرفة أحوالها، وبالتالي ضبط إدارتها وحسن تسييرها[1].

والملفت للانتباه هو أنه إلى جانب ذلك، أصبحت روما تعتمد على الإقطاعيين الجدد من الرومان في الولايات في نشر سياسة الرومنة كما سيتضح ذلك لاحقا.

مفهوم سياسة الرومنة

يتلخص مفهوم سياسة الرومنة في إلغاء وطمس روما لكل مقومات الشعوب المهزومة التي ضمت إلى حظيرتها، وفي المغرب القديم يتعلق الأمر بالشعوب الإفريقية والبونيقية، وتعويضها بنظم رومانية سياسية واقتصادية وعسكرية وحضارية، وفي الواقع هذا يعني طبعها بطابع روماني بحت، وجعلها تشعر أن مستقبلها مرتبط بروما ارتباطا وثيقا وبالتالي فهي لا تذعن وترضخ لوجودها فقط، بل تتجاوز ذلك لتصبح تدافع عنها ضد أبناء عشيرتها. وهذا في الواقع يرادف ما قاله مارسال بن عبو (Marcel Benabou)[2] " إن سياسة الرومنة لا تعني فقط نقل حكم ورجال، وإنما نقل حضارة كذلك." وأيضا ما ذكره محمد البشير شنيتي[3]. أنه تحويل الأنظمة الإدارية التي وجدوا عليها بلاد المغرب إلى أنظمة رومانية محضة." وهذا يتفق اتفاقا كاملا مع ما ذهبت إليه مونيك دوندون بايير (Monique Dondon -Payre)[4] حين قالت "أن الرومنة تعني نقل الحضارة الرومانية إلى المقاطعات المستولى عليها، بحيث تصبح الحياة الدينية تتمثل إما في عبادة الآلهة الرومانية، أو في إدماجها بالآلهة المحلية، مع الحرص الشديد على تقديس عبادة الإمبراطور الذي كان بمثابة إله. ومن الناحية القانونية والسياسية تظهر نسبة قابلية الأهالي للنظم والقوانين الرومانية، وتتأكد من خلال مساهمتهم في إدارة شؤون البلديات. ومن الناحية الاقتصادية تدل كثافة المبادلات التجارية مع شبه جزيرة إيطاليا وتطور الوسائل الزراعية والصناعية، ووسائل البناء على الرغبة في تدعيم الرومنة. كذلك تغيير الهياكل الاجتماعية، ونشر وتوسيع الحياة في البلدية التي يصاحبها توسيع في البناء، يساعد على نشر الثقافة اللاتينية ". ولتوضيح ما أشارت إليه، تضيف نهس

المؤلفة [5] : " أن الرومنة تشبه بحجمها نشر الحضارة الهللنستية التي حدث عنها انصهار مع الثقافات الأخرى، لكن في اعتقادها، أن الهللنستية ظاهرة حضارية بينما منح المواطنة الرومانية يعني رومنة أفراد أو جماعات، وهذا يعني من الناحية القانونية ربط الأفراد بالإمبراطورية."

لكن كيف يمكن للأجانب بمختلف أصولهم أن يحصلوا على الجنسية الرومانية ؟

الملاحظ أن الاستفادة من الجنسية الرومانية اختلف من عصر الجمهورية إلى عصر الإمبراطورية، ذلك أنه في العصر الأول كانت المجالس (Comitia) الممثلة في القادة وحدها مؤهلة لمنح حق المواطنة، وعادة ما يقلد الأهالي المرومنين الرومان في تبنيهم قاعدة الاسم الثلاثي المتكون من الاسم (Praenomen) واللقب (Nomen) والكنية (Cognomen)، ففي العصر الجمهوري كان الأهالي يتبنون اسم ولقب الشخص الذي لعب دور الوساطة بينهم وبين السلطة، قد يكون هذا الشخص حاكما أو قائدا أو وكيلا أو سيدا . أما في عصر الإمبراطورية فقد جرت العادة أن يحمل الفرد اسم ولقب الإمبراطور صاحب نعمته مثل لقب س. أو ك. إيوليوس (G.Iulius أو C) نسبة إلى يوليوس قيصر أو أغسطس. وبصفة عامة تبرز لنا عملية إحصاء ودراسة النقوش التي وصلتنا أن الأسماء تنقسم إلى خمس مجموعات تنسب إلى إمبراطور أو أسرة وهي تتوزع كما يلي :

C.Iulius أو G ينسب إلى يوليوس قيصر أو الإمبراطور أغسطس (46 ق.م /14 م.)

Ti.Claudius، ينسب إلى الإمبراطور كلوديوس (54/41 م.).

T.Falavius، ينسب إلى الإمبراطور فسباسيانوس وتيتوس ودومسيان (69/ 96 م.)

M.Ulpius، ينسب إلى الإمبراطور تراجانوس (117/96 م.)

P.Aelius، ينسب إلى الإمبراطور هادريانوس (138/117 م.)

من هذه القائمة نسجل غياب أسماء بعض الأباطرة، إما لعدم اهتمامهم برومنة الأهالي، وبالتالي عدم منحهم حق المواطنة الرومانية إلى الأفارقة وغيرهم من بقية الشعوب الخاضعة لروما، مثل كاليغولا ونيرون، أو لقصر مدة حكمهم مثل الأباطرة

غالبا (Galba) وأوتون (Othon) وفيتليوس (Vitellius)، أو للعدد القليل من الذين استفادوا بحق المواطنة الرومانية في عهدهم مثل تيبريوس ونيرفا، كما تطلعنا الدراسة المذكورة.

وقد بلغ عدد النقوش التي وصلتنا وتحمل أسماء ثلاثية وتعود إلى الأهالي 1656 نقشا موزعة كما يأتي :

موريطانيا الطنجية : 12

موريطانيا القيصرية : 120

موريطانيا السطايفية : 96

نوميديا : 859

إفريقية البروقنصلية : 447

بيزاسيوم (المزاق) : 109

طرابلس : 13

إن هذه الإحصائيات تساعدنا على معرفة عدد المرومنين من الأهالي ولو بشكل تقريبي، مما يساعدنا على تقييم مدى نجاح سياسة الرومنة، حيث كلما كان العدد مرتفعا كلما أمكن اعتبار هذه السياسة ناجحة والعكس صحيح. كما أن دراسة التوزيع الجغرافي لهذه النقوش تفيدنا في معرفة أكثر المناطق تأثرا بسياسة الرومنة.

وتبرز الدراسة أن أكبر عدد من المستفيدين من حقوق المواطنة الرومانية يعود إلى عهدي يوليوس قيصر والإمبراطور أغسطس، حيث نجد 1054 مواطن، وهو ما يمثل 65 ٪ من مجموع المرومنين، ويتجلى ذلك من حملهم اسم ولقب (C.Julius)، إضافة إلى ذلك توضح الدراسة أن أكبر عدد من المرومنين يتمركزون في الشمال الشرقي لمنطقة المغرب القديم، فنسبتهم تصل إلى 90 ٪، فيما تقل هذه النسبة حتى تكاد تنعدم في أقصى الولايتين الشرقية، طرابلس، والغربية، موريطانيا الطنجية، أين لا تتجاوز 1 ٪. وفي بقية الولايات نسجل قلة المرومنين، أو على الأقل قلة النقوش المخلدة للأهالي، والتي تحمل أسماء ثلاثية دليل الرومنة في المناطق الجبلية والصحراوية، التي عادة ما كان يلجأ إليها الأهالي الرافضين للوجود الروماني، والتي

اكتفى الرومان بمحاصرتها بواسطة خطوط دفاعية، مثل جبال مقعد وخمير بمقاطعة إفريقية البروقنصلية وجبال الأوراس والنمامشة بمقاطعة نوميديا والونشريس والظهرة بموريطانيا القيصرية والريف بموريطانيا الطنجية. ويوضح الجدول الآتي توزيع المرومنين على المقاطعات للفترة الممتدة بين السنوات الأخيرة لحكم يوليوس قيصر (46 قبل الميلاد) إلى نهاية حكم الإمبراطور هادريانوس (138م) ميلادي).

المقاطعة	C.Julius		Ti.Claudius		T.Flavius		M.Ulpius		P.Aelius		العدد الإجمالي	
	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%	المجموع	%
موريطانيا الطنجية	4	33	3	25	2	16	1	8	2	16	12	1
مورطانيا القيصرية	67	56	23	20	7	6	9	7	14	11	120	8
موريطانيا السطيفية	53	56	2	2	8	8	17	18	16	16	96	7
نوميديا	618	71	48	6	97	11	14	2	82	10	859	50
البروقيصلية	246	55	70	16	84	19	22	5	25	5	447	26
بيزاسيوم	63	58	5	4	2	20	2	2	18	16	109	7
طرابلس	3	23	2	16	5	38	3	23	0	0	13	1
المجموع	1054	65	153	99	224	13	68	4	157	9	1656	

بالغ المؤرخون الغربيون في التكلم عن تسابق عناصر اجتماعية مختلفة للحصول على حقوق المواطنة الرومانية بصفة عامة، ويأتي في المرتبة الأولى، المجندون الأفارقة والأجانب كونهم كانوا سباقين في خدمة مصالح روما، لكن ليس حبا في روما، إنما بحثا عن مكاسب مادية بحتة، ولهذا السبب مثلا شاع استعمال لقب س. إيولي (C.Iulii) في بعض المدن الإفريقية العسكرية كلمباز ومسعد، ويليهم التجار بمختلف جنسياتهم، الأفارقة منهم والأجانب القادمون من إيطاليا بأعداد أقل من

الجنود، ويصنف في المرتبة الثالثة معتقو الإمبراطور، الذين سيلعبون دورا مهما في نشر سياسة الرومنة بطريق غير مباشر عن طريق مختلف النشاطات التي مارسوها في المقاطعات [6].

إن دراسة الباحثة مونيك دوندون باييز، تساعد على فهم وجه من أوجه السياسة الرومانية في المغرب القديم من جهة، ومدى استجابة الأهالي لها من جهة أخرى ونستنتج من هذه الدراسة ما يأتي :

- أن أكبر عدد من النقوش الدالة عن أهالي مرومنين، يعود إلى فترة حكم يوليوس قيصر والإمبراطور أغسطس، وهذا منطقي لسببين اثنين :

أولا : طول مدة حكم الشخصيتين مجتمعتين، خاصة فترة حكم الإمبراطور أغسطس.

ثانيا : التوسع الذي شهدته الدولة الرومانية في عهده.

- أن أكبر عدد من المرومنين يتمركز في أول المقاطعات التي استحوذت عليها روما والتي تتميز بأراضيها السهلية، أو القليلة الارتفاع والمتمثلة في مقاطعتي إفريقية البروقنصلية ونوميديا، مما ساعد على تمركز المستوطنين الرومان الأوائل في المغرب القديم، بفضل توفر إمكانيات زراعية واسعة، وهذا ما سمح للأهالي بالاحتكاك والتأثر بهم وتفانيهم في العمل من أجل الحصول على المواطنة الرومانية، بينما يقل هذا العدد كثيرا في المقاطعات التي سقطت في يد روما في وقت متأخر، من جهة، والتي تتميز بصعوبة تضاريسها من جهة أخرى، فهي إما كثيرة المرتفعات والغابات مثل مقاطعة موريطانيا الطنجية، وإما صحراوية قاسية مثل طرابلس.

لكن نلاحظ عليها ما يلي :

- إن النقوش التي تم إحصاءها واعتمد عليها في هذه الدراسة لا تشمل كل الحقبة الرومانية، رغم طولها، حيث تتوقف في الربع الأول من القرن الثاني، لذلك لا يمكن البناء عليها للحكم على سياسة الرومنة إن فشلت أم نجحت.

- رغم أن التقليد عند الأهالي كان يتمثل في تبني الأهالي اسم ولقب الإمبراطور صاحب نعمتهم، لكن ذلك لم يمنعهم من تبنيهم أسماء وألقاب شخصيات أخرى ذات شأن في الإدارة الرومانية، مثل حاكم المقاطعة أو الوسيط بينهم وبين الإمبراطور، وهذا الوضع لا يسمح بالحصول على إحصائيات دقيقة للمنطقة في هذا المجال.

- كما نتسائل عن عدد الأهالي الذين كانوا قادرين على دفع تكاليف كتابة نقش على قبورهم، خاصة أن ظروف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية كانت قاسية جدا، بسبب سياسة السلب والنهب والاستنزاف التي مارسها المسؤولون الرومان ضدهم، خاصة في الريف، مما يجعلنا نعتقد أن إنجاز النقوش المخلدة للمرومنين انحصرت في أفراد الفئة الإقطاعية، التي تركت لها روما أملاكها مقابل مساعدتها على ترسيخ أقدامها في المنطقة، ولو باستغلال أبناء جلدتها، وكذلك أفراد الفئة الثرية من الأهالي الذين تمركزوا في المدن، ومارسوا مختلف النشاطات المربحة مثل التجارة

- إذا اعتمدنا على الأرقام المسجلة في الدراسة المذكورة أعلاه، واعتبرنا بأنها تعكس الواقع الذي كان سائدا، لا نستطيع إلا أن نحكم على سياسة الرومنة بالفشل الذريع، لأن الأرقام التي اعتمدت عليها الباحثة، هي الوحيدة المتوفرة وليست عينة ممثلة للوضع الذي كان سائدا، خاصة أننا نعرف أن عدد سكان المغرب القديم تجاوز الثلاثة ملايين نسمة بينما عدد النقوش المعتمد عليها لا يتجاوز 1656 فقط وأكثر من ذلك فهي تمتد على فترة زمنية طويلة تقارب الثلاثة قرون (146 ق.م./137 م.)

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، كانت سياسة الرومنة تعني حسب بلينوس الكبير[7]. وهو يمدح عبقرية روما الهادفة إلى التمدن والتحضّر، ونتائجها على العالم بقوله : "إن روما باعتبارها التلميذة وأم أراض المعمورة، اختارتها الآلهة لتجعل السماء أكثر لمعانا، ولتوحّد الإمبراطورية المبعثرة، ولتلطّف العادات، ولتقرّب عن طريق الألسنة المتنافرة والمتوحشة لكثير من الشعوب، ولإعطاء البشر الحق والقدرة ليتفاهموا، ولفرض حكمها عليهم وبعبارة واحدة أن تصبح الموطن الوحيد لكل أمم العالم..."

ومن هنا نفهم أن من وراء سياسة الرومنة، كانت روما تريد أن تتزعّم العالم وتخضعه لسلطانها لاغية بذلك كل مقومات مختلف شعوب العالم المعروفة آنذاك.

وفي نفس الموضوع يضيف بلينوس الصغير[8]: " ما هي الفوائد التي تجنيها المقاطعات بعد أن أصبحت تحت حمايتنا وخضعت لسلطتنا، بعد أن أصبح لدينا أمير ينقل خيرات الأراضي، تارة هنا وتارة هناك حسب ما تقتضيه الأزمنة والاحتياجات، ويطعم أمة بعيدة عن البحر كأنها جزء من الشعب والطبقة العامة بروما... فهو يوحّد الشرق والغرب عن طريق التعاون المتبادل، بما أن الأمم كانت تتبادل منتجاتها، فهذه تتحصل على ما تحتاج إليه من أمم أخرى، بينما تصدر نحوها فائض إنتاجها، ولتدرك الأمم المهزومة أن باحترامها لحاكم واحد أفضل من الاستقلال مع الثورات. وعندما تكون خيرات هذه الشعوب موزعة، كل شعب من هذه الشعوب يتحمل وحده ثقل المشاكل، لكن عندما تتجمع هذه البلدان وتمتزج فيما بينها، لا يشعر أحد بمشاكله الشخصية وتغدو كل الخيرات ملكا للجميع...".

نفهم من تصريح بلينوس الصغير أن المقاطعات جنت فوائد من جرّاء خضوعها لروما حيث اعتبرت شعوبها جزءا من المجتمع الروماني، وأنه لا ينبغي أن تظل خيراتها مستغلة داخل حدودها فحسب، بل يجب عليها أن تتقاسمها مع بقية شعوب العالم وتستفيد منها روما في المقدمة. كما يعتبر هذا المؤرخ أن إخضاع روما لهذه الشعوب أنجع من استقلالها المحفوف بالمخاطر المختلفة كالنزاعات والصراعات الداخلية والتهديدات الخارجية، متجاهلا بذلك أن ما تقوم به روما في الحقيقة هو احتلال صارخ، تهدف من ورائه إبادة الشعوب المناهضة لها، ورومنة الشعوب الراضخة لها بطمس كل مقومات شخصيتها، كما تصر على نهب ثرواتها ومواردها والاستفادة منها بأقل التكاليف. وبعبارة أخرى، فهي تنمي قوتها وترفع من مجدها على حساب تعاسة وفقر سكان الولايات من الأهالي.

زيادة على بلينوس الكبير والصغير، مدح وشجع الكاتب اليوناني أيليوس أرستيد (Aristide Aelius)[9] سياسة روما حيث قال : "كل العالم في احتفال، فالأرض خلعت

لباسها الحديدي القديم، لتتمتع بكل حرية بسعادة الحياة، ما دامت الصراعات بين المدن قد اندثرت، لكن ظل هناك تنافس تطمح من ورائه كل مدينة لتصبح الأجمل والأبهى. ذلك أنه في كل مكان وفي كل مدينة أقيمت مدارس للرياضة، وينابيع وأروقة ومعابد وورشات ومدارس. لقد غمرت المدن بسخائك وهداياك، ولم تكن في يوم من الأيام أسعد مما هي عليه، فالكل رائع وجميل، وكل المعمورة تشبه حديقة شاسعة للنزهة ؛ ربما إن كانوا موجودين ؛ أولئك الذين لم يكونوا داخل حدود إمبراطوريتك ما داموا محرومين من هذا النعيم... إن الأرض هي موطن لجميع البشر حولتها إلى حقيقة حيّة. فالهلينيين والبرابرة يمكنهم الذهاب إلى أي مكان خارج مساكنهم مثلما يخرجون من وطن إلى آخر..."

وللتعليق على ما ذكره أرستيد، يمكن القول أن همّ الإمبراطور تركز حول إسعاد المواطنين الرومان لضمان تعمير مدينة روما واستقرارها، فتوفر لهم كل الظروف الملائمة لتحقيق ذلك، غير مبال بأحوال أهالي الولايات سواء الذين لم يكن أمامهم خيار آخر غير الخضوع وتبني مظاهر غريبة عنهم، وهي مظاهر الحضارة الرومانية، والذين نفروا من هذه المظاهر رحلوا عن أراضيهم، مفضلين الصحراء والأراضي الجرداء والحياة الصعبة والحرمان عن العبودية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو هل دفع تبني سياسة الرومنة الذي كان بدون أدنى شك تدرجيا في المرحلة الأولى، وموازيا للمظاهر المحلية في المرحلة الثانية بالأهالي إلى التخلي نهائيا عن مقوّماتهم والانسلاخ عن شخصيتهم في المرحلة الثالثة والأخيرة ؟

ذلك هو الإشكال الذي سنضعه نصب أعيننا وسنحاول الإجابة عنه في الباب الثالث.

الفصل الأول

سياسة الرومنة عن طريق الجيش

أولا : الجيش البري

لم تكن روما عند بروزها كقوة في شبه جزيرة إيطاليا تملك جيشا نظاميا، إذ كانت تعبئ المواطنين الرومان، الذين تتراوح أعمارهم بين 17 و46 سنة، والقادرين على حمل السلاح والحرب عند الضرورة فقط، دون غيرهم من الشعوب الخاضعة لها. ولأن الحرب كانت تبدأ مع فصل الربيع وتتوقف مع نهاية فصل الصيف، فقد كان الجنود يسرّحون في فصلي الخريف والشتاء ؛ ليتفرغوا للزراعة التي تعد أهم نشاط اقتصادي روماني آنذاك ؛ ولا تحتفظ إلا بعدد قليل منهم[10].

كان الجيش الروماني منذ عصر الملكية حتى منتصف عصر الجمهورية مقصورا على النبلاء والأشراف القادرين على تجهيز أنفسهم بفرس وعتاد وزاد دون الطبقة العامة الفقيرة المغلوبة على أمرها.

وفي هذه الفترة ذاتها، كانت كل قبيلة من القبائل الرومانية البالغ عددها 30 ملزمة بتقديم 100 رجل من المشاة مع قائدهم و10 فرسان، مما يعطينا 3000 جندي من المشاة و300 فارس لكن بعد انهزام الرومان أمام الغاليين في معركة 387 ق.م. ؛ رغم ارتفاع عدد المشاة إلى 8300 جندي و1800 فارس ؛ بدأ عجز الأغنياء في الاستجابة لمطالب السلطة في تجهيز أعداد مرتفعة من الجنود، وخاصة أن هذا

العدد لم يتوقف عن التزايد بسبب التوسعات الاستعمارية، والحروب طويلة المدى التي كانت تخوضها روما. ومن ثم لجأت الدولة إلى تجنيد المواطنين الرومان من العامة في جيوشها مع توفيرها الخيول في المرحلة الأولى، والأسلحة في المرحلة الثانية.

وأمام التزايد المطرد للحروب الرومانية خارج أرضيها واتساع نطاقها وارتفاع تكاليف الجيش، أدخل القائد كايوس ماريوس (Caius Marius) ؛ بعد انتخابه قنصلا في 107 ق.م. ؛ عدة تغييرات على الجيش الروماني تمحورت حول التخلي عن الجيش القائم على المتطوعين وإنشاء جيش محترف، يقضي فيه الجندي مدة تتراوح بين 15 و25 سنة، يتقاضى خلالها مرتبا وتتولى الدولة جميع نفقاته. ومع هذا التطور انخرط في جيش ماريوس كثير من المتطوعين الإيطاليين والأجانب[11].

أما فيما يخص التنظيم العسكري الروماني في بلدان المغرب القديم، يمكن القول أنه عرف تطورا مع مرور الوقت، حيث أن روما لم تعتمد في بداية عهدها في بناء جيشها إلا على المواطنين الرومان، لكنها اضطرت ؛ أمام توسعاتها الكبرى خارج حدود شبه جزيرة إيطاليا التي انطلقت بعد تحطيمها قرطاجة وبلاد الإغريق ؛ إلى توسيع قاعدة التجنيد، فأصبحت تعتمد في تكوين فرقها النظامية (Legiones) أول الأمر على سكان سهل اللاتيوم وكل شبه جزيرة إيطاليا، ثم على سكان أروبا مثل الغاليين ومن آسيا كالفصيلة التدمرية (Numerus Palmyrenorum)، التي استقدمت من سوريا مستخدمة الجمل لغزو الصحراء المغاربية، لما له من قدرة على تحمل الظروف الطبيعية القاسية مثل الحرارة الشديدة والعطش والعواصف الرملية وغيرها [12]. وفي منتصف القرن الثاني الميلادي، وسعت روما دائرة التجنيد لجميع السكان الأصليين لولايات غرب البحر المتوسط بما فيهم الأفارقة. والجدير بالملاحظة في هذا الشأن، هو أنه بعد أن أصبح الجيش الروماني ؛ منذ عهد ماريوس ؛ لا يتكون إلا من المحترفين كما سبق ذكره، أضحى يتكون أساسا من الفرق النظامية كالفرقة الأوغسطية الثالثة ومن الكتائب المساعدة (Cohortes auxiliares) ومن الفصائل (Numeri)[13] والخيالة كما سيأتي تفصيله.

1) الفرقة الأغسطية الثالثة

بعد عملية التوسع في بلدان المغرب القديم، اعتمد الرومان على فرقة عسكرية رئيسية معروفة بالفرقة الأغسطية الثالثة (Legio III Augusta) للتصدي لثورات الأهالي ولضمان الأمن والاستقرار بالمنطقة. كانت كل فرقة ؛ منذ القرن الرابع قبل الميلاد ؛ تتكون من 4200 جندي، وارتفع هذا العدد إلى 6000 مقاتل بعد إصلاحات القائد ماريوس(Marius)[14].

وحتى منتصف القرن الأول قبل الميلادي، كان يقود هذه الفرقة بروقنصل يشرف ويدير شؤون الجيش، أما في عام 37 م. فقد تولى قيادتها قائد عسكري (Legatus Augusti).

وتبعا لذلك كانت الفرقة الأغسطية ؛ منذ تكوينها ؛ مقصورة على المواطنين الرومان دون غيرهم من سكان الولايات، وظلت على هذا النحو حتى بداية القرن الثاني الميلادي، حيث أصبحت تتكون من عناصر تتحدر من مقاطعات الشرق اليوناني وعدد من الأفارقة، يقضون فيها مدة ستة عشر عاما، ثم رفعت هذه المدة إلى عشرين عاما لكن ابتداء من فترة حكم هادريانوس (117/138)(Hadrianusم) انتظم في سلكها سكان الولايات بما في ذلك الأفارقة، الذين فاق عددهم بها عدد الجنود القادمين من الشرق حتى أصبحوا يمثلون حوالي 87 ٪ من عناصرها، كما يوضح ذلك الجدول التالي [15] :

الإمبراطور	إيطاليا	اسبانيا وبلاد الغال	آسيا	إفريقيا
أغسطس / كالغولا	207	43	50	7
هادريانوس/أواخر القرن الثاني	17	34	21	786

كما تفيدنا بعض قوائم الجنود التي وصلتنا عن موطن بعض الجنود، فالقائمة الأولي التي تعود إلى فترة حكم الإمبراطور هادريانوس تتضمن 96 جنديا إفريقيا بعضهم من كيرتا وتبسة [16]. وتحتوي القائمة الثانية التي تتزامن مع القائمة الأولى

على 37 جندي إفريقي بعضهم من تبسة والبعض الآخر من الأوراس [17]، وتشير قائمة ثالثة تعود إلى نفس الفترة دائما ؛ إلى جنود من كيرتا وآخرين من حيدرة وتموقادي [18]. وينبغي معرفة أنه في منتصف القرن الثاني، وبالذات في عهد الإمبراطور أنطونيوس (161/138 م) أصبحت الفرقة الأغسطية الثالثة مكونة أساسا من الأفارقة ،[19]

2) الكتائب المساعدة

كانت ؛ تدعم الفرقة الأوغسطية الثالثة ؛ كتائب مساعدة من المشاة الأفارقة، وأخرى من الفرسان من بينها كتيبة المسولاميين(I Flavia Musulamiorum equitata Cohors)،[20] وكتيبة فلافيا النوميدية(Cohor I Flavia Numidorum equitata)[21] وكتيبة فلافيا النوميدية الثانية (Coh.II Flavia Numidarum equitata)[22] وكتيبة الموريين (Cohors Maurorum). إلى جانب الكتائب المساعدة التي دعمت الفرقة الأغسطية الثالثة، ساهمت ثماني كتائب إفريقية أخرى في المجهود الحربي الروماني في مناطق عديدة خارج الأراضي المغاربية ، تتمثل في :

- الكتيبة الأولى الإفريقية للخيالة (Coh.I Afrorum C.R.equitata)[23]. التي يعود تاريخها إلى ما بين 122 و124 م. وكان ل. برايسنتيوس بايتوس (Attius severus L.Praesentius Paetus) من أبرز قادتها.

- الكتيبة الإفريقية (Coh.Afrorum)، وقد وجدت آثارها في كل من بريطانيا ورومانيا والمجر[24].

- الكتيبة الأولى أولبيا الإفريقية للخيالة (Coh.I Ulpia Afrorum equitata)[25] لقد تمركزت في مدينة نيسي (Nicée) ببثينيا (Bithynia) في عهد الإمبراطورين هادريانوس وأنطونان (161/117)، ويعتقد أنها ساهمت في القضاء على الاضطرابات التي شهدتها مصر في هذه الفترة.

- الكتيبة الثانية أولبيا الإفريقية (Coh.II Ulpia Afrorum)، تشير المصادر المصرية أن أحد قادتها كان هيراكس (Hierax)، وقد نقلت إلى موريطانيا القيصرية في القرن الثاني الميلادي[26].

- الكتيبة الثالثة الفلافية الإفريقية. (Coh.III Flavia Afrorum)[27]، لكن بسبب عدم وضوح النقيشة فإن مصيرها غير واضح.

- الكتيبة المورية والإفريقية (Coh.Maurorum et Afrorum)[28]، لم تحدد النقيشة تاريخها.

- (Uexil(arii) Afric(ae) et Mauret(aniae) Caes(ariensis)[29]، لقد ثبت تواجدها في داسيا (Dacie) في عام 158 م.

- كتيبة الخيالة الإفريقية والمورية (Equites Afri et Mauri)[30]، قادها م. فالريوس ماكسميانوس (M.Valerius Maximianus) بين عامي 170 و175 م.

وكما هو معروف يقصد بالإفارقة (Afri) هنا، كل من القرطاجيين والليبيين والنوميديين، والذين بعد أن كانوا في عهد الاستقلال يكونون جيوش قرطاجة، أصبح أبنائهم جنودا في الجيوش الرومانية. وسواء كان هؤلاء يحاربون إلى جانب قرطاجة أو إلى جانب روما فيما بعد، فقد تميزت مواقفهم تارة بالانصياع والطاعة وتارة بالعصيان والتمرد، ويمكن ذكر ثورة المرتزقة الليبيين ضد قرطاجة، وربما هذا ما يفسر انضمام هؤلاء الأفارقة إلى ماسنيسا خلال مهاجمته للساحل الليبي في عام 150 ق.م. وانضمام حوالي ألفين (2000) إفريقي بقيادة فامياس (Phameas) في عام 148 ق.م. إلى سكيبيو[31].

كان جنود كتائب المشاة والفرسان، التي يتراوح عدد أفرادها بين 480 و960 رجلا يقضون مدة 25 عاما في الخدمة اقتصرت حتى منتصف القرن الأول قبل الميلادي ؛ على أهالي ولايات غرب المتوسط دون الأفارقة، أما بعد هذا التاريخ الذي يتزامن والتحول الذي أحدثه القائد ماريوس في الجيش ؛ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ؛ تغيرت الأوضاع، إذ جند هذا الأخير عناصر من القبائل الجيتولية المتمركزة بالأراضي الداخلية للمغرب القديم في كتائب مساعدة، تختلف فيها مدة خدمتهم باختلاف الظروف[32]. بالإضافة إلى ذلك عرفت سياسة تجنيد الأهالي تطورا جديدا في عهد الأسرة السيفيرية، حيث ألغى سيبتموس سيفروس احتكار

الإيطاليين للفرق البريتورية (Cohortes prétoriennes)، وفتحها أمام الأهالي المرومنين الأكفاء[33]. كما فتح الباب أمام قدماء المحاربين من الأهالي الذين أنهوا خدمتهم العسكرية برتبة ضابط صف أو قائد المائة (Centurio) للانضمام إلى فئة الفرسان، وبالتالي إمكانية تحملهم مسؤوليات مدنية في البلديات والمستعمرات، كأعضاء في مجلس التشريع (Decuriones) وكإداريين (Aediles).[34]

إن الانخراط في الجيش الروماني مهما بالنسبة لروما لأنه يخدم سياسة الرومنة، لأن التنظيم العسكري كان يعني ترسيخ اللغة اللاتينية ،ذلك أن الضباط كانوا يتعاملون مع جنودهم الذين ينحدرون من أصول مختلفة باللغة الوحيدة الرسمية المستعملة وهي اللغة اللاتينية، مما كان يحتم على المجندين الأفارقة وباقي الولايات تعلمها حتى يمكنهم أداء واجبا تهم العسكرية على أكمل وجه.

وإلى جانب الفرقة الأغسطية الثالثة وكتائب المشاة والفرسان التي تعد فرقا دائمة كانت هناك وحدات عسكرية غير دائمة.

3) الوحدات العسكرية غير الدائمة

تحسبا لمختلف الأخطار التي كانت تهدد الوجود الروماني في جميع أراضي الإمبراطورية، والمتمثلة في هجمات الأهالي المتكررة على مراكزها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، قامت السلطة الرومانية في أوقات الطوارئ بتجنيد وحدات عسكرية غير دائمة تعرف باسم :

أ : جنود الخدمة العسكرية (Militiae)، مكونة من الأهالي ومن الرومان، الغرض منها دعم الوحدات العسكرية الدائمة.

ب) أهل التخوم (Limitanei , Foederati)

سخر الرومان منذ عهد إسكندر سيفروس أهالي الولايات بعد قضاء مدة الخدمة العسكرية في حراسة الأراضي الواقعة جنوب خط الليمس الصحراوي، كما سيلي ذكره وقسموهم إلى فئتين :

* حماة الحصون (Castriani)

* حماة المعسكرات (Castellani)

وقد وزعت على هؤلاء جميعا أراضي زراعية مجهزة بالمتطلبات الضرورية قصد تعميرها واستغلالها وقت السلم وحراستها والدفاع عنها وقت الحرب (35).

ومما لا ريب فيه، هو أن مختلف الوحدات العسكرية المكونة من أهالي ولايات الإمبراطورية كانت منظمة على النمط الروماني في تكوينها وتدريبها، مع اختلاف في لباسها المتميز من بلد إلى آخر، وفي أسلحتها حيث احتفظت كل منطقة بما هو مألوف لديها من وسائل هجومية ودفاعية.

وكما هو واضح من خلال الصور الواردة على عمود الإمبراطور ترايانوس (Trajan) كان الجنود الموريون (Mauri) يمتطون الخيل دون سرج وفقا للطريقة الإفريقية آنذاك، ويرتدون عباءة قصيرة مشدودة بمشابك على مستوى الكتفين وحزام عند الخصر وتتلخص أسلحتهم في درع قصير وحربة (الصورة 10).

وقد خضع جميع الجنود في ضوء ذلك إلى جملة من النشاطات، من أجل إعدادهم إعدادا جيدا لمجابهة كل الطوارئ في أحسن الظروف، منها ممارسة الألعاب الرياضية كالعدو والسباحة والفروسية والتدريب على استعمال السلاح، وحراسة الممرات والطرقات والمناطق الإستراتيجية، ذات الأهمية السكانية والاقتصادية المهددة من قبل الأهالي الناقمين على الرومان، نتيجة أوضاعهم المزرية، كما كانوا يقومون أيضا بزراعة الأراضي المتواجدين فيها[36]، ونقل المؤن والإمدادات ومختلف السلع من جهة إلى أخرى، وكانوا يسهرون على شق الطرقات وبناء الجسور ورفع القنوات، وتجهيز المدن بالمرافق الاجتماعية كالحمامات والمدرجات والمدارس المباني العسكرية والعامة واستغلال المناجم والمحاجر وغيرها من الأعمال الهامة، كما تدلنا على ذلك كثرة النقوش التي عثر عليها في مختلف المقاطعات الإفريقية، والتي تشير إلى مساهمة الجنود بشتى فئاتهم في إقامة وتطوير المراكز العمرانية [37]، وهذا يدل على أن الجيش لم يكن مسخرا لأداء

صورة لجنود الماوري كما جاء في عمود الإمبراطور تراجاكوس

مهام عسكرية فقط، كالحروب وإنجاز المشاريع العسكرية كالحصون والقلاع، وإنما وظف كذلك في مجال البناء والتعمير المدني [38]. وقد استغل الجيش في تحقيق مثل هذه الإنجازات لأسباب كثيرة منها، لأنه كان يتوفر على كفاءات بشرية، ويد عاملة مؤهلة، ولأن الجنود كانوا يتقاضون أجورهم حتى أوقات السلم، وقد رأى الأباطرة أنه من الأنجع الاستفادة من هذه الكفاءات البشرية في إنجاز مختلف المشاريع بأقل التكاليف[39] كما اعتبرت السلطة أن إشراك الجنود في تحقيق مشاريع متنوعة يساعدهم في الحفاظ على لياقتهم البدنية بدل الركون إلى الراحة [40] كما أن مختلف المشاريع المنجزة تساعد على نشر طابع الحياة الرومانية، في محاولة من الإدارة استقطاب الأهالي نحوها تدريجيا وفقا لشروط سبق ذكرها. وكانت المهارة والقدرة والمثابرة من الشروط الأساسية التي بفضلها يمكن للجندي البسيط الارتقاء إلى المراتب العليا.

وبالنسبة لعدد أفراد الكتائب المساعدة فقد كان متباينا، حيث بلغ عدد بعضها حوالي ألف مقاتل، ولذلك سميت بالألفية (Milliaria)، بينما بلغ عدد وحدات أخرى خمسمائة مقاتل فسميت الخمسمائنية (Quingenariae). بالإضافة إلى هذا الاختلاف في أعدادها تميزت هذه الكتائب عن بعضها من حيث تخصصها، إذ نجد كتائب لا تضم إلا المشاة فسميت كتائب المشاة (Peditatae)، بينما ضمت أخرى المشاة والفرسان فحملت اسم فرق الخيالة (Equitatae).

إلى جانب هذه الكتائب سجل تواجد فرق من الفرسان (Alae) مكونة من الأفارقة من بينها :

- فرقة (Ala Afrorum Veterana)[41]، وقد جند أفرادها في حوالي عام 53 ميلادي، وبعد قضائهم مدة 25 عاما، تم تسريحهم في 15 أفريل من عام 78 م. في ألمانيا (Germanie).

- فرقة (Ala II Ulpia Afrorum)[42] ، وجدت في توباستيس (Thaubastis) قرب بحيرة عامر بمصر في العصر الإمبراطوري الثاني [43]

ومن باب الحيطة والحذر، عمدت روما إلى عدم إبقاء الوحدات العسكرية المكونة من الأهالي في أوطانها، بل كانت ترسلها إلى مناطق خارجية بعيدة، واستقدام بدلا عنها وحدات مماثلة تفاديا لأي تعاون قد يتم بين الأهالي المجندين في الجيش الروماني مع ذويهم من المدنيين ؛ الذين بعد أن صادرت روما أملاكهم ؛ ظلوا رغم ظروفهم المعيشية المتردية التي أصبحوا عليها ؛ يقاومون الاحتلال بشتى الوسائل والطرق.

وتبعا لمختلف الأعمال والمهام المكلفين بأدائها خدمة لمصالح الرومان، استوجب على روما منح هؤلاء الجنود بعض الحقوق والامتيازات نلخصلها فيما يأتي :

- يتقاضى الجنود مرتبات تبعا لرتبهم، وكانت مرتبات جنود الفرق النظامية أعلى من مرتبات جنود الوحدات المساعدة، وقد تغيرت هذه المرتبات من فترة إلى أخرى فعلى سبيل المثال بلغ مرتب الجندي من الفرق النظامية في عهد قيصر500 دينارويوس[44]، وفي عهد أغسطس تراوح بين 500 و2500 دينارويوس[45]، وفي عهد الإمبراطور تيبريوس (Tiberius) انخفض إلى 75 دينارويوس.

بالإضافة إلى المرتبات، كان الجنود يحصلون عند إنهاء مدة الخدمة العسكرية على مكافأتين ماليتين، تتمثل الأولي في منحة مالية يقدمها عادة الإمبراطور ؛ كما جرت العادة في مختلف المناسبات السعيدة مثل الارتقاء إلى العُرش والانتصار في معارك ؛ وقد كان أن يودع نصف هذه المنحة في خزينة الوحدات العسكرية ليستفيد منها الجندي عند إنهائه الخدمة العسكرية. أما المكافئة الثانية فكانت تقدمها جمعيات حزبية معروفة باسم (Scholae) إلى الجنود، في حالة التنحية عن العمل أو عند الترقية أو النزول إلى مرتبة أدنى، كما كانت تقدم إلى ورثاء الجنود المتوفين [46] على شرط الانخراط في هذه الجمعيات بدفع كل جندي اشتراكا يقدر بمبلغ 72 دينارويوس [47].

لكن أمام الأخطار الكثيرة التي كانت تهدد حياتهم من حروب وأمراض، قلما كان الجنود يعمرون طويلا ليستفيدوا من هذه المنح، ورغم ذلك سهرت روما ألا تضيع حقوق الجندي المتوفى الذي قضى جزءا كبيرا من حياته في خدمتها بمنحها المكافأة إلى ورثته المسجلين في وصيته.

- زيادة على المرتب والمنح المذكورة آنفا، يتحصل كل جندي على قطعة أرض زراعية قريبة من مقر الوحدة العسكرية التي أنهى فيها خدمته، تكون معفاة من ضريبة الملكية، باعتبارها أرضا عسكرية. وقد وجدت مثل هذه الأراضي عبر أرجاء الإمبراطورية، ومنها الأرض الإفريقية كما هو الشأن في مداوروش(Madaure) ومركونة (Verecunda) وبسرياني شمال الصحراء[48]. كما استفاد الجنود من امتيازات مادية ومعنوية جديدة منها، عدم خصم تكاليف الغذاء من الأجور كما كان معمولا به من قبل، بالإضافة إلى حق الزواج الشرعي، وحق الإقامة في أكواخ (Canabae) خارج المراكز العسكرية في غير أوقات العمل، وهذا ما ساعد على بروز قرى كثيرة قرب المراكز العسكرية وعلى الحدود [49]

وقد سعت روما إلى تثبيت الجنود المسرحين من الأهالي بجوار معسكراتهم السابقة، بدل تركهم يعودون إلى مواطنهم أو يلتحقون بقبائلهم التي قد تكون أبعدت، أو أزيحت عن أراضيها ، بغرض مساندة الوحدات العسكرية المتمركزة هناك، تحسبا لقيام ثورات مناهضة لوجودها. وتتلخص هذه التشجيعات والتسهيلات في تقديمها لهم قطعة أرض زراعية، وعددا من رؤوس الماشية وبعض العبيد بالإضافة إلى مساعدة مالية، لشراء الأدوات الخاصة بعمل الأرض، كما كانت تزودهم بالبذور، وتشجعهم على ممارسة التجارة، بإعفاء السلع التي يتاجرون بها من المكوس الجمركية [50].

ولربط هؤلاء الجنود القدماء بروما بصفة لا رجعة فيها، ولضمان تدعيم الجيش بالجنود بصفة مستمرة، جعلت روما قطعة الأرض الممنوحة للجنود المسرحين قابلة للتوريث بشرط انخراط أبنائهم بدورهم في الجندية [51].

ولضمان ولاء الأهالي المجندين واستمرار خدمتهم لها، كانت روما تمنحهم حقوق المواطنة أو الجنسية الرومانية (Civitas Romana) إما عند انخراطهم في الجيش أو عند إنهاء مدة خدمتهم.

حقوق المواطنة الرومانية

تعني حقوق المواطنة الرومانية (Jus civitatis , Civitas) مجموعة من الحقوق يستفيد منها من اعتبر ضمن الشعب الروماني بشكل كلي أو جزئي، ويعتبر فيها الفرد مواطنا رومانيا كاملا (Civis optimo jure)، من يستفيد من الحقوق المدنية (Jus connubii) والحقوق السياسية.

تحتوي الحقوق المدنية، على حق الزواج الشرعي وحق ممارسة التجارة (Jus commercium) وواجب دفع المكوس الجمركية. أما الحقوق السياسية فتشمل حق الانتخاب (Jus suffragii)، والحق في أن ينتخب في مجلس قضاة المدينة (Jus Honorum)، وواجب أداء الخدمة العسكرية، مع حق الاحتجاج (Jus provocationis) ضد القضاة غير النزهاء. وكان الحق الأخير هاما جدا في المقاطعات، لأنها معرضة أكثر من غيرها إلى التجاوزات بسبب بعدها عن المجالس القضائية المركزية.

وقد تكون المواطنة منقوصة (Civis minuto jure)، وتنطبق على العتقاء الذين لا يحق لهم أن ينتخبوا، وعلى الإيطاليين الذين حرموا من حق الانتخاب لأسباب معينة وعلى أهالي الولايات الذين تكون مواقفهم تجاه روما غير واضحة وغير ثابتة.

لقدت كانت حقوق المواطنة الرومانية، مقصورة حتى القرن الرابع قبل الميلادي على سكان مدينة روما وسهل اللاتيوم المنتمين لطبقتي البطارقة ثم العامة، دون بقية سكان شبه جزيرة إيطاليا، الذين لم ينالوا هذا الحق بشكل فردي إلا فيما بين عامي 89 و49 قبل الميلاد. ومع التوسع الذي عرفته، استعملت روما الاستفادة من هذه الحقوق ؛ لما توفره من امتيازات للمستفيد منها ؛ ورقة لكسب تأييد الشعوب التي أخضعتها، لذلك كانت تمنحها لمن تريد، أو بمعنى آخر أصح لكل من يخدمها بشكل أو بآخر. والملاحظ أن الإمبراطور سبتموس سفيروس ؛ باعتباره إفريقي المولد، إذ ولد في مدينة لبدة ؛ وسع دائرة المستفيدين من هذه الحقوق عندما أراد حل مشاكل الإدارة والحكم في الولايات التي كانت حكرا على المواطنين الرومان الأصليين، وعمد إلى رفع قدر الولايات والمقاطعات الرومانية، لكي تصل إلى نفس المكانة المادية والمعنوية التي كانت عليه إيطاليا بحيث :

1) فرض ؛ لأول مرة ؛ وجود قوات من الجيش في إيطاليا وبالقرب من روما مثلما كان عليه الوضع في باقي الولايات الرومانية.

2) ألغى احتكار المواطنين الرومان والإيطاليين تكوين القوات البرايتورية، بحيث لم يكن بإمكان غيرهم الالتحاق بها، وفتحها أمام سكان الولايات الراغبين في ذلك، حتى يكسر سيطرة الرومان والإيطاليين على هذه القوات.

3) منح بعض سكان الولايات الحق الإيطالي، وهو حق يعطي سكان هذه المقاطعات نفس الحقوق والواجبات الاجتماعية والتشريعية التي يتمتع بها الرومان داخل شبه جزيرة إيطاليا، وقد أعطى اهتماما خاصا لولاية إفريقية وصقلية.

4) كسر احتكار الرومان والإيطاليين لعضوية مجلس الشيوخ، وفتحها أمام جميع سكان الإمبراطورية، حتى أن الإيطاليين لم يعودوا يشغلون سوى ثلث المناصب، بينما وزعت النسبة المتبقية بين ولايات إفريقيا وإسبانيا وآسيا الصغرى وألمانيا.

5) حصل الجنود في عهده على زيادة معتبرة في الرواتب بلغت الثلث، كما فتح أبواب الوظائف المدنية أمام العسكريين، بالإضافة إلى تسهيله الترقيات ومنحه امتيازات بعد إنهاء الخدمة العسكرية[52].

6) وفي عهد سبتميوس سفروس تدفق الجنود المسرحون على الوظائف في الولايات وأصبحوا عنصرا هاما في إدارتها، وقد تولى الضباط الصغار الكثير من الوظائف التي كان يشغلها رجال من طبقة الفرسان. وتبعا لهذه التسهيلات والتشجيعات يضيف سيد على الناصري[53]" هكذا أصبح الجيش ممثلا لكل شعوب الإمبراطورية خاصة الفقيرة والكادحة منها، عن طريق فتح التطوع في الجيش أمام الجميع وذلك يتفق وسياسة سيفروس في مناصرة الولايات وتغليبها على روما أو ما يعرف بالإنجليزية "Provincialization" نتيجة إعطائه الطابع القومي الروماني لهذه الولايات البعيدة، التي كان الرومان ينظرون إلى شعوبها نظرة الوضاعة، وأنهم غنم تجز أصوافها لصالح الإمبراطورية فقط."

وقد تغيرت الأمور كلية ابتداء من عام 212، إذ شملت هذه الحقوق كل سكان الإمبراطورية، بعد أن منح الإمبراطور كركلا (Caracalla) حق المواطنة الرومانية لكل سكان المقاطعات الأحرار باستثناء المستسلمين في الحروب (Dediticii). ويفيدنا سيد علي الناصري أن قرار كركلا يعد قمة في سياسة مساواة سكان الولايات بالرومان، ولعله كان يهدف من ورائه إلى :

– مساواة كل شعوب الإمبراطورية وجمعهم تحت لواء القانون الروماني العادل الذي يسوي بينهم في الحقوق والواجبات. وحسب ديون كاسيوس (Dion Cassius)[54] اتخذ كاركلا هذا القرار المعروف بالدستور الأنتونيني (Constitutio Antoniana) لأنه كان تحت ضائقة مالية، ذلك لأن المواطن المتمتع بالجنسية الرومانية كان يدفع ضرائب قدرها 5 ٪ على الضياع وعلى الميراث والتجارة، وبما أن الضرائب تضاعفت في هذا العصر، فهذا يعني أنه بمقتضى هذا القرار، ستجني الإمبراطورية دخلا معتبرا من الضرائب الجديدة [55]. والملاحظ أن محاولة روما إدماج المواطنين الجدد في المجتمع الروماني، ومساواتهم في الحقوق مع الرومان الأصليين لم تنجح، إذ كان إدماجا شكليا وليس فعليا، ما دامت الحقوق التي استفاد منها سكان المقاطعات أقل بكثير من الحقوق التي كان يتمتع بها نظراؤهم في شبه جزيرة إيطاليا.

زيادة على حقوق المواطنة الرومانية، عمدت روما إلى إسكان الأهالي المجندين داخل البلديات والمستعمرات، في بيوت محصنة تسهيلا لعملية إدماجهم في المجتمع الروماني، إدماجا شاملا وكليا تطبيقا لسياسة الرومنة. وتبعا لذلك كانت عملية إدماج الجنود المسرحين من الأهالي في البلديات والمستعمرات، تتم بتولي هؤلاء مناصب عليا، كأعضاء في المجالس التشريعية وكموظفين إداريين يستعملون اللغة اللاتينية، في تعاملهم مع غيرهم بدل اللغة المحلية، ظنا منها أن هذا يؤدي حتما إلى تشبعهم بقيم الحضارة الرومانية وتخليهم على قيمهم الأصلية. وما من شك في أن المواطنين الرومان سواء أكانوا مواطنين بالوراثة أم ممن اكتسبوا حقوق المواطنة بمنحة من إمبراطور أو حاكم، كانوا مميزين مكانة ومنزلة عن سائر السكان [56]

والملاحظ في هذا الصدد دائما، أن الحقوق والامتيازات التي منحتها روما للأهالي المجندين في الولايات، تختلف كثيرا عما يتحصل عليه الجنود الرومان، الذين ينحدرون من أصل إيطالي، ويكمن الفرق مثلا في حق الرومان الأصليين امتلاك السلاح بإذن من الإمبراطور[57]، وكذلك قيادة الوحدات العسكرية الرومانية المختلفة، خلافا للمجندين من الأهالي الذين قلما ارتقوا إلى مراتب عليا في الجيش البري الروماني وتولوا مثل هذه المسؤوليات [58]. وكما هو متوقع لم تكن النظم المطبقة في الجيش البري مختلفة في تلك الطبقة من الجيش البحري كما سيتضح ذلك.

ثانيا : الجيش البحري في بلدان المغرب القديم

يعتبر أسطول مسينوم (Misenum) في جنوب شرق إيطاليا وأسطول رفينة (Ravenna) في شمال غرب إيطاليا، القوة البحرية الرئيسية في شبه جزيرة إيطاليا. وقد كانت تدعمها قوات خارجية متمركزة في موانئ متوسطية كثيرة. وبعد عملية التوسع وقيام الإمبراطورية الرومانية، أصبح للمقاطعات أساطيل منها أسطول سوريا وأسطول الإسكندرية، وأسطول ليبيا الجديد (Classis nova Libyca)[59] المكلف بحراسة الشواطئ الإفريقية. ويبدو أن حراسة سواحل بلدان المغرب لم تكن مقصورة على وحدات الأسطول الإفريقي فحسب، بل كانت تحضر عند الضرورة وحدات أخرى لأساطيل خارجية كوحدات تابعة لأسطولي سوريا (Cohors I Chalcidenorum) أو(Ittaniorum Syrorum) والإسكندرية التي سجل حضورها في موانئ إفريقية كمينائي شرشال وبجاية [60]. وبحكم وجود وحدات أجنبية في مقاطعات جديدة، كانت هذه الأخيرة تخضع مؤقتا لحكامها. وغالبا ما كان الأسطول الروماني (Classis) يظم ثلاث فئات من الرجال :

1) المجذفون (Remiges) في ثلاث مجموعات : واحدة في مقدمة السفينة والثانية في الوسط والثالثة في المؤخرة.

2) البحارة (Nautae)

3) المقاتلون (Milites classis)

ومنذ نهاية الحرب البونية الثانية اعتمدت روما في حشد المجذفين والبحارة على العتقاء والعبيد، أو الحلفاء (Socii navales) أما البحارة المقاتلين، فقد كانوا ينتمون إلى الطبقة العامة الرومانية. وبعد قيام الإمبراطورية الرومانية، تغير الوضع إذ أصبح طاقم الأسطول يتألف من المجذفين والبحارة المقاتلين من أهالي المقاطعات ومن ضمنهم الأفارقة

حددت مدة الخدمة العسكرية في جيش البحرية، في أوائل عهد الإمبراطورية بستة وعشرين عاما[61]، وارتفعت في نهاية القرن الثاني الميلادي إلى 28 عاما [62]. وكما كان الحال في الوحدات العسكرية البرية، كان الإمبراطور هو القائد الأعلى للأساطيل الرومانية، ويليه قائد من طبقة الفرسان (Subpraefectus)، وقد استطاع بعض أهالي الإمبراطورية كالأفارقة من الارتقاء إلى هذه المرتبة. وقد كان على رأس كل سفينة حربية قائد أعلى (Trierarchus)، يشرف على تنظيمها وسيرها، وإلى جانبه قائد آخر يقود مائة مقاتل (Centuria) يعرفون باسم (Milites classici) أو (Vexillationes). وفيما يبدو التحق بالجيش البحري كذلك جنود مسرحون[63]، مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن هؤلاء انخرطوا في الجيش الروماني بصنفيه البري والبحري. وأمام صمت المصادر، نتساءل عن مهام هؤلاء بعد بلوغهم سنا متقدمة في السفن الحربية، خاصة وأن العمل فيها شاق ويستدعي القوة البدنية الكافية. وعموما بالرغم من أهمية الأسطول الروماني، أعتبر العمل على ظهر السفن الحربية أحط أنواع الخدمة العسكرية من ناحية المعاملة ونظرة المجتمع له، وكذلك من حيث الرواتب التي تعد أقل من مثيلاتها في الجيش البري كما كانت فرص الترقية فيه قليلة [64].

ونعتقد أنه على غرار الجيش البري، انخرط الأهالي من ولايات الإمبراطورية في الجيش البحري، من أجل الحصول على بعض الحقوق منها :

1) حق عقد قران رسمي (Convabium) بالنسبة لغير المتزوجين.

2) الاعتراف بشرعية الزواج إذا كان المنخرط متزوجا.

3) الحصول على حقوق المواطنة الرومانية له ولأبنائه، لكن بشروط تشبه إلى حد كبير الشروط المفروضة على الجندي المنخرط في الجيش البري، كما سبق ذكره.

4) الحصول على راتب.

بعد عرضنا لوضعية المجندين من الأهالي في الجيوش البرية والبحرية الرومانية، يمكن القول أنه إذا كان انخراط الأهالي في الجيوش الرومانية في بداية الاحتلال قهرا، فإنه كان طواعية في عهد الإمبراطورية.

والملاحظ أنه لم يكن تجنيد أهالي الولايات في الجيش الروماني دائما لصالح روما لأن بعض هؤلاء بعد أن تمرسوا على أساليب الحرب النظامية الرومانية، فروا والتحقوا بأوطانهم مثل تاكفرناس الذي بعد أن جند قهرا، فر من إسبانيا والتحق بنوميديا، واستغل ما تعلمه ضد أعدائه الرومان. وما وقع مع تاكفرناس تكرر في القرن الرابع الميلادي مع جلدون (Gildon) الموريطاني. وفي الواقع هذان المثالان يدلان على أن مساعي روما الرامية إلى رومنة الأهالي عن طريق التجنيد، رغم طول مدة الخدمة العسكرية، ورغم الإغراءات العديدة والمشجعة لهم، لم تفلح ، كما يتأكد ذلك من استمرار الثورات، وحركات التمرد التي لم تكن تتوقف إلا لتنفجر من جديد مثل ثورات سنة 227 الميلادي في منطقة سطيف ثم ثورة البافاريين سنة 258 بموريطانيا[65] وغيرها. وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أنه بعد تشجيع وإغراء روما أهالي مقاطعات الإمبراطورية على الاندماج والانصهار في الحضارة الرومانية، عن طريق الانخراط في الجيش البري أو البحري، كما أسلفنا الذكر، وباعتمادها على وسائل أخرى مختلفة، ندرك كيف عكفت هذه الأخيرة على تطبيق سياسة الرومنة عن طريق مراقبة الأراضي ومراقبة الأشخاص.

ثالثا : مراقبة الأراضي والأشخاص

إلى جانب التجنيد، أسست روما بلديات ومستعمرات، بهدف فرض رقابة سياسية واقتصادية على الأراضي وعلى الأهالي أينما وجدوا، خاصة أولئك الذين تم تشتيتهم لإزالة واعز الوطنية المتأصلة فيهم، والذي كان يدفعهم دوما إلى التمرد والثورة ضد الرومان من أجل الاستقلال.

أ) مراقبة الأراضي

وسعت روما المساحات الزراعية في بلدان المغرب القديم، بتحويل الأراضي المخصصة للرعي والانتجاع التي كانت تابعة للبدو الرحل إلى أراضي زراعية ؛ وكانت طيلة فترة الممالك محددة بطريقة محلية ؛ ولإعطائها طابعا رومانيا، عمدت روما إلى مسحها وتقسيمها إلى وحدات تفوق مساحتها الخمسين هكتارا، كما لجأت إلى وضع حواجز ونصب لتحديد مساحتها تحديدا واضحا ودقيقا. ومن بين الأراضي الإفريقية التي قامت السلطة الرومانية بتحديدها في عام 30 م[66]، يمكن ذكر أراضي شط الفجاج وقابس (Tacape) جنوب تونس، تلتها أراضي أخرى كسوق أهراس وتبسة، وقد حددت أراضي طرابلس أيضا سنة 87 م. كما يوضحه لنا ذلك الجدول رقم 11.[67]

الجدول رقم 11

التاريخ	القبائل التي حددت أراضيها	بأمر من	المصدر والمرجع
81/80	سوبوريور ونكيف	القائد توليوس بومبونيانوس كابتو	أراضي أخذت من الأملاك العامة لكيرتا، A.E., 1957, 175, B.A.A., 1968, III , P, 293
81/80	سويانسس وفوفركانسس	القائد	Termini positi inter Vofricenses et suppenses , A.E., 1942/43, 35
87	مودوكيوفي وزموكي	قائد	Terminus positi conventioneutra-rumque nationum , I.R.T., 854 (Epigraphica , 1939, I, P, 111
Trajan	نيبجيني	؟	Terminus inter Tacapitanos et Nybgenios , ILT ., 69/70
103/100 105/104 116	موسلامس	قائد	Inter Madaurenses , Tisibenses , Augustum , Valeriam Atticillam
117/116	سوبوريور	قائد	Fines adsignati , D, 9380-9381, Cagnat (R) , Mél. Boissier , PP, 102/99
128	زميسي	بروكراتور موريطانيا القيصرية	Termini positi inter Igilgilitanos et zimizes , C.I.L., VIII , 8369
137	نوميديا	//	Fines asdignati, C.I.L., VIII , 8813-8814
138	موزلامس	؟	S.C. de nundinis saltus Beguensis , C.I.L., VIII , 23246, 11451

وفي هذا السياق يمكن ذكر مناطق أخرى تم رسم حدودها، تقع في كل من مداوروش[68] وعين كملال [69] وخنقة النصر [70] على يد أكليوس سترابو [71] (L.Acilius Strabo Clodius Nummus) كما يوضح النص الآتي : [72]

SAVC TORIT
..PNE VA ET RAIA...
..ES , VGGER DACIC
.OSVII MPX IIII
..CILIVS STRABO CLO
..V SNV MMV S LEGA..

PROPRIN.ER
MVSVLET
LENS. BV
| E | X auctorit(Ate)/ imp(eratoris) nerunae Traia[ni/ C A]E S (ARIS) / [A] ug(usti))
Ger(manici) Dacic (i) / [c] (o) I (ulis)
VI imp(eratoris) XIIII / L(ucius) A] cilius
STRABO CLO [di] Nummus leg (atus)
A [ug(usti) / propr(aetore) in [T] eR /
Musul (OMIOS ? ET / BU [...?] Lens (es)

ولتسوية وضعية هذه الأراضي من الناحية القانونية، كلفت روما أصحابها بتقديم التزامات دينية تبرز ولاءها للعشيرة (Gens) التي كانت هي الأخرى تقدس القضاة والإمبراطور. بالإضافة إلى ذلك كانت تنصب مسؤولا يشرف على إدارة هذه الأراضي ويساهم في تحويلها تدريجيا إلى بلدية.

وإزاء هذا التنظيم الخاص بأرض الولايات، والتغييرات التي تنجم عنها في حياتهم اليومية، تبنى الأهالي مواقف متباينة بحيث رفض بعضهم هذا التنظيم الجديد الذي لم يتمكنوا من التأقلم معه، وفضلوا العيش في الحرية بعيدا عن السلطة الرومانية والاستعباد بالهجرة إلى الأراضي الصحراوية، رغم قسوة طبيعتها وشظف العيش بها بينما احتفظ البعض الآخر ممن لم تتعرض أراضيهم إلى التحديد والمصادرة بحريتهم النسبية، إذ سهرت روما على إلزامهم بدفع الضرائب، وحرست على إنشاء بجانبهم بلديات (Municipii)، الهدف من ورائها ربطهم بالأرض ضمانا لاستقرارهم ثم الشروع في رومنتهم وتحويل أراضيهم إلى بلديات كما سيأتي.

ب) مراقبة الأشخاص

عملت السلطة الرومانية على مراقبة قبائل المغرب القديم إداريا، بإلزامهم بدفع المستلزمات المالية المتمثلة في الضرائب المفروضة عليهم، وفي تقديم أبنائهم للتجنيد كلما أمرت روما بذلك بوصفهم قبائل مهزومة، وذلك بتنصيبها مسؤولا

عليهم يحمل اسم (Praefecti gentis) ثبت وجوده في قالمة وفي موريطانيا القيصرية [73].

وخلال القرون الأولى من عصر الإمبراطورية، كان هذا المسؤول روماني الأصل، برتبة ضابط أو قائد كتيبة، لكن في أواخر عصر الإمبراطورية، أصبحت هذه المسؤولية من نصيب بعض الأهالي الذين أخذوا يتأقلمون تدريجيا مع الحضارة الرومانية، كما سجل أثر ذلك في مدينة خميسة (Thubursicu) جنوب غرب الأوراس، وعند قبائل الباكات (Baquates). ولم تكن مهمة هذا المسؤول عسكرية كما يبدو، بل إدارية تتمثل في تعمير المناطق وتسير شؤون القبيلة وابتزاز ثرواتها خدمة لمصالح روما. وكما هو بديهي لم يخضع الرومان شعوب المغرب إلى هذه التغييرات بين عشية وضحاها، وإنما مثلما جاء احتلالهم لمختلف المناطق على مراحل، جاء إلغاء النظم المحلية وتعويضها بنظم رومانية بطريقة مرنة ومرحلية كذلك [74].

لكن الملاحظ أنه رغم أن مهمة هذا المسؤول إدارية، تتمثل في تطبيق القوانين الرومانية على الأهالي في حالة السلم، فإنه في حالة تمرد هؤلاء يتصدى لهم بكل الوسائل المتوفرة لديه، دون اللجوء إلى الإدارة الإقليمية أو المركزية إلا في حالة الضرورة القصوى. ومن هنا ندرك أنه رغم أن مهمة المسؤول الرئيسية تبدو مدنية، إلا أنها ؛ في حالة تدهور الوضع الأمني وتهديد الاستقرار ؛ تتحول إلى مهمة عسكرية. وباعتباره قائدا أو ضابطا ملما بشؤون الحرب، وبدون أدنى شك كانت ترافقه دائما وحدات عسكرية قادرة على التدخل وحسم المواقف، كلما اقتضى الأمر ذلك. وفي هذا الصدد يمكن القول أنه إذا كان الجيش قد مهد الطريق لروما لتقيم إدارة خاصة بها، فإن هذه الإدارة هي الأخرى مهدت الطريق لنشر حضارة المحتل في المغرب في أول الأمر، بموازاة الحضارة الإفريقية، وبعد ذلك على حسابها بعد إلغائها وطمسها.

وكما هو جلي، لم تكن عملية التجنيد ومراقبة الأراضي والأشخاص بالنسبة لروما كافية وكفيلة بإنجاح سياسة الرومنة، لذلك اعتمدت على وسائل أخرى كثيرة

ومختلفة، يمكن حصرها في فتح الطرقات وحماية التخوم وإنشاء المقاطعات مع كل ما تحتويه من قرى ومدن ذات طابع روماني ومن بلديات ومستعمرات كما سيأتي ذكره

رابعا : الطرقـات

الطرقات نوعان برية وبحرية، والغرض من فتحها هو ربط مختلف مناطق مقاطعات الإمبراطورية سياسيا واقتصاديا وحضاريا، كون عن طريقها يتنقل الأفراد والسلع وكذلك الأفكار والعادات والتقاليد.

ونظرا لأهميتها، اجتهد السكان الأصليون في فتح الكثير من الطرقات وقد اعتمد على بعضها الفنيقيون ثم القرطاجيين بعد تطويرها وتوسيعها. وفيما بعد أولى الرومان هذا القطاع اهتماما بالغا، حيث ربطوا كل المناطق الشمالية بالمناطق الجنوبية والشرقية بالغربية، وبعبارة أخرى ربطوا المناطق الساحلية بالمناطق الداخلية، كالهضاب العليا وكذا المناطق الصحراوية، لتنسيق العمليات العسكرية ونقل الجيوش وإيصال الإمدادات ومراقبة مصادر المياه، كالأودية والآبار والينابيع، ذات الأهمية القصوى في المناطق الداخلية، التي تتميز بمناخها شبه الجاف، والتي يلجأ إليها الأهالي والمعمرون للتموّن بالمياه، ومنع الأهالي من الاستيلاء عليها عند قيام الثورات. كما تساعد الطرقات على تفريق القبائل وتشتيتها في نطاق جغرافي واسع، مما يصعب عليها مهمة التحالف من جديد وبالتالي إزالة خطرها، كما تسهل عملية مراقبتها والقضاء على محاولتها التمردية بسهولة خاصة القبائل الكبيرة التي كانت تشكل خطرا حقيقيا ودائما مثل قبائل المسولاميين والبافاريين. بالإضافة إلى ذلك تسهل الطرقات مهمة جباة الضرائب بحيث تسمح لهم بالتنقل في ظروف حسنة لأداء مهمتهم. دون أن ننسى أن للطرقات أهمية في نشر العادات والتقاليد وبصفة عامة الثقافة الرومانية، حيث على جوانبها وفي مفترقاتها كانت تقام الأسواق التي يتعامل فيها الأهالي مع الرومان، مما يساعد على تسرب مظاهر الحياة الرومانية في أوساط الأهالي.

وبغية تحقيق جميع الأهداف المسطرة، كما سبق ذكره، اعتمدت روما في بداية الأمر على المسالك القديمة الهامة، لكن وأمام توسع مناطق احتلالها وتزايد احتياجاتها فتحت طرقات جديدة تتماشى ومصالحها. وتبعا لذلك يمكن تصنيف الطرقات الرومانية إلى ثلاثة أنواع :

* طرقات عامة تمر بالأراضي التابعة للدولة وهي متعددة الوظائف، إذ تعد في نفس الوقت طرقات عسكرية وتجارية وإدارية وسياسية.

* طرقات عسكرية وهي عادة ضيقة، توجد في المناطق الإستراتيجية الداخلية الجبلية منها والصحراوية.

* طرقات تجارية تربط الأراضي ذات الأهمية الاقتصادية بالأسواق ومراكز التصدير والاستيراد كالموانئ. مع الإشارة إلى أن الكثير من الطرقات العسكرية تتحول بعد استتباب الأمن إلى طرق تجارية مثل طريق سطيف جيجل وسطيف بجاية. (للإطلاع على نماذج من هذه الطرقات راجع الخريطة رقم 10)

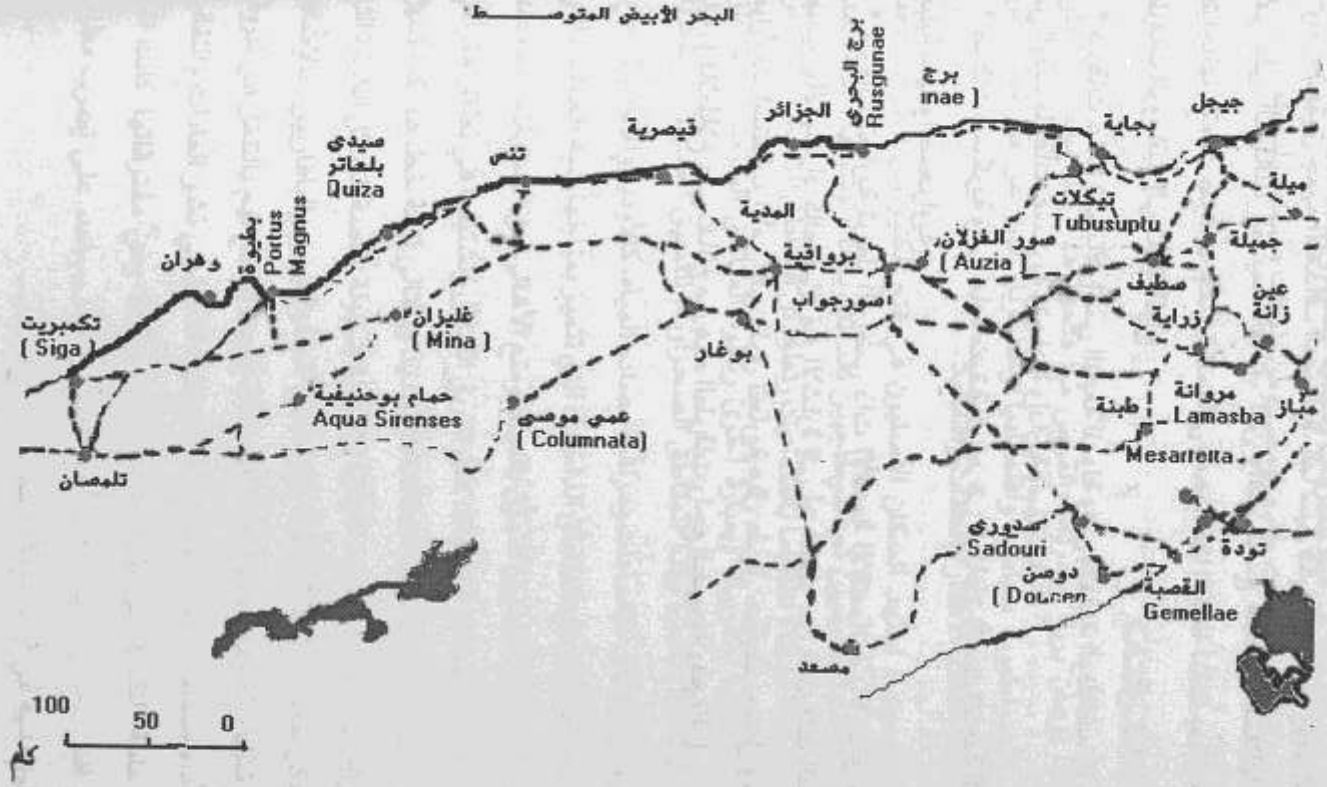

خريطة الطرقات الرومانية بموريطانيا القيصرية

الجدول رقم 12

الطريق	تاريخ فتحه	المرجع
حيدرة - قابس - قفصة (Capsa)	عهد أغسطس	Benabou (M) , Romanisation P, 62
قابس- تبسة	عهد الإمبراطور تيبريوس (37/14 م.)	Rachet (M) , Rome , P, 172
قرطاجة - عنابة	//	//
تبسة - قابس - لبدة	عهد الإمبراطور فسباسيانوس (79/64 م.)	C.I.L . , VII , 1
تبسة - تموقادي	عام 100 م.	Rachet (M) , op cit , P, 170
قفصة ـــ تبسة	عهد الإمبراطور تراجان (117/98 م.)	Benabou (M) , op cit , P, 117
هنشير بسرياني (Ad Majores) – تادرت (Ad Media) – تهودة	//	Rachet (M) , op cit , P, 172
قرطاجة ـــ تبسة	123م.	C.I.L., VIII , 2092
سور جواب (Rapidum)-البرواقية (Tanaramusa) – سور الغزلان (Auzia)	124 م.	Cagnat (R) , B.A.C., 1908 , P, CCXLVII
سطيف - بجاية (Saldae)	//	C.I.L., VIII, 10355 ; 10365
سطيف - جميلة (Cuicul)	//	C.I.L., VIII, 22404 ; 22406
تموقادي - خنشلة (Mascula)	عهد الإمبراطور كومودوس (192/180)	Benabou (M) , op cit , P, 117
قابس-غدامس (Cydamus) – سبراطة - لبدة	عهد الإمبراطور سبتموس سيفروس (211/193)	Ibid , P, 171
لبدة - الفزان	//	Ibid
قفصة - توزر (Tusuros)- نفطة (Nepta)	عهد الإمبراطور كركالا	Ibid , P, 186
لمباز - بسكرة	215/214	Ibid

خامسا : التخـوم

كلما استحوذ الرومان على أراض جديدة في الولايات بصفة عامة، سارعوا إلى حمايتها وتحصينها بإقامتهم حدودا دفاعية (Limes) على أحد الأشكال الآتية :

أولا : خندق (Fossatum) تتخلله أبراج للمراقبة، أو حصون دفاعية تختلف قوتها من منطقة إلى أخرى، حسب شدة التوتر الذي تعرفه كل منطقة. وإذا كانت الأبراج مباني صغيرة دائرية الشكل، فإن الحصون (Castelli) تكون عادة مربعة، طول كل ضلع من أضلاعها 86,80 م. ويوجد بكل ركن من أركانها الأربع برج مربع الشكل يبلغ ارتفاعه ما بين 3,75 و4 أمتار.

ثانيا : مراكز عسكرية محصنة أو مستعمرات عسكرية.

ثالثا : شبكة من الطرقات تربط كل منطقة وصلوا إليها بمراكزهم المتواجدة في الشمال.

لم تكن كل التخوم المنتشرة عبر أراضي بلدان المغرب ذات تكون موحد، بل اختلفت حسب طبيعة المنطقة والخطر المحتمل، فقد كانت أحيانا عبارة عن جدار، يختلف طوله وارتفاعه وسمكه باختلاف الحالة الأمنية التي تتميز بها تلك المنطقة، وقد تكون أحيانا أخرى مظاهر تضاريسية كالجبال والأودية والشطوط وغيرها.

وعلى نحو الطرقات، عرفت التخوم تطورا حيث بعد ضمهم الأراضي الساحلية، أقام الرومان التخم الساحلي، وعند تغلغلهم في الأراضي الداخلية والهضاب العليا، حددوا معالم التخم الأوسط، أما عند وصولهم إلى مشارف الصحراء، فقد دشنوا التخم الصحراوي.

لم تنحصر التحصينات الرومانية على الطرقات والمظاهر الطبيعية فحسب، وإنما شملت كذلك مناطق هامة أخرى كالمدن والمزارع والمحاجر، وجميع الممتلكات العامة والخاصة، ومن بين المدن الإفريقية التي عرفت التحصينات، يمكن ذكر مدينة خنشلة[75] ومدينة سوق أهراس التي كانت محمية بتسعة مراكز عسكرية[76].

والملاحظ أنه، إذا كان خندق سكيبيو الذي أقيم في عام 146 ق.م. بين نوميديا وولاية إفريقية أول خندق أنشئ في المغرب القديم، فإن خندق جملاننسس (Limes Gemellensis) المعروف اليوم بخندق ساقية بنت الخرس، الواقع جنوب بسكرة يعد من أهم الخنادق، نظرا لطوله الذي يبلغ 240 كلم، ولأهمية المواقع التي يمر بها كدوسن والقصبة وتهودة، وهي بمثابة واحات تشكل مراكز ارتكاز لحزام أمني يقع شمال شط ملغيغ، وفي المناطق الصحراوية الواقعة جنوبه. (للتوضيح راجع الجدول الخاص بالتخوم رقم13)

الجدول رقم 13

خط الليمس	تاريخ تأسيسه	المصدر أو المرجع
ليمس طبونانسيس، شرق الحضنة يمر بمدينة طبنة سدوري والقنطرة	منتصف القرن الأول الميلادي	Benabou (M) , op cit , P, 71
ليمس جملانسيس جنوب بسكرة ليمس بادنسيس عند وادي العرب	//	//
خط لبدة قابس	القرن الأول الميلادي	//
ليمس ثاموقادي (الشطوط والأوراس)	فترة حكم تراجانوس	C.I.L., VIII, 2478
ليمس قفصة نيغرين أد مايوريس (بالسرياني) تبسة	//	Benabou (M) , op cit , P, 117 Gascou (J) , op cit , P, 39
ليمس طرابلس	القرن الثاني الميلادي	//
ليمس بازنسيس (شمال شط الغرسة) يمر بمدينة نيغرين بالسرياني متلاوي جنوب قفصة	القرن الثاني الميلادي	Benabou (M) , loc cit

نلاحظ أنه بحكم انتماء جنود الفيالق والفرق بدءا من القرن الثاني للميلاد، إلى شعوب مختلفة أخضعتها روما لسلطانها، أن هؤلاء لم ينغمسوا في بوتقة الرومنة إلا عن طريق الخدمة العسكرية، بعد قضائهم لمدة زمنية طويلة قدرت بعشرين سنة بالنسبة لجنود الفيالق، وست عشرة سنة بالنسبة للفرق البرايتورية وخمسة وعشرين سنة بالنسبة للفيالق المساعدة، ولا يتحصل على الجنسية الرومانية المؤكدة بشهادة منقوشة على صفيحة من البرونز إلا عند تخرجه.

إن مهام الجنود، كانت مزدوجة عسكرية ومدينة، فأما الأولى فتتمثل في إقامة المنشآت العسكرية المختلفة كالمراكز والحصون بالإضافة إلى التصدي لكل ما يهدد المصالح الرومانية. أما المهام المدنية فتشمل فتح الطرقات وبناء الجسور ورفع قنوات المياه وغيرها من الإنجازات العمرانية الأخرى. كما أثبتت الأدلة المادية والأدبية، امتلاك بعض الفرق والفيالق لمؤسسات اقتصادية مثل المحاجر والمناجم والغابات، وكذلك بعض المعامل، مثل معامل للآجر والقرميد، مما يؤكد أنها كانت تستغلها سواء لتلبية احتياجاتها المباشرة أو لصالح قطاعات أخرى.

سادسا : آثار سياسة الرومنة عن طريق التجنيد على أهالي المقاطعات وعلى روما

1) آثار سياسة الرومنة على الأهالي

تحصل بعض أهالي الولايات الإفريقية على حقوق المواطنة الرومانية، عن طريق التجنيد الإجباري أو الاختياري، وظل البعض الآخر يقاوم ويعرقل الزحف الروماني، معبرا بطريقته على غضبه ورفضه للاحتلال دون كلل أو ملل، حتى القرن الخامس الميلادي، حين غزا الوندال ولايات إفريقيا الرومانية، وقد استغل سكانها هجوم الجرمان ليتعاونوا معهم لطرد الرومان، ولم يعتبروهم كغزاة جدد، بل محررين لهم من الرومان الذين بلغ كرههم لهم إلى حد التقزز عند ذكر اسمهم. ورغم أنهم في اعتقادنا يعلمون أن الوندال لم يحضروا لإنقاذهم من الظلم والإستغلال، لكن يكفي

أنهم جاءوا لنهب ثروات الرومان التي جمعوها على عاتق الأهالي، ويكفي أنهم سينكلون بالرومان شر تنكيل، وهذا في حد ذاته أهون في نظرنهم من بطش الرومان عملا بمقولة "عدو العدو صديق".

إن الأفارقة الذين تم إجبارهم على الانخراط في الجيش، ورغم نقلهم إلى أراض بعيدة عن أوطانهم، ورغم جهلهم للغة الغزاة الرومان، وجهلهم لحجم الأخطار والأهوال التي ستعترض طريقهم وتهددهم، فرّ بعضهم أمثال تاكفرناس، كما سبق ذكره، بعد أن اكتسب الخبرة العسكرية الرومانية، المتمثلة في الحرب النظامية والنفسية والدبلوماسية التي أضافها إلى رصيده الحربي القائم على حرب العصابات، ليحارب أعداءه بأساليبهم تارة والأسلوب الإفريقي تارة أخرى. وفي الحقيقة مثل هذه المرونة لم يكن تاكفرناس أول من طبقها، فقد سبقه إلى ذلك يوغرطة الذي تدرب على أساليب الحرب الرومانية وتفنن فيها في نوماس (Numance) بإسبانيا، وطبقها فور دخوله نوميديا ضد المحتلين، كما سار على خطاهما فيما بعد جيلدون.

- الاستغلال الفاحش الذي عانى منه الأهالي المجندون، كون مهامهم كانت مزدوجة: عسكرية بمعنى خوض غمار الحروب دفاعا عن روما ومكاسبها في مختلف الأماكن الساخنة، وكذلك تحقيق المنجزات العسكرية كبناء المراكز والحصون والمعسكرات وغيرها، ومدنية كفتح الطرقات ورفع الجسور وغيرها من المنشآت العمرانية الأخرى، بالإضافة إلى أعمال أخرى لا تقل أهمية كالعمل في المحاجر ومصانع القرميد والغابات والمناجم.

- سواء أكان التجنيد إجباريا أو اختياريا، لا شك أن روما بعد هيكلة جيوشها، اختارت العناصر المواتية لكل تخصص، وحددت المهام المنوطة بها مع المدة الزمنية التي يتطلبها. والملاحظ أنه مهما كانت الرتبة التي يتحصل عليها المجندون، والتي تختلف باختلاف مهامهم العسكرية، لم يستفد المجندون الأفارقة من حقوق المواطنة الرومانية إلا بعد قضاء المدة المحددة كاملة، وبعد أداء جميع الواجبات كما ينبغي، وبعبارة أخرى بعد تخرجهم، وهذا في حد ذاته يدل على أن

انخراط الأهالي في الجيش الروماني كان قائما على جملة من الواجبات القاسية كما أسلفنا، مقابل حقوق مجحفة أهمها حقوق المواطنة الرومانية التي أقل ما يقال عنها هي أنها حقوق مزعومة ومشروطة.

- منح حقوق المواطنة الرومانية عند إنهاء المجندين مدة الخدمة العسكرية، يطرح سؤالا هاما، يتمثل في ما إذا سمحت، الحروب التي خاضتها روما منذ احتلالها المقاطعات الإفريقية، للمجندين من قضاء مدة الخدمة المفروضة عليهم كاملة ؟ وللإجابة على هذا السؤال يكفي الإشارة إلى أن حجم الخسائر البشرية في صفوف الجيش الروماني كانت مرتفعة جدا، ولها علاقة وثيقة باتساع مساحة الأراضي الساحلية والداخلية العامرة التي استحوذت عليها روما، سواء في إفريقية أو خارجها من جهة، وبضراوة المقاومة التي واجهها الجنود الرومان، والتي كما هو معروف استدعى لإخمادها في بعض الحالات إحضار قوات من خارج المقاطعات الإفريقية من جهة أخرى.

- بما أن التجنيد بنوعيه الإجباري والاختياري في الجيشين البري والبحري، كان أول لبنة وضعتها روما للشروع في سياسة الرومنة قبل شروعها في إقامة السلام الروماني، وقبل إنشاء المدن الرومانية في المقاطعات، فإنه يمكن الاعتقاد أنه عن طريقه، استفاد الأهالي المجندون بحقوق المواطنة الرومانية قبل تعميمها في عام 212 م.

- عدم استفادة ورثة المجندين من الجزء المتبقي من منحة الاشتراك في الجيش، التي سبق ذكرها، ومن ملكية الأرض، إلا بشرط انخراطهم في سلك الجندية، يعني قسوة القوانين وإجحافها في حق الأهالي، وتهديد روما الورثة بقطع مصدر رزقهم إذا ما رفضوا الانخراط في الجيش، لتدعيم جيشها بقوات شابة.

2) آثار سياسة الرومنة عن طريق التجنيد على روما

- لقد استطاعت روما تعويض الجنود الرومان بالأهالي بعد تسريح هؤلاء لمهام أسهل وأقل خطورة على حياتهم وأكثر ربحا من العمل في الجيش من جهة، وبتسخير جهود أولئك في خدمة روما، تكون قد ربطتهم بها ارتباطا سياسيا وعسكريا، تترتب

عنه لا محال ارتباطات أخرى لا تقل أهمية، حضارية بصفة عامة ودينية وفكرية بصفة خاصة من جهة أخرى.

- عن طريق التجنيد، تمكنت روما من استغلال القدرات العسكرية لبعض أهالي المقاطعات، أمثال سبتموس سيفروس (Septimus Severus) الليبي، وديوكلثيانوس الذين وصلا إلى أعلى المراتب في الجيش الروماني، فدعّما قوتهما العسكرية، ورعيا مصالحهما، بفضل حنكتهما العسكرية، وقدرتهما على قيادة الجيوش، وليس كأهالي مرومنين بل كمواطنين رومان كاملي الحقوق، كالحكام الرومان الذين سبقوهما أو أتوا بعدهما. فعندما منح سبتموس سيفروس حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار في المقاطعات، قصد تعميم هذا الحق، فإنه ألغى أعباء الضرائب على المواطنين الرومان الأصليين، وحمّلها للأهالي الذين أصبحوا مواطنين رومان، ومن ثم فإنه أضرّ بهم، والأمّر من ذلك هو أن الأهالي أخذوا يتنافسون للظفر بهذا الحق الذي كان في الواقع مزيفا، حيث لم يعامل بموجبه المواطنون الرومان القدماء والجدد على قدم المساواة، ولم يحظوا بنفس الحقوق عند قيامهم بنفس الواجبات. وإذا ما عدنا إلى الاستفادة من حقوق المواطنة الرومانية بعد إنهاء الخدمة العسكرية، يمكن القول أن فكرة منح هذا الحق للأهالي لم تكن نزيهة، الغاية منها تسوية كل سكان الإمبراطورية أمام القانون في الحقوق والواجبات، ما دام كما سبق ذكره لا يتمتع به صاحبه إلا عند إنهاء واجبه ؛ وهذه كانت مهمة صعبة بسبب ارتفاع نسبة الوفايات في أوساط الجنود بسبب قسوة الحروب والظروف الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها؛ ولا يستفيد ورثته بتركته إلا وفق شروط.

- رغم رومنة نسبة غير محددة من أهالي المقاطعات عن طريق التجنيد، لم تتمكن روما من تأمين السلام الحقيقي لها، ولم تضمن ولاء وخضوع الأهالي التام لإرادتها، إذ أنه طيلة مدة احتلالها لمختلف المقاطعات، ظل التوتر قائما بسبب الحروب والتخريب والدمار الذي كان يحدثه الأهالي، وهذا في حد ذاته إن دل على شيء، إنما يدل على أنه إذا كانت قوة الرومان كبيرة في المقاطعات، فأن قوة الأهالي

التي رغم عدم تحقيقها انتصارات فاصلة تخلصهم من الاحتلال، فإنها أقضت مضجع الرومان، ولم تسمح لهم بالتمتع بالاستقرار الذي كانوا يطمحون إلى تحقيقه. وما ساعد الأهالي على ذلك أنهم كانوا يتميزون بالشجاعة والجرأة في تحدي العدو، وما حفزهم على ذلك تطلعهم إلى الحرية، ومعرفتهم الجيدة للمنطقة، وإلا كيف يمكن تفسير عدم قدرة المنتصر، على توجيه الضربة القاضية لعدوه الذي كلما أخمدت إحدى ثوراته إلا وأضرم نارا أخرى ؟

الفصل الثاني

سياسة الرومنة عن طريق إقامة السلام الروماني

أولا : مفهوم السلام الروماني

مباشرة بعد السيطرة الفعلية على أراضي الولايات، وإثر جمع غنائمها المتفاوتة الأهمية من مقاطعة إلى أخرى، وبعد تعمير أراضيها بالمعمرين الإيطاليين عموما، وتجنيد خيرة الشباب المغاربي، وتهيئة الظروف الملائمة لرومنتهم، بات من الضروري على روما ؛ أمام استمرار الثورات المناهضة لوجودها عبر مختلف أراضي الإمبراطورية ؛ وضع حد لهذا الجو المتوتر، الذي لا يسمح لها بتحقيق أغراضها، لذلك، بعد نهاية الحرب الأهلية بمصرع يوليوس قيصر في نهاية العصر الجمهوري، تعالت أصوات ؛ من المقاطعات الشرقية والغربية للبحر المتوسط، مناشدة الإمبراطور أغسطس، باعتباره الحاكم الأوحد دون منازع آنذاك، بضرورة وضع حد لحالة الثورات الدائمة التي أقضت مضجع المسؤولين الرومان على مختلف مستوياتهم، وتحقيق سلام دائم عرف بالسلام الروماني (Pax Romana)، مهما كلف ذلك من ثمن، كما يلح على ذلك الشاعر اللاتيني فرجليوس (P.M. Vergilius، 70/ 19 ق.م.)[77] بقوله : " أما أنت أيها الفرد الروماني، تذكر بأنك خلقت لتحكم الشعوب بإخضاعها لسلطتك، تلك هي سياستك، أجبرهم على تطبيق السلام واحترامه، اعف على الذين استسلموا واقهر المتعجرفين ...

" Tu regere imperio populus, romane memento haec tibi erunt artes, pacisque haec tibi erunt imponere morem, parcere subiectis et debellare superbos "

وإذا كان كما يزعم فرجليوس، أن القوة وحدها كفيلة بتحقيق السلام، فإنه حسب المؤرخ اليوناني أبيانوس (Appianus، 100/180 م .)[78] " السلام العميق والدائم يضمن في كل مكان السعادة والوئام ...".

وليتصف هذا السلام بالطابع الرسمي، وليجمع بين الوئام وسلطة الإمبراطور أغسطس الذي سيسهر على تحقيقه، أطلق عليه اسم " سلام أغسطس".

وقد كان سلام أغسطس يعني نهايات الحروب المتعددة :

1) حروب ضد الأجانب : يمكن ذكر نماذج منها الغزو الآخي والدوري في بلاد الإغريق، هجوم الغاليين على إيطاليا ، اعتداءات الآشوريين والكلدانيين على مصر والفرس على ليديا (Lydie) المدينة الإغريقية بسواحل آسيا الصغرى، والأترسك إلى جانب القرطاجيين على الإغريق[79].

2) حروب بين بلدين متاخمين : لم تكن الحدود بين البلدان والمدن في أقاليم حوض البحر المتوسط، واضحة المعالم كما هي عليه الآن، حتى أننا كنا نجد شعبا ينحدر من أصل واحد، يتكلم لغة واحدة، لكنه مقسم، حيث يعيش في بلدين أو في مدينتين مختلفتين متجاورتين في معظم الأحيان، لكن ولأسباب مختلفة كان كل طرف يعتبر الآخر أجنبيا عنه، كما هو الحال في بلاد الإغريق التي كانت مدنها، وفي مقدمتها إسبارطة وأثينا في صراع مستمر لمدة زمنية طويلة، وكما هو الحال في شبه جزيرة إيطاليا، حين كان مصطلح الأجنبي يعني كذلك العدو " (Hostis et peregrinus)[80].

3) الحروب الداخلية : وهي الحروب التي كانت تدور بين الأحزاب، كما كان الأمر سائدا في بلاد الإغريق بين أنصار الطغاة وأنصار الديمقراطية مع صولون (Solon)، وبين أنصار النبلاء والأشراف من جهة وأنصار الأغنياء الجدد (التجار) والطبقة العامة في شبه جزيرة إيطاليا من جهة أخرى .

ثانيا : أنواع السلام الروماني

تجاه كل هذه الأوضاع التي واجهتها الإمبراطورية الرومانية في بدايتها، أخذ مصطلح السلام الروماني طابعا مميزا، جمع بين دحر العدو الأجنبي الذي يهدد

المصالح الرومانية على الحدود، والقضاء علي النزاعات بين المدن، ووضع حد للصراعات الداخلية، بهدف تحقيق الوحدة والسكينة اللتين تحملهما السيطرة الرومانية على جميع البلدان والشعوب المتوسطية .(81) . وهذا الهدف لا يتحقق إلا إذا خيم على كل أراضي الإمبراطورية سلام كامل، بمعنى سلام عسكري شامل ودائم .

1) السلام المسلح

كما سبق ذكره في الباب الأول، اعتمدت روما في توسعاتها على جيوش قوية، بغرض إخضاع شعوب المناطق التي رغبت في الاستيلاء عليها، ولحماية الأراضي التي دخلت في حوزتها . وكما ورد آنفا عرف الجيش الروماني، منذ إصلاحات ماريوس تحولات جذرية في تركيبته، حيث أصبح جيشا نظاميا دائما، لم يتكون في بداية الأمر إلا من الإيطاليين عموما، وبعض المرتزقة كالإسبان والغاليين والإغريق والأفارقة، ثم توسعت دائرته في الثلاثة قرون الميلادية الأولى حيث شمل في معظمه أهالي الولايات المجندين قهرا في بداية الأمر والمتطوعين بعد ذلك . والملاحظ أنه أمام اتساع رقعة الأراضي التي دخلت في حوزتها، وتعدد الثورات المقاومة لوجودها، رفعت روما من عدد جنودها، ذلك أنه بعد أن كان عدد الفرق في عهد أغسطس حوالي 20 فرقة، وصلت في عهد سبتموس سيفروس إلى 33 فرقة، وبالنسبة للعدد الإجمالي للجنود، بلغ في عهد أغسطس حوالي 300 ألف جندي منهم 11 ألف متواجدين في المقاطعات الإفريقية وحدها .

وإذا دلت هذه الأعداد الهائلة للجيوش الرومانية بالنسبة لذلك العصر على ضراوة الحروب التي كانت تخوضها روما في مختلف أنحاء الإمبراطورية، فإن السلام الذي ينوي الرومان إرساءه في هذه الأراضي، يرمي إلى تحقيق أطماع وأهداف كثيرة نستعين لإبرازها بما صرح به القائد الروماني بيتليوس كيريباليس (Petillius Cerealis) للغاليين : "منذ العصور القديمة كان في بلاد الغال ملوك وحروب، إلى غاية اليوم الذي تحصّلتهم فيه على قوانيننا . وما دمتم سببا في إثارة الحروب، وباعتبارنا منتصرين،

نلزمكم بتحمل النفقات الضرورية لضمان الأمن والسلام بها . لن تعرف الأمم الراحة والهدوء دون جيوش، ولن تكون جيوش دون مرتبات، ولا مرتبات دون ضرائب . أما الباقي فهو مشترك فيما بيننا، ما دمتم أنتم الذين تقودون فيالقنا، وأنتم الذين تحكمون هذه المقاطعة أوتلك، لا يوجد فرق بيننا ... نتحمل الجفاف والأمطار الطوفانية وغيرها من الكوارث الطبيعية، فتحملوا رفاهية وبخل القوي ... وإذا ما طرد الرومان ... ستقوم حرب عارمة وإذا حاولتم زعزعة الإنجاز الكبير الذي تطلب بناءه 800 سنة من العمل والمال، فإنه سينهار عليكم، وسيكون الخطر عليكم أكبر، أنتم الذين تملكون الذهب والثروات، المصدر الرئيسي للحروب، فحيوا السلام، وحافظوا باحترامكم على المدينة التي يحظى فيها الغالب والمغلوب بنفس الحقوق . فلا تفضلوا العناد الذي يضيعكم عن الطاعة التي تنقذكم ."[82].

كما هو جلي، تتمثل أطماع روما تجاه المقاطعات في نهب الثروات، وتتلخص أهدافها في وضع العالم تحت رحمتها، وقيادته حسب ما يخدم مصالحها القريبة والمتوسطة والبعيدة . ونفهم أنه لتحقيق هذه الأطماع، وهذه الأهداف والغايات، يطلب من الشعوب المهزومة الاستسلام والخضوع التام لروما، وأي رفض لمطالبها سيلحق الضرر بها . وكما هو معلوم، قديما وحديثا، تجبر قوة الجيش الشعوب على الاستسلام والخضوع، وهي كذلك التي تؤدي إلى إقامة السلام، لكنه سلام محفوف بالمخاطر، لأن الشعوب الخاضعة بهذه الطريقة لن تتردد في استغلال أول فرصة مناسبة للانتفاضة بغرض التخلص من الاستعمار الغاشم .

2) السلام الشامل

بعد ضم أراضي واسعة، سعت روما إلى فرض سلام شامل عليها، يسمح لها بتنفيذ أغراضها، وقد كتب ؛ عن تعدد الشعوب التي انتصرت عليها روما، وشساعة رقعة الأراضي التي ضمتها ؛ المؤرخ الروماني دنيس هالكرناس (Denys Halicarnasse)[83] "تتحكم روما في كل المعمورة وفي كل البلدان العامرة بالرجال دون القارات النائية . إنها سيدة البحار التي توجد وراء أعمدة هرقل وسيدة كل سواحل المحيطات التي

وصلها البحارة، إنها المدينة الأولى والوحيدة في التاريخ، التي امتدت حدود إمبراطوريتها من الشرق إلى الغرب ..." . وحول نفس الموضوع يضيف الخطيب أيليوس أرستيد (Aelius Aristide)[84] قائلا : "مهما بلغت عظمة مدينة روما فهي لا تصل إلى مستوى قوتها، لكن المتأمل فيها، لا يتعجب في أنها تتحكم في العالم. ولمعرفة هذا العالم ينبغي إما زيارة كل الأقطار الواحد تلو الآخر، أو ببساطة زيارة المدينة التي تمثلهم جميعا" . ذلك لأنه عادة ما كانت كل مدينة من مدن الإمبراطورية صورة مصغرة لإحدى مدن روما، كمدينة ثموقادي التي سميت بمدينة بومبيي الصغيرة، نظرا للتشابه الكبير بينهما، لأن كل خيرات المقاطعات متواجدة في روما العاصمة الأولى للإمبراطورية وتأتي بعدها بيزنطة العاصمة الثانية.

3) السلام الدائم

إلى جانب السلام المسلح القائم على القوة والقهر، والسلام الذي تسعى إلى ترسيخ أسسه ليشمل كل أصقاع الإمبراطورية، عكفت روما على إرساء قواعد سلام أبدي وأزلي ليكتمل بذلك مشروعها المتوسط والبعيد المدى الذي رسمته لنفسها. (صورة السلام رقم 14).

لكن مهما كانت الجهود التي بذلتها روما لتحقيق هذا السلام المتعدد الأوجه، نتسائل إذا ما نجحت في تحقيق مسعاها وإلى إي مدى ؟

ككل مشروع سياسي كان أم اقتصادي أو حضاري، تبرز عادة عراقيل كثيرة تقف عائقا أمام تحقيقه، وأحيانا تهدده كلية خاصة إذا انعدمت القيادة الرشيدة التي تكيف مشروعها مع مختلف المستجدات والتطورات، وبالنسبة لموضوعنا فقد برزت عوائق كثيرة، يمكن أن نذكر منها جرائم الأباطرة، والصراع من أجل السلطة وما يترتب عنه من اغتيالات، والحروب الأهلية التي لم تنحصر في روما، بل امتدت إلى مختلف المقاطعات، وما نجم عنها من خراب ودمار، والغزوات المتتالية، وعمليات النهب وغيرها.

فعن الاغتيالات يمكن ذكر على سبيل المثال لا للحصر اغتيال الإمبراطور تيبريوس واغتيال الإمبراطور نيرون لأخيه برتنكوس (Britannicus) ولأمه أجربين (Agrippine) قبل أن يغتال بدوره، ومقتل القائد ألبينوس (Albinus) إثر هزيمته بأمر من سبتيموس سيفروس .

وفيما يخص الوضع الأمني في المقاطعات، لا تزال الجيوش الرومانية في حالة تأهب قصوى، لقمع ثورات الأهالي التي لم تتوقف تماما، ومنها ثورات الأفارقة الذين ظلوا يتصدون للتوسع الروماني حتى القرن الخامس الميلادي . وأخذت ثوراتهم أشكالا مختلفة منها الثورات المسلحة المنظمة التي تقودها القبائل

رمز السلام الروماني (Grimal (P), op cit , P, 127)

والشعوب الإفريقية ومنها الثورات الشعبية مثل ثورة الدوارين (Circumcellion) الذين تميزت حركتهم بغزو المزارع الكبرى والاستيلاء على ما فيها وتحرير العبيد، وكذلك ثورة الموريين الذين هاجموا إسبانيا .

إضافة إلى تردي الوضع الأمني داخل حدود الإمبراطورية وخارجها، ينبغي الإشارة إلى قيام الصراع على السلطة بين القادة الرومان، كما كان الحال بين نيرون وجلبه (Galba) وأوتو (Othon) وفتلوس (Vitellus) لمدة سنة كاملة (69/68 م.)[85]

رغم الأزمات العديدة التي هددت السلطة الرومانية في مختلف الأقاليم، وكادت أن تقوض الوجود الروماني، ظل الرومان يعتبرون أن الوحدة بين مختلف أقاليم الإمبراطورية لا زالت قائمة، وأن السلام الروماني سائد . وإذا اعتقد البعض أن الأزمات التي هزت الإمبراطورية الرومانية بمثابة ارتفاع لدرجة الحرارة التي لا تؤثر على الجسم القوي ولا تؤذيه، فإن البعض الآخر ذهب إلى أبعد من ذلك، ولم يؤمن بوجود حروب وثورات، واعتبر ما ذكر في هذا الشأن مجرد أسطورة، وأن الأحداث العسكرية التي كانت تندلع من حين إلى آخر في الداخل أو على الحدود، سرعان ما تختفي أمام عظمة السلام الذي يخيم على الإمبراطورية[86].

ثالثا : أهمية السلام الروماني في سياسة الرومنة

لقد حظي السلام الروماني بأهمية كبيرة، وأعطي مكانة مميزة، حيث اعتبر أحد أهم الإنجازات التي عرفتها البشرية، وأغناها وأطولها عمرا، وهي أكثر من ذلك عقيدة وديانة لها آلهتها، ومعابدها وكهنتها وأنصارها .

1) الآلهة :

تتمثل آلهة السلام الروماني في روما والإمبراطور، الأولى رمز لعبادة الوطن الروماني، والثانية تمثل النظام الفردي . وقد قام الإمبراطور أغسطس بدمج عبادة روما مع تقديس الإمبراطور في ديانة رسمية واحدة، الهدف من ورائها تمجيد إخلاص ووفاء الشعوب لهما، وإبراز وحدتهما المادية والفكرية، وهو في حد ذاته

تتويج أساسي لأعماله وتمجيد لشخصه في حياته وبعد مماته . وعادة ما يتمتع بالحق الأول المتمثل في تمجيد الإمبراطور في حياته، جميع الأباطرة، أما الحق الثاني المتمثل في تأليه الإمبراطور بعد مماته، فمجلس الشيوخ وحده الذي يفصل فيه، وهو حق مرتبط بمستوى تأليه وتعظيم كل إمبراطور على حده [87].

2) معابد السلام الروماني

لما أصبحت الإمبراطورية تعني السلام، أقام الإمبراطور أغسطس لهذا الغرض هيكلا من الرخام، بالإضافة إلى آلهة أخرى أكثر قداسة في روما، كالآلهة روما والإله مارس حامي الشعب الروماني وغيرها . إلى جانب الإمبراطور وحاشيته وأعضاء مجلس الشيوخ والكهنة فضلا عن أفراد من الشعب جميعهم في صورة تآخي تقديرا واحتراما للسلام الروماني .

بعد انتشار عبادة السلام الروماني مع عبادة روما والإمبراطور في المدينة العتيدة وعاصمة العالم آنذاك، انتشرت هذه ؛ كذلك ؛ في المقاطعات، حيث أقيمت لها المعابد والهياكل .

ومثلما كان للسلام الروماني لروما وللإمبراطور آلهة ومعابد، كان لها كذلك كهنتها وأنصارها، وقد أشرف على عبادتها في المقاطعات كاهن معين (Flamen) أو (Sacerdos) تعينه سنويا مدن المقاطعة، وعلى مستوى البلديات يشرف على طقوسها الدينية كاهن خاص . أما الأنصار، فكونوا في بداية عصر الإمبراطورية، في مختلف مناطق البلاد جمعيات شعبية، تختلف أجناسها ولغاتها عن بعضها البعض، تعرف باسم الأغسطية (Augustales)، مهمتها تكريس عبادة الإمبراطور، ومن ثم عبادة السلام الروماني الذي يتمنى كل فرد روماني دوامه [88]. لكن لماذا يعد السلام عنصرا أساسيا لقيام أية حضارة يا ترى ؟

في اعتقادنا يعد السلام الأرضية التي توفر الظروف الملائمة والمناسبة لقيام حضارة وهذا يرادف فكرة أرنولد تونبي (A. Toynbee) التي مفادها أن الحضارة لا تنشأ حيث يسود الخوف والتوتر، وبعبارة أخرى ينبغي أن يخيم الأمن والاستقرار لتتفتح العقول وتتفجر المواهب والإبداع .

لكن مهما كان للسلام من أهمية لإرساء قواعد حضارة رومانية، يعتقد بيار غريمال[89] أنه ينبغي أن تكون إلى جانبه وسائل للتعبير، ومواضيع الإلهام، فوسائل التعبير التي اعتمدت عليها روما، تمثلت في تقنيات كل من الأترسك والإغريق وبلدان الشرق الذين لهم باع فيها، أما مواضيع الإلهام كالوطنية والعشيرة ففسرهما أغسطس، باعتباره أول إمبراطور سهر على تنفيذ هذا البرنامج الحضاري الذي يؤدي إلى الرومنة، وتبعه أباطرة آخرون، وجميع هذه المشاريع سوف نحاول بلورتها في الباب الثالث من هذا البحث .

3) سياسة الرومنة خلال حكم الأباطرة الرومان :

لم تعرف الرومنة في بلدان المغرب القديم خلال حكم الأباطرة انتشارا متوازيا في كل المقاطعات، ورغم أن منح حقوق المواطنة الرومانية بدأ منذ عهدي الأخوين جراخوس وماريوس، فإن نسبة المستفيدين من الجنسية الرومانية، والحاملين للقب إيولي (Iuli) الذي ينسب إلى كل من يوليوس قيصر وأغسطس، هم الأكثر عددا، حيث تفيدنا مونيك دوندون باييز[90] أن عددهم بلغ 1054 من مجموع 1656 مستفيد. ولتفسير سبب ارتفاع هذا العدد تضيف الباحثة، أنه في عهد هذين الإمبراطورين، وبعد ضم المقاطعات، استوجب عليهما الأمر كسب أنصار في الأراضي حديثة العهد بالاحتلال، ومن ثم تم فتح باب الاستفادة من حقوق المواطنة أمام الأهالي . كما قام بتأسيس البلديات والمستعمرات. وقد ساعدت مدة حكم الإمبراطورين سالفي الذكر الطويلة، حيث بلغت 64 عاما في زيادة عدد المستفيدين من الجنسية الرومانية .

ودائما بخصوص ظاهرة انتشار لقب إيولي، سجل أنه لم ينحصر في الأراضي التي استحوذ عليها الحاكمان، وإنما امتد إلى الأراضي التي لم يصلها حكمهما، تلك الأراضي التي لم يتم الاستيلاء عليها إلا بعد موت أغسطس .

ورغم أن سياسة الرومنة تسربت مرحليا، متوجهة من الشرق إلى الغرب المغاربي فقد برزت أولا في إفريقية البروقنصلية التي تعد أول الأراضي التي بسط الرومان

عليها نفوذهم، ثم جاء دور نوميديا فبقية المقاطعات، حيث شملت موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية وأخيرا طرابلس . إن سبب تسارع أو تباطؤ وتيرة انتشار سياسة الرومنة من منطقة إلى أخرى، يكمن في بعد مواقع هذه الأراضي عن المقاطعة الرئيسية، التي تميزت بكثافة نشاطها أكثر من غيرها، وكذلك في الظروف الطبيعية السائدة، المتمثلة في التضاريس الوعرة لبعض المناطق كانتشار الجبال والغابات مثل مقاطعتي موريطانيا القيصرية والطنجية، أو لقساوة المناخ كمقاطعة طرابلس . إلى جانب العوامل البشرية السائدة كانتشار حركات تمرد وثورات الأهالي ضد الوجود الروماني مما أعاق الساسة الرومان على تنفيذ مشاريعهم في مجال الرومنة .

وتضيف الباحثة مونيك داندون باييز أن الرومنة تقل كلما ابتعدنا عن أقدم مركز روماني في المغرب القديم، حيث ينخفض عدد المرومنين كلما ابتعدنا عن إفريقية البروقنصلية في اتجاه الغرب نحو موريطانيا الطنجية، وفي اتجاه الشرق نحو طرابلس، باستثناء لمباز التي تعد أقدم وأكثر رومنة، ونفس الشئ كان بالنسبة لنوميديا . بينما لا نجد في موريطانيا القيصرية وموريطانيا السطيفية إلا نصف عدد المرومنين الذين يوجدون في نوميديا ولمباز، في حين لا نجد في موريطانيا الطنجية وطرابلس إلا أعدادا قليلة جدا من المرومنين .

بعد أن كرس الإمبراطور تيبريوس جهوده في إفريقيا للقضاء على قبائل الجنوب، وفي ضبط عملية المسح التي شرع فيها كل من قيصر وأغسطس، استمرت سياسة الرومنة على يد الإمبراطور كلوديوس (54/41)، الذي رغم أنه كان من المتحمسين والمشجعين لهذه السياسة، لم يبرز عدد كبير من الأهالي المرومنين الذين حملوا اسمه ولقبه (T. Claudius)، ويعلل الباحثون هذه الندرة إلى اهتمام كلوديوس الكبير بفكرة ترسيخ السلام في المناطق التي ضمها قيصر وأغسطس من قبل، وإهماله الأراضي التي ضمت إلى الإمبراطورية في عهده، أو لأن الحاملين الجدد لهذه الحقوق، ظلوا يحملون لقب الإمبراطورين السابقين بدلا من لقبه. وعموما انتشرت حقوق المواطنة الرومانية في عهد كلوديوس بكل من موريطانيا القيصرية ونوميديا وإفريقية البروقنصلية.

وفي عهد الأسرة الفلافية (فسباسيانوس وتيتوس ودومشيانوس) استفاد من حقوق المواطنة، أهالي نوميديا وإفريقية البروقنصلية أكثر من غيرهم من سكان بقية المقاطعات .ورغم أن اسم ولقب (T. Claudii) يخص الأباطرة الثلاث، إلا أنه يبدو أن الإمبراطور الأخير لم يلعب دورا كبيرا في هذا المجال . وعموما لم يسع الفلافيون إلى توسيع دائرة الأفارقة المرومنين بقدر ما سهروا على تقييم التطور الذي عرفته هذه السياسة، وربما لهذا السبب ذاته صنفت قائمة المستفيدين من حقوق المواطنة الرومانية في هذه الفترة في المرتبة الثانية بعد القائمة التي تمثل لقب إيولي (T. Iulii).

وعن سياسة الرومنة في عهد تراجانوس، فكانت محتشمة، ويتجلى ذلك من قلة الأهالي المرومنين الذين حملوا اسمه ولقبه (M.Ulpius). وقد تركزت سياسته أساسا في موريطانيا القيصرية وموريطانيا السطيفية ونوميديا وإفريقية البروقنصلية، ويعود سبب هذه الوضعية إلى تركيز تراجانوس جهوده على الجانب الأمني، بهدف القضاء النهائي على حالة اللاستقرار والثورات، وذلك بمحاصرة المناطق التي تكون خطرا على الوجود الروماني، لذلك نجده يفرض حصارا شديدا على منطقة الأوراس بشبكة من الطرقات، الغرض من ورءها دفع القبائل المتواجدة بها إلى الرضوخ إلى السلطة الرومانية والاستقرار وتهيئة الظروف تمهيدا لتطبيق سياسة الرومنة.

رغم إشادة المؤرخين بأهمية إنجازات الإمبراطور هادريانوس في إفريقية، والتي تزامنت مع زيارته لها في عام 128 ميلادي، حين منح الحق اللاتيني الأدنى(Latium maius) لعدد من بلدياتها، سجل عدد قليل من حاملي اسمه ولقبه (P. Aelius) في كل من موريطانيا القيصرية وموريطانيا السطيفية ونوميديا وإفريقية البروقنصلية والمزاق .

أما فيما يخص دائرة سياسة الرومنة لبقية الأباطرة، فأقل ما يقال عنها، هو أنها لم تتوسع لأسباب عديدة تعود إما لعدم اهتمام وتشجيع البعض منهم لهذه السياسة أمثال

كالغرلا ونيرون . وإما لقصر مدة حكمهم، التي بطبيعة الحال لم تسمح لهم بتحقيق إنجازات تستحق الذكر أمثال غالبة (Galba) وأوتو (Othon) وفيتلوس (Vitellus)

رابعا : آثار السلام الروماني على روما وعلى الأهالي

كان للسلام الروماني أثر عميق على روما وعلى الأهالي . فبالسبة لروما نلاحظ فيما يخص العملية الإجبارية، في تقاسم موارد أي بلد مهزوم مع روما، كما جاء في تصريح تاسيت، أن هذه الأخيرة ؛ من شدة طمعها وتلهفها ؛ لم تتقاسم قط هذه الثروات مع أصحابها الشرعيين بل امتصت كل ثرواتهم وجزّتهم وسلختهم إلى حد الاستنزاف .

- يفهم من مواقف روما تجاه المهزومين أنها تطالبهم بالطاعة العمياء والخضوع المطلق .

- حظي السلام الروماني بأهمية كبيرة جدا، إلى حد جعله مقدسا من قبل الأباطرة والأشخاص، له آلهته ومعابده.

أما ما يتعلق بالأهالي، فإن آثار السلام الروماني كانت كارثية على السكان الأصليين للمغرب، لأن كل الشواهد تدل أن ما كانت تراه روما سلاما وأمنا واستقرارا، كان يقابله قهرا للشعوب الخاضعة لسلطانها، واستغلالا لثرواتها المادية والبشرية، لأن روما لم تكن تدخل في حساباتها الواقع المعيشي للأهالي، ولم تكن تراع الظروف الصعبة التي كانوا يتخبطون فيها، ولا الحرمان الذي كانوا يقاسونه، ولهذا لم يكن الأهالي يتركون أي فرصة مناسبة تمر ليعبروا عن رفضهم للوجود الروماني، وهذا شيء طبيعي فالضغط يولد الانفجار.

الفصل الثالث

النظم الإدارية لسياسة الرومنة

أولا : مفهوم المقاطعة

هي الأراضي التي استحوذت عليها روما خارج شبه جزيرة إيطاليا، في فترات متعاقبة، وكونت منها ولايات أو مقاطعات (Provinciae) خاضعة لها، يسير شؤونها إما مجلس الشيوخ الروماني (Senatus) عن طريق قنصل (Proconsul) أو الإمبراطور عن طريق مندوب (Legatus)، أو نواب بدرجة برايتور (propraetoriani Legati augusti) يختارون من بين أعضاء مجلس الشيوخ الذين سبق وأن تمتعوا بسلطة القنصلية . وكانت هذه المقاطعات تضم الأهالي والإيطاليين من الرومان واللاتين، الذين كانوا جنودا مسرحين أو عاطلين عن العمل أو تجارا أو فرسانا، إلى جانب الجيش . لقد رسمت روما للأراضي التي استولت عليها ؛ أحيانا ؛ حدودا جديدة، وفقا لمخططاتها السياسية والاقتصادية والحضارية [91]. وبالنسبة لبلدان المغرب، حولت روما أراضي قرطاجة ؛ بعد تحطيمها في سنة 146 ق.م.؛ إلى مقاطعة رومانية (Provincia) تخضع للقانون الروماني الخاص بها (Lex Provincia) تحت اسم مقاطعة إفريقية . وعرفت الأراضي الشرقية لمملكة نوميديا ؛ بعد الاستيلاء عليها من طرف قيصر في عام 46 ق.م. نفس المصير، حيث ألغي هذا القائد اسمها وعوضه باسم مقاطعة إفريقية الجديدة (Provincia Africa nova)، بينما استبدل اسم مقاطعة إفريقية باسم مقاطعة إفريقية القديمة (Provincia Africa vetus)

للتمييز بين المقاطعتين . لكن في عام 25 ق.م. وحرصا منه على ضمان الأمن والاستقرار أدمج الإمبراطور أغسطس المقاطعتين الإفريقيتين القديمة والجديدة في مقاطعة واحدة تعرف باسم مقاطعة إفريقية البروقنصلية (Provincia Africae Proconsularis) باعتبارها تابعة للبروقنصل، يتمتع أصحابها عادة بالسلطة العسكرية المطلقة (Imperium) على الجيش البري والأسطول البحري والقضاء وغيره .

أما بالنسبة لأراضي موريطانيا الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى وادي الأمساغا (Ampsaga) شرقا، فقد تحولت بدورها إلى مقاطعة رومانية في عام 42 م. بعد مقتل ملكها بطلميوس بن يوبا الثاني على يد الإمبراطور كالغولا (Caligula)، تحت اسم مقاطعة موريطانيا القيصرية (Provincia Mauretania caesarensis) نسبة إلى عاصمتها القيصرية (Caesarea)، هذا الاسم الذي أطلقه عليها ملكها يوبا الثاني اعترافا بالجميل لولي نعمته، قيصر.

وفيما يخص الساحل الغربي لليبيا، الذي تبرز فيه ثلاث مدن رئيسية تتمثل في لبدة (Leptis Magna) وسبراطة وطرابلس (Oea). فبعد أن كان تابعا في أول الأمر إلى قرطاجة، ضم إلى مملكة نوميديا منذ حكم الملك ماسنيسا إلى غاية عهد يوغرطه، ثم استولت عليه روما وأطلقت عليه اسم مقاطعة طرابلس (Provincia Tripolitana).

وقد كانت جميع هذه المقاطعات الإفريقية(البروقنصلية والموريطانية وطرابلس) خاضعة لمجلس الشيوخ الذي يعين حكامها الذين يتمتعون، بسلطة عسكرية ومدنية، ويساعده قادة بارزون وموظفون سامون (قضاة وكتبة ومترجمون وأطباء وكهنة)، كما نجد موظفين أغلبهم من فئة العتقاء، مهمتهم جمع الضرائب المختلفة كالجزية والمكوس الجمركية والمؤونة، التي يفرضها مجلس الشيوخ وقت الحروب على السكان الأصليين لهذه للمقاطعات . وكانت المقاطعات نوعين:

1) مقاطعات تابعة لمجلس الشيوخ (Senatoriales)

يقصد بها المقاطعات التي تم إخضاعها نهائيا، وتتميز عادة بهدوء نسبي، لا يستدعي حضور قوات عسكرية هامة، يحكمها قنصل أو وال يعينه مجلس الشيوخ بعد عملية اقتراع، ولا تتمتع مثل هذه المقاطعات إلا بسلطة القضاء، بينما تبقى السلطة العليا في يد الإمبراطور، وإدارة الشؤون المالية في يد ولاة الإمبراطورية (Procurateurs)[92]، ومن بين هذه المقاطعات قرطاجة .

2) مقاطعات تابعة للإمبراطور (Impériales)

تعد هذه المقاطعات أقل عددا من النوع السابق، وهي تخضع إلى الإمبراطور مباشرة، وتتميز بعدم استقرار الأوضاع فيها، بسبب انتشار الثورات وحركات التمرد الدائمة، مما يستدعي تمركز قوات عسكرية دائمة بها، تسير من طرف نواب عن الإمبراطور برتبة قنصل أو من طرف وكلاء الإمبراطور (Procurateur) ينتمون إلى فئة الفرسان، يحظون بسلطة مطلقة، تسمح لهم بممارسة النشاط القضائي، وقيادة الفيالق المتمركزة بالأراضي التي يشرفون عليها، دون إدارة الشؤون المالية التي أسندت إلى مسؤول عن الشؤون المالية، ينتمي إلى فئة الفرسان (Procurateurs equestres)، مستقل كلية عن القنصل أو وكيل الإمبراطور. لكن مع مرور الوقت، تضاءلت مكانة القناصل في إدارة المقاطعات، حيث استبدلهم الإمبراطور بولاة يعملون في أول الأمر بالنيابة ثم بصفة دائمة [93]. ومن بين هذه المقاطعات نوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية.وكانت المقاطعات التابعة للإمبراطور مقسمة بدورها إلى ثلاثة أنواع :

أ) مقاطعات قنصلية، وهي المقاطعات الكبيرة، مثل سوريا ومقدونيا . تسير من طرف نواب عن الإمبراطور برتبة قنصل (Legati augusti pro praetore viri consulares) أو قاض (praetorii)، ويساعده قادة عسكريون يقودون عدة فرق، ومسؤول عن الشؤون المالية (Quaestor) وهذا النوع من المقاطعات لا يوجد في بلدان المغرب.

ب) مقاطعات أقل مساحة من السابقة، يشرف على شؤونها حاكم برتبة قاض (Praetor)، يساعده موظف في الشؤون المالية، وفي المجال العسكري وضع تحت تصرف الحاكم فيلق واحد، ومنها نوميديا .

ج) مقاطعات صغيرة المساحة، أو أقل تطورا من المقاطعات السابقة في نظر الرومان، تسير من طرف وكيل للإمبراطور ينتمي إلى فئة الفرسان (Procurateur)، ومنها مقاطعتي موريطانيا القيصرية والطنجية .

وكان سكان الولايات مقسمين على بلدان ومدن متباينة الأوضاع، وكانت لمواقف الأهالي من الاحتلال علاقة بهذا التباين حيث نجد من عارض الغزاة الرومان وقاومهم، ونتيجة لذلك دمرت مدنهم، وضمت أراضيهم إلى حظيرة الأملاك الرومانية، وكان مصير سكانها إما القتل أو البيع كعبيد، وهنالك من ساندهم ومثل هؤلاء قليلون، وبطبيعة الحال اعتبرت مدنهم حرة ومعفاة من الالتزامات (Civitates immunes et liberae)، ومن بين هذه المدن يمكن ذكر على سبيل المثال، أتيكا (Utica) وسوسة (Hadrumentum) وبوطرية (Acholla) ورأس ديماس (Thapsus) شمال مدينة المهدية ولمطة (Leptis minus) وأوزليس (Uzalis) قرب مدينة صفاقس الحالية بالجمهورية التونسية وتوداليس (Theudalis) قرب مدينة بنزرت الحالية وعنابة[94] في حين إلتزمت مدن أخرى الحياد، ومن ثم اكتفى المحتلون الرومان بإخضاع سكانها لضريبة الجزية.

ثانيا : الوضع القانوني للمدن الحرة والمعفاة

تبعا للمواقف المؤيدة لها، منحت روما المدن الحرة والمعفاة عدة امتيازات منها الحفاظ على عاداتها وتقاليدها وقوانينها الداخلية، كما تركتها تسير من طرف حكام محليين ومجلس للشيوخ، ويتمتع هذا النوع من المدن بجملة من الحقوق منها :

- حق محاكمة جميع سكانها الأصليين والرومان القاطنين بها .
- حق إدارة شؤونها المالية
- الإعفاء من ضريبة الجزية، ومن وجود حاميات عسكرية رومانية فوق أراضيها

- حق الملكية وعدم دفع الضريبة العقارية
- حق فرض المكوس الجمركية برية وبحرية في أرضها على جميع سكانها الأصليين دون الرومان .
- حق سك عملتها الخاصة .

ويظهر أن استقلال هذه المدن الحرة كان هشا، إذ كان بإمكان روما إلغاءه والتدخل في شؤون هذه المدن في أي وقت، إما بتعيينها حكاما على قبائل هذه المدن، يكونون إما من الأهالي أو من المهاجرين الإيطاليين الذين حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية، وبعبارة أخرى يمكن القول في هذا الشأن، أن روما كانت تعوض الرومان الأصليين بالرومان الجدد، الذين يكونون عادة أكثر ولاء لها منهم لوطنهم الأصلي، وكان دور هؤلاء الحكام أساسا إداريا، يتمثل في القيام بدور الوساطة بين روما والأهالي في مختلف أمور المدينة وسكانها، وقد سجل وجود مثل هؤلاء الحكام في مدينتي خميسة[95] وقالمة[96].

ويتبين من التدخل الروماني في شؤون سكان المدن الحرة، كما أسلفنا الذكر، أن الحرية والاستقلال الذين تنعم بهما هذه المدن، ما هما إلا حرية ظاهرية واستقلالا صوريا تحترمهما روما ما دامت مصالحها غير مهددة. كما أن تعيين السلطة الرومانية ؛ على رأس هذه المدن وقبائلها ؛ لحكام يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية لا يعني إلا شيئا واحدا، هو عدم ثقة روما في السكان الأصليين للمدن الحرة، لأنه بفرضها عليهم من تراه مؤهلا لخدمتها، يلغي بالضرورة فكرة الاستقلال المزعوم، ما دامت القاعدة التي تنطلق منها روما عند احتلالها لأي بلد، هو أن تعامله بإحدى الطرق التالية :

1) أن يدير شؤونه حسب قوانينه المحلية، ومن ثم فإن روما تكتفي بالإشراف والمراقبة السياسية والمدنية.

2) أن تمنحه حكومة سياسية ومدنية جديدة.

3) أن تقضي على جزء من سكانه وتشتت الجزء المتبقى.

4) أن تبيد شعبه إبادة كاملة، وهذا في الحقيقة صعب التحقيق، حتى وإن أصرت روما على تنفيده[97].

ثالثا : الأوضاع القانونية للمدن الخاضعة

أطلقت روما على المدن التي اتخذت موقف الحياد عند احتلالها لها، اسم المدن الخاضعة لضريبة الجزية (Civitates Stipendiarae)، التي فرضتها عليها، كما كانت تتدخل في شؤونها عن طريق حكام الولايات، بإشرافهم على ميزانية هذه المدن، ومراجعة الحسابات المتعلقة بالضرائب المفروضة على الأهالي، بالإضافة إلى ذلك يمكن للحكام تنظيم تجمعات شعبية أو إلغاءها، وكذا الإشراف على مجلس الشيوخ ومسؤولي الإحصاء . كما عملت روما إثر احتلالها لأراضي المغرب، على إزالة المظاهر الاجتماعية والمؤسسات والتنظيمات الاقتصادية والسياسية التي كانت قائمة، وتعويضها بالتنظيمات التي كانت سائدة في شبه جزيرة إيطاليا، لذلك أنشأت هياكل رومانية جديدة ذات تنظيم غريب على سكان المنطقة وتتمثل في القرى والمدن الرومانية . (راجع خريطة مدن الأهالي)

رابعا : القرى والمدن الرومانية

1) القرى الرومانية

هي مجموعة من المباني والأحياء الآهلة بالسكان، التي تكوّن قرية صغيرة (Pagus) أو كبيرة (Vicus). وقد انتشرت في الأماكن الحيوية استراتيجيا أو اقتصاديا، حيث يتجمع السكان في أكواخ (Canabae) قرب المراكز العسكرية للفرق، أو الوحدات المساعدة وعلى طول الطرقات المؤدية إلى الحصون والقلاع، وهذا لأسباب أمنية واعتبار المراكز العسكرية بمختلف أنواعها سوقا استهلاكية ثابتة، وعادة ما تدعم هذه المراكز بالجنود المسرحين الذين يستفيدون عادة من أراضي زراعية ومساعدات مادية مختلفة من طرف السلطة لتشجيعهم على الاستقرار. وقد توسعت بعض القرى لتتحول إلى مدن كبيرة كما قامت القرى أيضا في المناطق ذات الأهمية الاقتصادية، وخاصة حول الضيعات الكبرى التي توفر للسكان العمل كمزارعين. ومع تزايد عدد السكان يتحول التجمع السكاني إلى قرية، ومنها إلى مدينة، وترتقي إحيانا إلى بلدية وحتى مستعمرة لما تتوفر عليه من الظروف الملائمة، مثل مدينة فريكندانسس (Verecundensis) قرب لمباز وتبيليس

خريطة مدن الأهالي Benabou (M), op cit.

(Thibilis) قرب كيرتا، وكويكل (Cuicul) التي وصلت إلى مستوى المستعمرة . وقد كان لهذه القرى إدارتها الخاصة، يشرف عليها مسيرون (Magistri). وباستغلال الجنود المسرحين للأراضي الممنوحة لهم، وحمايتهم الأراضي المحتلة عند الضرورة، يكون هؤلاء أكثر العناصر مساهمة في سياسة الرومنة [98].

2) المدن الرومانية

لقد وجد في منطقة المغرب القديم عدة مدن كبيرة، عكس ما يدعيه بيار غريمال[99] إذ قال أنه خلال التوسعات الرومانية وجد في مناطق الشرق مدن كبيرة مشهورة، عكس ما كان عليه الوضع في المناطق الغربية للبحر المتوسط، كبلاد الغال وشبه جزيرة إبيريا وبريطانيا وعلى ضفاف نهر الراين، وفي أغلب أراضي إفريقيا، علما أن في هذه الأخيرة، كثيرة هي المدن المهمة كقرطاجة وأتيكا وكيرتا وسيغة (Siga) وغيرها، وقد حلت المدن الرومانية محل الكثير من المدن المحلية القديمة .

لقد أخذت المدن الرومانية أحد التنظيمين السائدين آنذاك، فإما أن تكون بلدية (Municipium) أو مستعمرة (Colonia) . ويمكن بناء على طلبها أن ترفع روما هذين النوعين من المدن إلى مصاف البلديات ثم المستعمرات .

خامسا : البلديات

بالنسبة للبلدية تكون إما مدينة إفريقية قديمة احتفظت لفترة زمنية معينة بنظمها المحلية واستقلالها الذاتي، ثم تحصلت على حقوق المواطنة اللاتينية أو الرومانية، وإما مدن جديدة أنشئت في مواقع معينة ذات أهمية اقتصادية أو جغرافية، وكانت البلديات عموما نوعين :

* بلديات لاتينية (Municipia Latina) أو (Oppida civium latinorum)، يقطنها عادة الأهالي والأجانب الذين يتمتعون بالحقوق اللاتينية.

* بلديات رومانية (Oppida civium romanorum) أو (Municipia romana)، يسكنها مواطنون رومان أو أجانب حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية .(راجع خريطة المدن (Oppida)

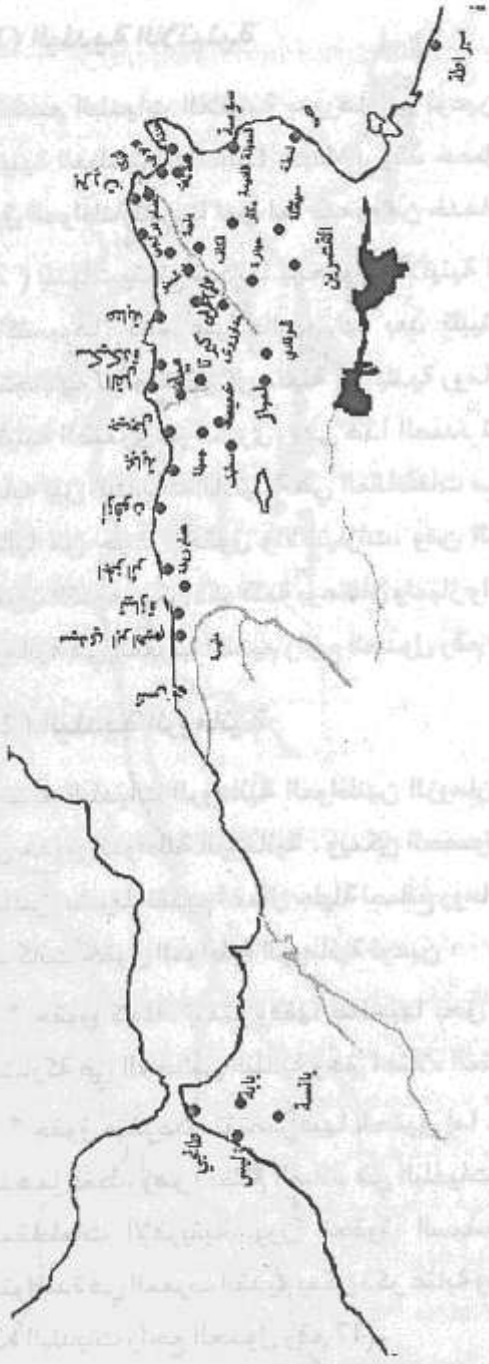

خريطة المدن لرومانية في المغرب القديم (Oppida)

1) البلدية اللاتينية

تنقسم البلديات اللاتينية بدورها إلى نوعين، بلديات يتمتع سكانها بالحقوق اللاتينية العظمى (Majus Latinum)، وقد حصل أعضاء مجالسها وحكامها على حقوق المواطنة تكريما لهم، لما قدموه من خدمات لروما.

2) بلديات يتمتع سكانها بالحقوق اللاتينية الصغرى (Minus Latinum) أصلا أو اكتسبوها، بناء على طلبهم لها بعد تلبيتهم لطلبات السلطة المستعمرة، واستجابتهم لها ولتنتقل كل مدينة إلى بلدية رومانية، ينبغي أن تحصل على الحقوق اللاتينية الصغرى ثم الكبرى. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أنه سجل تقارب وتشابه بين البلديات اللاتينية في المقاطعات مع البلديات الواقعة في شبه جزيرة إيطاليا من حيث الحقوق والامتيازات، ومن البلديات اللاتينية التي سجلت في المغرب القديم يمكن ذكر قلعة بوعتفان ولمباز والقصبة[100]. (للإطلاع على البلديات الرومانية في المغرب القديم راجع الجدول رقم 16)

2) البلدية الرومانية

تضم البلديات الرومانية المواطنين الرومان أصلا، أو الأجانب الذين حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية . ويمكن الحصول على هذه الحقوق بشكل فردي أو جماعي، بشرط تقديم أعمال جليلة لصالح روما أو الانخراط في الجيش الروماني. وقد كانت حقوق المواطنة الرومانية نوعين :

* حقوق كاملة، يتمتع وفقها صاحبها بحق الزواج وحق ممارسة التجارة وحق المشاركة في المجالس البلدية وحق اعتلاء المناصب العامة .

* حقوق منقوصة، تقتصر فيها الحقوق إما على حق ممارسة التجارة والزواج أو أحدهما فقط، وهو النظام السائد في البلديات الرومانية بمقاطعات الإمبراطورية كالمقاطعات الإفريقية، دون الحقوق السياسية. ومن بين البلديات الرومانية المتواجدة في المغرب القديم يمكن ذكر عنابة وقالمة[101]. (وللإطلاع على نماذج من هذه البلديات راجع الجدول رقم 17).

خريطة أهم البلديات في المغرب القديم الملحق (رقم11) Benabou (M) , op cit

وبالنسبة لنظام تسيير البلديات بنوعيها اللاتيني والروماني، فقد كان من حقها إما أن تختار تسيير أمورها عن طريق حكام محليين تعينهم روما، يشرفون على إدارة الشؤون العامة المالية والشرطة والأمور الدينية المحلية والرومانية، وإما أن تطبق النظم الخاصة بالبلديات . لكن الملفت للانتباه هو أن بعض البلديات تميزت عن غيرها بالإعفاء الضريبي وتمتع سكانها بحق الملكية مثل قرطاجة وأتيكا ولبدة. وعلى هذا الأساس تزايد عدد البلديات بنوعيها اللاتيني والروماني في المغرب تزايدا ملحوظا، فبعد أن كان عددها في بداية العصر الروماني 12 بلدية ارتفع في بداية القرن الثالث الميلادي إلى 37 بلدية[102] وعند صدور مرسوم كاركلا سنة 212 م. الذي عمم حقوق المواطنة الرومانية على كل سكان الإمبراطورية الأحرار، تم تحويل كل مدن المقاطعات الموجودة آنذاك إلى بلديات . وقد صدر هذا القانون بعد أن لوحظ تنافس المدن في المطالبة بهذه الحقوق، وبعد أن دفع بعضها أموالا طائلة بغية الحصول عليها والاستفادة بها[103] .

سادسا : المستعمرات

بعد أن ارتقت بعض المراكز السكنية من قرى إلى مدن ومنها إلى بلديات لاتينية ورومانية، طمح بعضها إلى الارتقاء إلى مستوى المستعمرة (Colonia)، للحصول : في اعتقادها : على المزيد من الامتيازات . وكانت بعض المستعمرات في بداية الأمر عبارة عن مراكز شبه عسكرية في المقاطعات تم تعميرها بأسر رومانية تتمتع بحقوق المواطنة الرومانية، استفادت من أرض ومسكن، ثم انضم إليهم تدريجيا بعض سكان المقاطعات الأصليين الذين حصلوا على حق الانتخاب (Jus suffragium). وبصفة عامة تنقسم المستعمرات إلى ثلاثة أنواع

- المستعمرات الرومانية
- المستعمرات اللاتينية
- مستعمرات الجنود المسرحين

1) المستعمرات الرومانية (Colonia civium romanorum)

تعتبر هذه المستعمرات صورة مصغرة لروما في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي لا تضم إلا المواطنين الرومان أصلا، أو الأهالي الذين استفادوا من حق المواطنة الرومانية . وكان الهدف من إنشاء هذا النوع من المستعمرات في المقاطعات، ضمان سيطرة روما وحماية مصالحها مقابل بعض الامتيازات، كالإعفاء من الضرائب، مع أداء الخدمة العسكرية . ويكون مصير الأهالي بها الإندماج مع الحصول على الجنسية.

2) المستعمرات اللاتينية (Coloniae Latinae)

تضم هذه البلديات في مجملها السكان الذين يتمتعون بحقوق المواطنة اللاتينية وبعض الرومان الذين فقدوا جزءا من حقوقهم، ويفوق عدد سكانها في الغالب عدد سكان المستعمرات الرومانية، ويمكنهم الحصول أو استرجاع حقوق المواطنة الرومانية إذا ما استقروا في روما فيما بعد . بالإضافة إلى ذلك يتمتع هؤلاء بحق ممارسة التجارة والزواج الشرعي والتوريث والانتخاب في روما.

3) مستعمرات الجنود المسرحين (Coloniae veteranorum)

ظهر هذا النوع من المستعمرات في القرن الأول قبل الميلاد مع القائد ماريوس (Marius)، وقد ارتفع عددها ابتداء من عهد قيصر (50 ق.م.)، حيث بلغ سبعة عشر مستعمرة تضم خليطا من العسكريين القدماء والمدنيين، لكنها أصبحت في عهد أغسطس تضم قدماء جنود فقط [104]. وعادة ما كان الجنود المسرحون يستفيدون من قطع أرضية صالحة للزراعة أو قابلة للاستصلاح، مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات لروما. كانت الأهداف من إنشائها اقتصادية وسياسية من جهة، وعسكرية وحضارية من جهة أخرى وإذا كانت يونونيا (Junonia) أول مستعمرة أسسها الرومان في إفريقية في عام 122 قبل الميلادي على يد جراكوس (Gracchus)، وتلتها مستعمرات ماريوس المتمثلة في تيبار (Thibaris) وهنشير الدوامس (Uchi Maius)، وسيدي علي بلقاسم (Thuburnica)، في حوض وادي

مجردة (Bagradas)، فإنه في عام 46 قبل الميلاد، أعطى قيصر للقائد سيتيوس (P. Sittius) ؛ مقابل مساندته القوية له خلال صراعه ضد بومبي ؛ جمهورية تتكون من أربع مستعمرات هي سكيكدة والقل وميلة، بالإضافة إلى كيرتا التي أتخذت عاصمة لها.

1) الأهداف الاقتصادية والسياسية

يقول إبراهيم نصحي في هذا الشأن :" أنه إذا كان الهدف من إنشاء قيصر لبعض المستعمرات في إيطاليا وفي الولايات هو الرغبة في مكافأة محاربيه القدماء بمنحهم إقطاعيات زراعية، فإن الباعث على إنشاء البعض الآخر من هذه المستعمرات كان الرغبة في تحقيق هدف مزدوج اقتصادي وسياسي[105]، ويمكن تلخيصه فيما يلي :

- تطبيق قرارات سنوات 55 ق.م. و51 ق.م. و48 ق.م. الهادفة إلى تسريح ومكافأة قدماء محاربي قيصر الذين خاضوا غمار حروبه منذ ذهابه إلى بلاد الغال والبلقان، خاصة وأن بعض هؤلاء لم يحصل على حقوق المواطنة الرومانية كاملة، إلا بعد استيلاء قيصر على إيطاليا بعد عبوره نهر الروبكون (Rubicon)، ولم يعترف بفرقتهم كفرقة نظامية (Légion) إلا بعد بداية الحرب الأهلية . بالإضافة إلى ذلك، ينبغي ألا ننسى الأعداد الهائلة لجنود قيصر، الذين ظلوا على قيد الحياة بعد حملات بلاد الغال والبلقان والبالغ عددهم حوالي عشرين ألف مقاتل، دون ذكر جنود فرق أخرى كانت حشدت خلال الحرب الأهلية، و35 فرقة التي كانت لا تزال في الخدمة عند وفاة قيصر [106]، وكذلك المواطنين المتواجدين في شبه جزيرة إيطاليا، والذين لم تعد لهم أية قابلية أو فرصة للعمل بانتظام في الزراعة، مما جعل قيصر يتجه إلى إنشاء مستعمرات تتيح الفرصة لممارسة الصناعة والتجارة ومن ثم فهو يحل مشكل العاطلين الذين يكونون عبئا ثقيلا على الخزينة العامة أو يشكل خطرا جسيما على استقرار الأوضاع السياسية[107].

2) الأهداف الحضارية

يتمثل دور هذه المستعمرات في نشر الحضارة الرومانية أو كما أراد لها أغسطس أن تكون منارات إشعاع للثقافة والفكر الرومانيين، ولطبع حوض البحر المتوسط بطابع الحضارة الإيطالية[108]، وقد حاول بلين الكبير[109] تمجيد روما عن دورها تجاه شعوب العالم حين قال : "إن إيطاليا هي أم بقية أراضي العالم، لقد اختارها الإله لجعلها السماء الأكثر لمعانا، وجمعها الإمبراطوريات المنتشرة، ولتلطيف العادات ولاقتراب اللغات المختلفة والمتوحشة لمختلف الشعوب، ولإعطائها للبشر القدرة على التفاهم وبعبارة واحدة لتصبح الموطن الأوحد لجميع أمم العالم ." ويذهب إلى أبعد من ذلك عندما يضيف "فلتظل بركة الإله أزلية ما دامت أعطت للعالم الرومان، كنور ثان لإنارته." [110]، ودائما في هذا الصدد، تغنى أحد الغاليين بالرومان قائلا " . لقد كونت للأمم المختلفة، موطنا واحدا وخير ما فعلت، عندما أخضعت شعوبا لا تعرف القانون، وتقاسمت مع الشعوب المهزومة قوانينك الخاصة وحولت العالم إلى مدينة Urbem fecisti quod prius orbis erat " [111].

(للإطلاع على مواقع المستعمرات الإفريقية، راجع الخريطة رقم 19)

وقد عمدت روما منذ وقت مبكر إلى إقامة مستعمرات لقدماء المحاربين لتحقيق عدة أهداف وغايات، يمكن حصرها فيما يأتي :

- التخلص من مشكل قدماء المحاربين الذين عملوا في المنطقة أو خارجها، ولم تكن لهم الرغبة في العودة إلى مواطنهم الأصلية بعد أن انقطعوا عنها مدة زمنية طويلة .

- تجنب المشاكل التي قد يحدثونها إذا ما عادوا إلى إيطاليا بصفة عامة ، وروما بصفة خاصة، حيث بعد مشاركتهم في الحروب التوسعية ولمدة زمنية طويلة، أصبحوا لا يحسنون أية مهنة سوى الحرب، وإذا ما عادوا إلى الحياة المدنية واستقروا في روما، يتحولون إلى عاطلين وكل ما يترتب عن ذلك من أحداث الشغب، وعالة على السلطة حيث تصبح مضطرة إلى توفير لهم الحد الأدنى للحياة .

أهم المستعمرات الرومانية في المغرب القديم

- استغلال الأراضي التي ما انفكت روما تستولي عليها، بعد طرد أصحابها الشرعيين إلى المناطق الفقيرة كالجبال والصحراء، لذلك كان قدماء المحاربين يوطنون في المناطق الخصبة التي تسمح لأصحابها بتحقيق مداخيل معتبرة .

- مساعدة الفرق العسكرية في مهاجمة أي خطر عند الضرورة دفاعا عن أراضيهم والوجود الروماني، ولهذا أقيمت عدة مستعمرات لقدماء المحاربين بالقرب من المراكز العسكرية، وفي الأماكن الإستراتيجية .

- جعل هذه المستعمرات مراكز إشعاع للحضارة الرومانية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، أي نشر اللغة اللاتينية ونمط المعيشة الروماني والتقاليد والعادات الرومانية، وبصفة عامة العمل على إبراز محاسن الحضارة الرومانية، ومدى تفوقها على مثيلتها المحلية، أملا في جلب الأهالي نحوها وتخليهم عن مقومات شخصيتهم والانسلاخ عن أصلهم، وقبول الوجود الروماني وتدعيمه والدفاع عنه .

- ورغم أن المؤرخين القدماء والغربيين المعاصرين يؤكدون أن روما ؛ عند تدميرها قرطاجة ؛ لم تكن تحمل أي مشروع استعماري في منطقة المغرب القديم، فإن الواقع الميداني يفند ذلك، فقد جاء مشروع الاخوة جراكوس المتمثل في نقل عدد من المعمرين الإيطاليين إلى قرطاجة لتحسين ظروف معيشتهم . ثم تقوت هذه السياسة مع القائد ماريوس الذي أقام عدة مستعمرات في الحوض الأوسط لوادي مجردة (باغرداس Bagradas) كما سبق ذكره. وقد وقع اختيار مواقع هذه المستعمرات بدقة حيث تتميز بخصائص طبيعية وجغرافية مهمة، فالماء متوفر والتربة خصبة ذات مردود زراعي جيد، كما يسمح موقعها بمراقبة الاتصالات بين مقاطعة نوميديا وأفريقية (Africa)[112].

ونظرا لحيوية المنطقة الاقتصادية، سرعان ما انضم إلى المعمرين عدد كبير من التجار ورجال الإعمال الإيطاليين، وقد مثلوا النواة الأولى لنشر الحضارة الرومانية في شرق نوميديا .

وقد عرفت سياسة إقامة المستعمرات لقدماء المحاربين وتيرة متسارعة ابتداء من فترة حكم أغسطس (Auguste)، وسواء كان الغرض منها تدعيم سياسة الرومنة،

أو حل مشاكل روما السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعد الحروب الأهلية، حيث وجد حوالي ثلاثمائة ألف جندي مسرح[113]، كان على الإمبراطور أن يوفر لهم وسائل عيش مقبولة، خاصة أن معظم هؤلاء فقدوا كل أملاكهم في إيطاليا بعد انخراطهم في الجندية[114]. وقد اعتبرت منطقة المغرب متنفسا لروما، والمناسبة لحل مشاكل الجنود المسرحين والإمبراطور، خاصة أن الظروف الطبيعية والمناخية السائدة في شمال إفريقيا مشابهة للظروف السائدة في جنوب شبه جزيرة إيطاليا[115]. وفي هذا السياق أقيمت عدة مستعمرات تخدم المصالح المادية للجنود المسرحين من جهة، ومصالح الدولة الرومانية من جهة أخرى، بحيث توفر لها قوة إضافية تدعم الجيش النظامي في التصدي لخطر الأهالي، وكذلك مراكز لنشر الحضارة الرومانية واستمالة الأهالي، بإبراز محاسن الحياة الرومانية. فوقع تأسيس عدة مستعمرات حول قرطاجة، تتمثل في ماكسولا (Maxula) [116] وأوتنا (Uthina) التي استوطنها جنود قدماء، كانوا ضمن فرقة ترسيادكيما[117] (Tertiadecima) ومستعمرة تبوربو مايوس (Thuburbo Majus)[118] التي استوطنها قدماء المحاربين لفرقة أكتافا (Octava). وفي إفريقية الجديدة، أسست عدة مستعمرات منها شمتو (Simithu)[119] والكاف (Sicca Veneria)[120] وطبرقة (Thabraca). كما امتدت سياسة إقامة المستعمرات لقدماء محاربي أوكتافيوس[121] إلى مقاطعة موريطانيا حيث أنشئت مستعمرات ساحلية منها جيجل (Igilgili)[122] وبجاية (Saldae) وروزسوس (Rusazus)[123] وروسغناي(Rusgunae)[124] وغوراية (Gunugu)[125] وتنس (Cartennae)[126] .

إلى جانب هذه المستعمرات، أقيمت أخرى في المناطق الداخلية في هذه المرة، تتمثل في تيكلات (Tubusuptu)[127] وأكواي كالداي (Aquae Calidae) ومليانة(Zucchabar)[128]، وبموريطانيا الطنجية في أقصى غرب المغرب، أقيمت مستعمرات زليس (Zilis)[129] وبابا (Babba)[130] وبناسا (Banasa)[131].

وقد شهدت سياسة إقامة المستعمرات توقفا طيلة حكم تيبريوس (14/37 Tiberius م.) وكالغولا (37/41 Caligula م.)، لتنشط من جديد فيما بعد، خاصة ابتداء من فترة حكم الإمبراطور فسباسيانوس (69/70 Vespasianus م.).

ويتضح مما سبق، أن عملية إقامة المستعمرات لم تنحصر في منطقة محددة نظرا لتعدد الأدوار الموكلة لها، بحيث مست كل مقاطعات المغرب من طرابلس إلى موريطانيا الطنجية مرورا بنوميديا وموريطانيا القيصرية، كما أنها امتدت من المنطقة الساحلية إلى حافة الصحراء، ولتسهيل تمركز قدماء المحاربين، لم تتوان روما في منح هؤلاء مختلف المساعدات، فإلى جانب الأرض ومنحة التقاعد (sio-Hones mis) التي وصلت إلى 12000 سيسترس بالنسبة لجنود الفرق [132]، أنجزت السلطة الرومانية أعمالا ضخمة في مجال تهيئة الأرض[133]، ومشاريع الري المختلفة كإقامة السدود على مختلف الأودية[134]، وإنجاز قنوات نقل المياه (Aqueduc)، وحفر الآبار لتوفير مياه الشرب للمعمرين ولري الأراضي الزراعية [135]، وفي هذا الإطار دائما، أسس الإمبراطور فسباسيانوس مستعمرتي حميدرة (Ammaedara) التي تقع في قلب بلاد الموسلاميين، بعد أن غادرتها الفرقة الأغسطية الثالثة[136] إلى مدينة تبسة سنة 75 م. حتى يضمن مواصلة الضغط على هذه القبائل، ومنعها من استغلال الفراغ الذي أحدثه تحويل مقر الفرقة الأغسطية الثالثة للثورة، كما أسس مستعمرة مداوروش (Madaure)[137] في منطقة لم تصلها التأثيرات الرومانية إلا بشكل محدود جدا، ولذلك جاء تأسيس هذه المستعمرة لترسيخ القيم، والثقافة الرومانيين وسط قبائل الموسلاميين، التي تمتد أراضيها جنوب هذه المستعمرة ، وفي نفس الوقت حماية الأراضي الشمالية من خطر الأهالي الذين ينطلقون من الجنوب لغزوها . بالإضافة إلى ذلك تم تأسيس مستعمرة تبسة، بعد نقل الفرقة الأغسطية الثالثة إلى لامباز، بهدف ملء الفراغ الذي تركته هذه الأخيرة، وتأمين المواصلات بين قرطاجة ومداوروش وكيرتا، إلى جانب الأهمية الاقتصادية التي تكتسيها المنطقة، بفضل تطور وتوسع زراعة الزيتون، مما جعلها تصبح قطبا لإنتاج الزيت، دون إهمال الدور الحضاري الذي يمكن أن تلعبه . ومع نهاية القرن الأول الميلادي، أقام نيرفا (Nerva) مستعمرتي سطيفيس[138] بموريطانيا القيصرية، التي تتمتع بموقع استراتيجي هام، حيث تتوسط المرتفعات الجبلية الوعرة في الشمال ومنطقة السهوب في الجنوب من جهة، وتشرف على

سهل خصب يلائم زراعة الحبوب التي تكون الغذاء الأساسي للمجتمع الروماني من جهة أخرى، ومستعمرة جميلة (Cuicul) في مقاطعة نوميديا[139] ذات الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية، وعلى هذا النحو تسارعت وتيرة إقامة المستعمرات في فترة حكم تراجانوس (Trajanus)، الذي أسس ثموقادي (Thamugadi) في 100 م. وقد كانت مركزا عسكريا قبل أن تتحول إلى مستعمرة، بالإضافة إلى لامباز (Lambaesis) التي يسمح لها موقعها للتوغل في منطقة الأوراس، ومراقبة المدخل الشمالي لمعبر القنطرة بوابة الصحراء، وهو ما يمكن اعتباره تقدما في المناطق الداخلية.

لقد استمر هذا المجهود بعد هذه الفترة من طرف الأباطرة الرومان لكن بوتيرة متفاوتة من فترة إلى أخرى، وامتد حتى حافة الصحراء حيث رأ ت روما ضرورة إشراك قدماء المحاربين في صد خطر البدو الرحل الذين يغزون الأراضي الشمالية انطلاقا من الصحراء، وذلك بتدعيمها خط الليمس بواسطة مراكز عمرانية واقتصادية للجنود المسرحين، وقد تحول بعض هذه المراكز مع مرور الوقت إلى مدن تلعب أدوارا عديدة، فهي تستغل الأراضي الزراعية التيْ تتوفر عليها، وتنشط التجارة بين المناطق الشمالية والجنوبية، وعند الضرورة يتحول قدماء المحاربين إلى جنود يساندون الفرق النظامية في ردع أي خطر داهم .

ومن المراكز التي أقيمت على حافة الصحراء، يمكننا ذكر تاملولة (Respublica Thamallulensium) (رأس الوادي)[140] التي تقع على وادي القصب، ونظرا للتطور الاقتصادي والاجتماعي الذي شهدته ارتقت إلى مستوى بلدية على يد كاركلا [141]، وهو ما تؤكده نقيشة تعود إلى سنة 215 م. [142]، بعدها وفي اتجاه الغرب نجد مركز أولاد عقلة (Equizetum)[143] التي تقع في السفح الشمالي الغربي لجبل المعاضيد بالمجرى الأوسط لوادي القصب، عند مدخل الممر الواقع بين الجبل سالف الذكر وجبل ونوغة ، ومركز خربة زرقة (Cellas)[144]، الذي أقيم على وادي بوجدير الممر الرئيسي بين جبلي تاشريرت وبوطالب، وهنشير رمادة (Macri oppidum)[145] التي كانت مركزا زراعيا محصنا على ضفاف وادي رمادة

شمال الحضنة[146]، في سفح جبل شارة ومغرة على هضبة يصل ارتفاعها إلى 890 م.، ومدينة بشيلغا (Zabi) [147] وتارمونت (Arras)[148] وغيرها من المراكز الأخرى .

(الجدول رقم 16)

البلديات الرومانية (Oppidum Civium Romanorum)

الإسم	مؤسسها	المصدر أو المرجع
بورتوس ماغنوس (Portus Magnus)	الإمبراطور أغسطس	Pline l'ancien , H .N., V, 19
روسوكروم (Rusucurum)	الإمبراطور كلود	Ibid , V, 20
توبورنيكا (Thuburnica)	الإمبراطور هادريان	Ibid , V, 29
السيرت	قبل فترة حكم أغسطس	Ibid,
فاغا (Vaga)	قبل قيصر	Ibid , V, 30
أرسيناريا	مجهول	Ibid , V, 19
تيبازة	الإمبراطور فسباسيان	Ibid , V, 20

(الجدول رقم 17)

نماذج من البلديات المختلفة في المغرب القديم وفقا لتاريخ تأسيسها

اسم البلدية	مؤسسها	المصدر أو المرجع
عنابة	الإمبراطور أغسطس (27 ق.م./14 م.)	Gascou (J) , op cit , P, 34
حمام دراجي	//	Ibid , P, 33
خميسة	الإمبراطور دومسيان (96/81)	Ibid , P, 39
لبدة	الإمبراطور تراجان (117/98)	Ibid , P, 35
قفصة (Capsa)	//	Ibid , P, 89

خميسة وقالمة	//	I.L.Alg ., 1240 ,1244 ,1300 C.I.L., VIII, 5351
القصرين وسبيبة	//	Gascou (J) , op cit , P, 30
مدانة (Althiburos) زيامة منصورية (Choba) تلمين (Turris Tamalleni) هنشير القصبة(Thuburbo Maius)	الإمبراطور هادريان (138/117 م.)	Benabou (M) , op cit , P, 133 Gascou (J) , op cit , P, 134 Atlas Archéologique de Tunisie , I , f, 37
تزيكا (Thizika) قرب وادي مجردة	//	Ibid , P,122
بوفنتيس (Avitta) جنوب قرطاجة	//	A.A.T., f, 36
هنشيربسعة(Bisica Lucana) جنوب غرب قرطاجة	//	Ibid ,
هنشير السّوار(Abthugni)	//	A.A.T., f, 41
بوغارة (Gigthis) جنوب شرق قرطاجة	الإمبراطور أنتونان (161/138)	Gascou (J) , op cit , 137
هنشير المعدن (Vina) جنوب شرق قرطاجة	الإمبراطور مارك أورال (180/161 م.)	A.A.T., I , f, 31
هنشير الجرّا (Sagernes)	//	Ibid , f, 38
لمباز	//	A.A.A., f, 27
القصبة	//	Gascou (J), op cit , P, 148
مركونة (Verecunda)	//	A.A.A., f, 27
تبرسق (Thubursicum bure)	//	A.A.T., I, f, 35
عين تونجة (Thignica)	الإمبراطور سبتموس سيفروس (211/193)	Ibid , f, 28
سوق اهراس	211 م.	A.A.A., f, 18 ,n° 340
قلعة بوعتفان (Veteranorum Diana) (قالمة)	مجهول	Ibid , f, 18 , n° 200
طبنة (Thuburnica)	//	Ibid , f, 37 , n° 70
قصر بغاي (شمال خنشلة)	//	Ibid , f, 28

الجدول رقم 18

نماذج من المستعمرات المختلفة التي أسست في المغرب القديم وفقا لتاريخ تأسيسها

اسم المستعمرة	تاريخ تأسيسها	المصدر أو المرجع
يونيا	122	
هنشير الدواميس، تنباريس، سيدي علي بلقاسم	105 ق.م. (القائد ماريوس)	Caesar , bell. Afr. XXXII, 3 ; XXXV, 5 ; LVI , 4
رأس الطيب (Caput M)، عنابة، نابل مرايسية، بنزرت، قليبية	50 ق.م.	Ibid , P, 41
القل، ميلة، سكيكدة، قسنطينة	46 ق.م.	Benabou (M) , op cit , P, 39
رادس (Maxula)، هدنة (Uthina)، طبربة (Thuburbo Minus)، الكاف، شمتو	عهد الإمبراطور أغسطس	A.A.T., I , f, 30
جيجل، بجاية أزفون، سيدي ابراهم، تتمس، تكلات حمام ريغة، مليانة ،	//	Pline l'ancien ,H.N. V, 20,21, A.E., 1940,20 ; 1921, 16; 1956, 160
سبيطلة (Sufetula)، القصرين (Cillium)، مداوروش، حيدرة	عهد الأسرة الفلافية (96/69)	A.A.A., f, 18 , n° 432 Gascou (J) , op cit , P, 29
جميلة، مويتي (Mophti)، سطيف	بين فترة حكم نيرفا وتراجان (117/96 م.)	B.A.C., 1946/49 , P, 345 Gascou (J) , op cit , P, 108
سوسة	//	C.I.L., VI, 1687
المدينة القديمة (Thelepte)	عهد الإمبراطور تراجان (117/98)	C.I.L., V, 211- 216
لمطة (Leptis Magna)	//	Gascou (J) , op cit , PP, 35-81
سبراطة، لبدة (Oea)	//	Ibid , PP, 82/83
شوقادي	100 م.	Ibid , P, 39
حمام دراجي، هنشير لريس (Lares)، هنشير تينة (Taenae)، تيبازة، أتيكا، سبع أبيار (Zama regia)	عهد الإمبراطور هادريان (117/138 م.)	C.I.L., VIII , 25522 ; C.I.L., VI, 1685 ; A.A.T., II , f,29, n° 70

مكثر	عهد الإمبراطور مارك أوريل (161/180 م.)	A.A.T., II, f, 30
هنشير السبيبة (Sufes)	//	Ibid , f, 36
سوق الأبيض (Pupput)	عهد الإمبراطور كومود (180/192م.)	A.A.T., I , f, 39
عنابة	عهد السيفيريين (193/235 م.)	Gascou (J) , op cit , P, 34
باجة (Vaga)		A.A.T., I , f, 20 , n° 128
حيدرة	القرن الثالث م.	Toutain (J) , op cit , P, 316

وتفيدنا معطيات النقوش اللاتينية، وقوائم القناصل التي سجلها الأساقفة، أنه بعد أن سجّل في إفريقيا، في العهد الإمبراطوري الأول وجود 500 مدينة على الأقل، تراجع هذا العدد إلى 144 مدينة بعد القرن الثالث الميلادي، وبالذات في عهد الفوضى العسكرية، التي بدأت مع جورديان الثالث (Gordien III) حتى نهاية الإمبراطورية، حيث وصل عدد البلديات إلى 82 بلدية وعدد المستعمرات إلى 62 موزعة على النحو التالي :

افريقية البروقنصلية : 37 بلدية و27 مستعمرة .

بيزاسيوم (المزاق): 9 بلديات و11 مستعمرة .

موريطانيا القيصرية : 9 بلديات و10 مستعمرات .

موريطانيا السطايفية : 11 بلدية و3 مستعمرات .

نوميديا : 11 بلدية و7 مستعمرات .

طرابلس : 5 بلديات و4 مستعمرات[149].

بعد عرضنا لنماذج من البلديات والمستعمرات التي أنشأها الرومان في المقاطعات الإفريقية يتجلى ما يلي :

* يعود إنشاء أول المستعمرات في قرطاجة إلى عام 122 ق.م.، وفي نوميديا إلى نهاية حرب يوغرطة في 105 ق.م. بمعنى آخر في أواخر عهد الممالك، وامتد حتى

عهد السفيريين سنة 235 م.، حيث تسارعت وتيرة إنشاء المستعمرات في فترة حكم تراجان، وهادريان وماركوس أورليوس، لكن برز في هذا المجال الإمبراطور كاركلا، الذي منح حقوق المواطنة الرومانية لجميع سكان مقاطعات الإمبراطورية الأحرار في عام 212 م.، بهدف إلغاء الفوارق بين المواطنين الرومان الأصليين والجدد في مجال الضرائب، وإلغاء الاختلافات القانونية بين هؤلاء جميعا[150]، وبذلك فهو يعد أكبر المشجعين على سياسة الرومنة .

* بحكم تاريخ تأسيسها ومواقعها، نلاحظ أن البلديات والمستعمرات بأنواعها، امتدت من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب تدريجيا تماشيا مع الاحتلال، حيث أنشأتها روما أولا في المناطق الساحلية ثم الداخلية وأخيرا في مشارف الصحراء .

* شملت ظاهرة إنشاء البلديات والمستعمرات كل بلدان المغرب عموما، لكنها كانت قليلة في طرابلس وفي أقصى غرب موريطانيا . وقد اعتبر الكثير من المؤرخين الغربيين ومنهم م. أ. روستوفتزاف[151]، أن قرار كاركلا ساعد على الرفع من مكانة سكان الولايات إلى مستوى سكان إيطاليا، لكن نلاحظ أن هذا القرار لم يعن بالضرورة إعفاء سكان الولايات، على نحو سكان شبه جزيرة إيطاليا من الالتزامات المفروضة عليهم، كالضريبة العقارية والاعتراف بملكية الأرض وغيرها .

* أدت الفوضى العسكرية التي كان سببها الصراع على السلطة في المقاطعات، إلى هجرة المدن الرومانية المختلفة كالبلديات والمستعمرات، الأمر الذي ترتب عنه تقلص في عددها .

* بفتح الجيش أمام الأهالي، وسعيهم الدؤوب إلى المساهمة في تحقيق السلام الروماني، وبإسكانهم في المدن الرومانية وفق شروط معينة، تكون روما قد شجعتهم على نيل حقوق المواطنة الرومانية، وبالتالي على رومنتهم.

* وحتى نلتزم بالموضوعية في بحثنا، ينبغي أن نتقبل أن فكرة سياسة الرومنة سواء عن طريق التجنيد، أو تحقيق السلام الروماني أو الإقامة في المدن الرومانية،

كان أمرا واردا في المقاطعات . حيث لولا تجنيد الأهالي لما تمكنت روما من احتلال الأراضي الشاسعة المكونة للإمبراطورية، ولولا إقامة السلام الروماني لما استطاعت أن تشرع في استعمار استيطاني، وفي تطبيق سياسة التمدين، كما تشهد على ذلك المعالم الأثرية المنتشرة عبرها .

منشآت المدن الرومانية في المقاطعات

نعني بتأسيس المدن بناء مباني جديدة كالمجالس القضائية، والمراكز الإدارية والمنشآت الاجتماعية، كالحمامات والمسارح والمدرجات والمساكن الفاخرة (Villae)، وغيرها من المباني المدنية، بهدف تحقيق الرفاهية للرومان وأتباعهم، وفي النهاية سعي روما لإعطاء صبغة رومانية للمقاطعات، بإدخال مبادئها على الفن المعماري السائد في الأراضي التي دخلت في حوزتها، وإلغاء نمط البناء التقليدي وطريقة الحياة المحلية والتنظيم السياسي والاجتماعي، الذي كان سائدا فيها قبل الاحتلال الروماني، ومن ثم جعل كل مدينة رمزا لنظام ديني واجتماعي وسياسي وثقافي، يكون دعما قويا لسياسة الرومنة . ذلك أن المدن التي تحتوي في مجملها على مساكن فردية وأسرية للمعمرين الجدد، ينبغي أن تسعى دائما لإيجاد الوسائل الخاصة بحياة اجتماعية مشتركة، وأن تكون هذه الأخيرة صورة مطابقة للحياة في مدينة روما، وفرض هذا النمط في أراضي مقاطعات الإمبراطورية كإفريقيا وغيرها، يعني بالضرورة إقصاء وإبعاد سكان الأرياف والقرى المحتلين، الذين تم تشريدهم، وتهجيرهم من مراكزهم السكنية، لا لشيء إلا لأن نمط معيشتهم يختلف عن النمط الروماني، ولأن تفكيرهم خاصا يختلف عن تفكير الغزاة، ولأن محافظة الأهالي على أسلوب معيشتهم، يجعلهم أكثر تماسكا وتلاحما مما يزيد من قوتهم ويشجعهم على مقاومة المحتلين .

رغم أن المقاطعات لم تتحول كلها إلى بلديات ومستعمرات لا يقطن بها إلا المواطنون الرومان الأصليون، ورغم أن بعض المقاطعات الشرقية كمصر احتفظت بتنظيمها السياسي، كونها متقدمة في مجال التنظيم والقوانين، عكس المقاطعات

الأخرى التي تفتقر إلى ذلك، فإن روما رغم سيطرتها على الأراضي والمدن المصرية، سمحت لها أن تمتع بوضعية مميزة وفق معاهدة ثنائية، وتتلخص هذه الوضعية في الاحتفاظ بحكم ذاتي، وبنوع من الاستقلالية في تسيير شؤونها الداخلية، وفي إدارة مجالسها السياسية المحلية . لكن سرعان ما فقدت هذه المدن هذا الامتياز، وتحولت إلى مستعمرات لها قوانينها الخاصة، حيث أصبح لكل واحدة مجلس للشيوخ (Senat)، وجهاز انتخاب شعبي وقضاة منخرطين في اتحادات (Colléges) يلعبون دور القناصل ...[152]

على هذا النحو، بدأت تتكون في مدن المقاطعات خلايا سياسية، لم تتوقف عن التزايد في البلديات والمستعمرات، والتي عن طريقها أخذ المواطنون الرومان المستقرون، يؤثرون في سكان القرى المتاخمة لمدنهم بشتى الطرق والوسائل والأساليب . ولتأكيد الأهداف المرجوة من إنشاء المدن الرومانية، والمتمثلة في رومنة أهالي المقاطعات، حرصت روما على تجسيد الأسس العامة لتنظيم مدن الولايات على نمط المدن الرومانية، وذلك باختيار موقع المدينة المراد إنشاءها، ورسم شكلها بدقة وتحديد أحيائها المختلفة، والأجهزة الأساسية التي تقام بها .

بعد القيام بهذه الإجراءات التقنية تقوم روما بتطبيق الشعائر التي سار عليها روملوس (Romulus) عند تأسيسه مدينة روما، والمتمثلة في تحديد المدينة بخط المحراث . والغرض من ذلك يكمن في وضع المدينة الجديدة تحت حماية الآلهة الرومانية المتمثلة في الثلاثي يوبتر (Jupiter) أكبر الآلهة الرومانية وسيد السماء والأرض ، ويونو (Junon) زوجة يوبتر وسيدة السماء وحامية النساء، ومنرفة (Minerve) إلهة الآداب والفن والموسيقى والحكمة والذكاء، التي حظيت بمعبد يكوّن ما يعرف بالكابتول بمعنى رأس المدينة[153]

1) آثار إنشاء المدن الرومانية في المقاطعات على الأهالي

بعد جمع غنائمها ومصادرة أراضيها، وتعميرها بالمعمرين واستغلالها، شرعت روما في تطبيق المرحلة الثانية من خطة الاحتلال المتمثلة في إدماج أهالي

المقاطعات في المجتمع الروماني، بإسكانهم في مدن جديدة يتطابق تصميمها ومعالمها ونمط معيشة سكانها مع مثيلاتها السائدة في روما .

- إن إسكان الأهالي في المدن الرومانية يعني إلغاء المظاهر الحضارية المحلية، وتعويضها بمظاهر رومانية، وهو ما دأبت روما على إعتباره، عملية تحضير وتمدين الأهالي.

- سمحت عملية إسكان الأهالي في المدن الرومانية، بعد استفادتهم من الجنسية الرومانية بمساهمتهم في الحياة السياسية والاقتصادية . وإذا كانت هذه المساهمة لا تتجاوز حدود المدينة في المجال السياسي، فإنها في المجال الاقتصادي تجاوزت ذلك . حيث ساهم بعض الأهالي في مجالس الشيوخ لكل مدينة مثل مزارع مكثر بغرب تونس [154]، الذي أصبح رقيبا (Censor) . وفي المجال الاقتصادي استطاع البعض الآخر جمع ثروة، مكنتهم من التحول إلى رجال مال وأعمال كبار، لهم وزنهم في الحياة الاقتصادية والعلاقات القائمة بين الولايات وروما، كأن يكونوا بحارة (Navicularii) يملكون سفنا لنقل البضائع .

- صحيح أنه بالنسبة للأهالي، امتلاك سكن في المدن الرومانية والإقامة به، يعني المشاركة في مجالسها المختلفة كمجلس الشيوخ والقضاء وغيرها، لكن ما ينبغي معرفته، هو أن هؤلاء لم يلعبوا إلا دورا رمزيا، ما دامت النظم والقوانين والإصلاحات بيد روما وحدها، ولا يمكن للأهالي بأي حال من الأحوال تغييرها، حتى وإن كانت جائرة في حقهم ولا يسمح حتى بتعديلها لتحسين أحوالهم .

- بإنشائها المدن، عكفت روما على استقطاب الأهالي بعد تشجيعهم على الاستقرار بها بغرض مراقبتهم ورومنتهم، وقد لقيت استجابة من طرف بعض الأهالي الذين تأقلموا مع المعطيات الجديدة . لكن هل هذا يعني ذوبانهم في الحضارة الرومانية وانسلاخهم انسلاخا كاملا عن أصلهم، أم أنهم أصبحوا يتشبهون بالرومان الأصليين ويقلدونهم، مثل استعمالهم اللغة اللاتينية بدل لغتهم الأصلية ؟ لكن يلاحظ أنه مهما بلغت درجة تقليدهم وإتقانهم للغة الغزاة، فإن

البصمات الخاصة بهم سوف تبقى سائدة لا تزول، وتبرز في حديثهم بها أو في كتاباتهم .

- بفرضها الأنماط الرومانية السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية في المدن الرومانية بالولايات، حرصت روما على إدخالها تدريجيا على الأهالي الذين يجهلونها كلية، حتى ؛ ربما ؛ يستحسنونها ويتأقلمون معها تلقائيا، بدل فرضها بالقوة، وإجبارهم على تقبلها عن كره ودفعهم إلى النفور منها، برحيلهم إلى أراضي لم يصلها الرومان وظروف العيش فيها شبه مستحيلة

- هل تقمص الأهالي في الولايات لنموذج الحياة عند الرومان سمح لهم بتحقيق السعادة والرفاهية التي يطمحون إليها، خاصة عندما نعرف أن تبني هؤلاء للسياسة الرومانية لم يكن عن قناعة، بل أملته ظروف معروفة .

2) آثار إنشاء المدن في المقاطعات على روما

استغلت روما تأسيس المدن الرومانية لتثبت وجودها من جهة، ومن أجل جعل الأهالي يتلهفون لكسب "امتيازات" توفرها لهم روما ويتجلى ذلك مما يلي :

- أن الاستقلال الذي منحته روما لبعض المدن الحرة كان شكليا، ورغم ذلك سرعان ما ألغي وعوض بحكم روماني مباشر .

- عدم فتح البلديات الرومانية إلا لمن تحصلوا على الجنسية الرومانية، إما بعد انخراطهم في الخدمة العسكرية أو بعد تقديمهم أعمالا جليلة لروما، ويستنتج من هذا أن الرومان استغلوا سعي الأهالي تحسين أوضاعهم، لتشجيعهم على خدمتهم إلى أبعد الحدود .

- جعل المدن الرومانية درجات كالمدن الحرة والخاضعة والمعفاة من الضرائب والبلدية اللاتينية فالرومانية ثم المستعمرة . ولكل واحدة منها حقوق متفاوتة، ولأن الارتقاء من درجة إلى أخرى يعني تحسن مستوى المعيشة، كان الأهالي والرومان يقدمون مختلف التضحيات إلى روما من أجل الظفر بترقية مدينتهم.

– لقد أثير مرات عديدة في موضوع الرومنة عن طريق إنشاء المدن، الوسائل الخاصة بالحياة المشتركة داخلها ؛ مثلما أثيرت فكرة تقاسم الموارد الاقتصادية بين الرومان والأهالي . وفي الحقيقة هذه الفكرة قابلة للنقاش لأن المقصود به من منظور الرومان، هو ليس الأخذ بمختلف أنماط الحياة المحلية لكل مقاطعة ومزجها مع الأنماط الرومانية، لتتولد إثرها أنماط معيشية جديدة مشتركة، تناسب وتليق بسكان المدن الرومانية في الولايات والمقاطعات، بصنفيها الروماني الأصلي والروماني الجديد من الأهالي، وإنما فرض الأنماط الرومانية وحدها، دون إحداث تعديلات من شأنها لمّ جميع سكان هذه المدن في قالب واحد يرض الطرفين، يشعر فيه كل واحد أنه طرف فاعل في تكوينه، وهذا في اعتقادنا لم يتحقق .

بعد هذا العرض الموجز للسياسة التي تبنتها روما في مجال رومنة الأهالي، وبدون شك أن الأفارقة كغيرهم من أهالي ولايات الإمبراطورية، استفادوا من الجنسية الرومانية سواء بعد انخراطهم في الجيش الروماني، أو بمساهمتهم في تحقيق السلام الروماني، أو بعد تمركزهم في البلديات والمستعمرات، وكان يهمنا في هذا الصدد معرفة نسبة هؤلاء.

في الواقع، حقيقة كهذه لن تتأتى إلا بعد دراسة شاملة ودقيقة لعلم الأسماء (Onomastique) الخاصة بأهالي المقاطعات الإفريقية، إذ دأب الأهالي الذين يحصلون على حقوق المواطنة الرومانية بشكل فردي أو جماعي، على تبني قاعدة الاسم الثلاثي (Triana nomina) السائدة في المجتمع الروماني، والمتكون من ثلاث أسماء هي الاسم (Prenomen) واللقب (Nomen) والكنية (Cognomen)، وفق قواعد دقيقة. وقد حاولت الباحثة مونيك داندون لابير[155] كما جاء في بداية هذا البحث، إعطاء صورة عن عدد المرومنين وتوزيعهم زمنيا وجغرافيا، لكن دراستها رغم أهميتها تعد في نظرنا ناقصة، لأسباب عديدة سنحاول معالجتها في آخر بحثنا.

الهوامش

1) Deleage (A) , Les cadastres antiques jusqu à Diocletien , le Caire , 1934 , P, 262

2) Benabou (M) ,La résistance africaine à la romanisation , edit. Maspero , Paris, 1976 , P, 30

3) شنيتي (محمد البشير)، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية وسقوط موريطانيا نهائيا (146 ق.م. /40 م.)، الجزائر 1982، ص، 75

4) Recherches sur un aspect de la romanisation de l Afrique du nord : L expansion de la citoyenneté romaine jusqu à Hadrien , Ant. Afr. , 17 , 1981 , PP, 93/94

5) Ibid , ·

6) Ibid , P, 98

7) Histoire naturelle , liv. III , 39 , texte etabli et traduit et commenté par Desanges (J) , Paris 1980

8) Panagyrique de Trajan , 32

9) Eloge de Rome , 97/100

ويتبلور من تصريح م.ب. تشارلز وورث " أن الكثيرون من الشبان من أبناء الولايات، ممن كانوا على استعداد تام للإقبال على حياة تبشر بالمغامرة والمجد، فضلا عما تحمله من أمل في نيل حقوق المواطنة الرومانية، عند إنهاء مدة الخدمة العسكرية التي كانت تصل ؛ بالنسبة لهم ؛ إلى خمس وعشرين سنة، كما أصبح من الممكن في الغالب، وبمضي الزمن سد النقص في صفوفهم بأبناء الولايات التي يرابطون فيها "، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبد جرجس، مراجعة محمد صفر خفاجة، مصر 1961، ص، 44.

10) Salles (C) , L'antiquité romaine des origines à la chute de l'empire, Paris, 1993 , P, 151

11) تشارلز وورث (م.ب.)، المرجع السابق ·

12) يصعب تحديد تاريخ ظهور هذا الحيوان في إفريقيا أمام تضارب الآراء، حيث يرجع تاريخ ظهور هذا الحيوان في نظر البعض إلى العصر النيوليتيكي ،

Shaw , Actes du XVI congrés des orientalistes , 1960 , P, 64

و حسب Xavier de Lanhol ، ظهر الجمل في النطقة في القرن الأول الميلادي

Les fondements géographiques , Paris, 1960 , P, 130 .

بينما يعتقد غوتيي أن هذا الحيوان لم يعرف في إفريقيا إلا في عهد السيفيريين

Gauthier (E.F.) , Le passé de l'Afrique du nord , Paris, 1952 , P, 199

ويذهب غزال إلى إعادة ظهور الجمل في إفريقيا إلى العهد الوندالي

Gsell (S) , La Tripolitaine de le Sahara au III° siecle , Paris, 1933 , P, 154

أمام هذا التضارب يمكن القول، أن الجمل كان موجودا وبأعداد قليلة في نوميديا، ما دام الملك يوبا الأول امتلك قطيعا من هذا الحيوان يتألف من 22 جملا، استولى عليها قيصر بعد انتصاره عليه في 46 ق.م Gsell (S) , H.A.A.N., T, VIII , P, 113ولا ندري إن كان هذا القطيع محليا أو مستوردا ربما من سهل الجفارة الذي ضمه الملك ماسنيسا، ويتوفر على هذا الحيوان . وتجدر الإشارة أنه في العهد الروماني، مارس الرومان تربية الإبل إلى جانب تربية الخيول لأهميتها في المجال العسكري والاقتصادي، كأداة نقل في المناطق الحارة .

13) Rachet (M) , Rome et les berberes , Bruxelles , 1970, P, 101

14) Morvillez (E) , Guillon (J.M.) , Rome et son empire , Belgique 1999 , P, 28

15) Petit (P), Histoire générale de l'empire romain, I. Le haut empire (27 av.J.C/161 ap. J.C., Paris, 1974 , P, 208

16) C.I.L., VIII, 18084

17) C.I.L., VIII, 18035

18) C.I.L., VIII , 18067

19) Albertini (E) , Marçais (G) , Yver (G) , Prigent (E) ,L Afrique du nord française dans l histoire , Lyon , Paris, 1935 et 1955 , PP, 66/67

20) C.I.L., XVI , 56

21)C.I.L., XVI , 99

22) C.I.L., XVI , 75

23) C.I.L., XV, 69 ; C.I.L., IX , 5841

24) C.I L , VI, 3529

25) C.I.L., XVI , 184

26) Aegyptus , 1973 , P, 152

27) C.I.L., V, 6584

28) C.I.L., X , 7600

29) C.I.L., XVI , 108

30) A.E., 1956 , 124 , 1.7

31) C.I.L., IX, 5841 , C.I.L., XVI, 184 , 6970 , C.I.L., V, 3529 , 6584 , A.E, 1909, 104 , 1957 , 59 , 1975 , 870 , ILS, 8867 , Lassere (J.M.) , Les afri et l armée romaine , Africa Romana , V, 1987, PP, 186/188 .

32) Bell. Afri., LV , 4 ; XXIII, 3 ; XXXV , 4

33) Dion Cassius , LXXV, 2, 1, 6

لقد واكب اهتمام الرومان بالمجندين الأفارقة اهتماما ببقية أهالي الإمبراطورية الرومانية كالإغريق الذين كما يقول م.ب. تشارلز : "لم يعد الإمبراطور أغسطس في ذلك الحين ليتردد قط في ضم يونانيين من بلاد آسيا الصغرى إلى مجلس الشيوخ، وفي أن يوليهم قيادة الفرق الرومانية أو حكم الولايات التي كانت لهم بها دراية خاصة . ولم يكن هؤلاء اليونانيين لينالوا حقوق المواطنة أو ليظفروا بالانضمام إلى مجلس الشيوخ إلا بعد امتحان عسير، ذلك لأنه لم يكن من السهل قط كسب رضاء الإمبراطور أو مستشاريه. ولعل من أعظم ما حققته الإمبراطورية، أنها لم تكتف بالسماح لغير الرومان نيل حقوق المواطنة من أجل الخدمات التي يؤدونها، وتقلدهم المناصب العامة، بل وفقت أيضا في اختيار المناسب لقبولهم في الطبقة الممتازة المسؤولة ." المرجع السابق، ص، 28. ويضيف أنه لم يكن هناك أدنى قسط من المبالغة في قول القائد الروماني وهو يخاطب جمعا من الغاليين سنة 70 : أنتم تتولون بأنفسكم . في كثير من الأحيان . مقاليد الحكم في ولايات رومانية، أو تناط لكم قيادة فرق رومانية، فما من شيء مبعد عنكم أو محرم عليكم ." نفسه، ص، 62.

35) Picard (G.C) , Castellum Dimmidi , Alger , Paris, 1948 , PP , 139/155

36) Sandys (J.E) , A companon to latin studies , 3° edit. Cambridge , 1921 , P, 483

37) Baradez (J) , op cit , P, 158

38) Le Bohec (Yann) , L'armée et l'organisation de l'espace urbain dans l'Afrique romaine du haut empire , Africa romana , n° 11,3 , 1994 , PP, 1392/93 .

39) Ibid, P, 1396

40) Ibid.

41) C.I.L., XVI , 23

42) Besnier (M) , Lexique de géographie ancienne , Paris, 1914, P. 63

43) للتوسع راجع C.IL,VI, 31863 ;C.I.L.,XIII, 8223 , 8303 , 8304, 8305, 8692 ,8806 , A.E., 1924, 21 ; 1968 , 400; C.I.L, XVI, 23.; lassere (J.M), op cit , PP, 185/186

44)Dion Cassius , XLVI , 47

45) Ibid , XLIX , 47 ; LI , 17

46) Le Bohec (Y) , op cit , P, 1391

47) Dion Cassius , LV , 32

48) Cagnat (R) , L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs , Paris, 1909 PP, 390/411 .

49) Sandys (J.E.) , loc cit,

50) Code Theod. , VII , 203/208

51) Cagnat (R) , op cit , P, 457

52)الناصري (سيد على)، المرجع السابق، صص، 254/ 256.

53) نفسه، ص، 257

53) LXXVIII, 905 عن الناصري (سيد علي)، المرجع السابق، ص، 265

55)، نفسه لقد أثار التساهل في منح حقوق المواطنة الرومانية تعليقا يقول بأن كلوديوس أراد أن يرى كل شعوب بلاد الغال واليونان واسبانيا وبريطانيا يرتدون العباءة الرومانية (Toge)، لكن إذا فحصنا سياسته نجد أنه وضع شروطا قاسية في وجه هذه الشعوب، فقد كان لا بد من وجود درجة كافية من التأثر بالحضارة الرومانية، بالنسبة للمجتمعات، أما بالنسبة للأفراد، فلا بد من إجادة اللغة اللاتينية وتقديم الخدمات لروما سواء في مجال القوات المسلحة أو في مجال تجارة الحبوب، راجع دونالد (ر، دولي)، حضارة روما، ترجمة جميل بواقيم الذهبي وفاروق فريد، مرجعة صقر خفاجة، القاهرة، دون تاريخ، صص، 263/264

56) Cagnat (R) , op cit , P, 271

57) تشالرز (م.ب.)، المرجع السابق، ص 61.

58) Petit (P) , La crise de l'empire , Paris, 1974 , P, 59 (58

59) لم يستفد الأفارقة المجندون من حق حمل السلاح إلا في أواخر عهد الإمبراطورية عند هجوم الوندال على إفريقيا.

60) Cagnat (R) , op cit , P, 276
61) Ferrero (H) , La marine militaire de l'Afrique , 1884 , P, 177
62) Albertini (E) , L'empire romain , Paris , 1929 , PP, 37 ; 162
63) Ferrero (H) , op cit , P, 162
64) Ibid , P, 172

65) الناصري (سيد علي)، المرجع السابق، ص، 48.

66) Rachet (M) , op cit , P, 274
67) Benabou (M) , La resistance africaine à la romanisation , Paris, 1976 , P, 433
68) C.I.L., VIII , 28079b
69) ILAlg , I , 2989
70) ILAlg , I , 2939
71) Khanoussi (M) , Présence et rôle de l armée romaine dans la region des grandes plaines Afrique prconsulaire) , Africa Romana , IX , 1991 , PP, 319/328
72) C.I.L., VIII , 10570 , 10
73) Benabou (M) , op cit , P, 430
74) Ibid , P, 451
75) Albertini (E) , op cit , P, 15
76) Masqueray (E) , Les ruines romaines de Mascula (Khenchela) , à Besseriani (Ad Majores) , Revue Africaine , 1876 , P, 450 .
77) Gsell (S) , Atlas Archéologique d'Algerie , f, 18
78) Aen. VI , 853_856
79) Histoire . Rom. , pref. VII ; Le Gourrierec (J.M) Les veterans de l Afrique , Paris, 2002 , Payre (F) , Aspects de la romanisation dans les provinces occidentales , Paris, 2001; Pflaum (H. G) , La romanisation de l'ancien territoire de la Carthage

punique à la lumiere des découvertes épigraphiques récentes , Ant. Af. , T, 1 , 1967/1970, PP, 75,115.

80) Grimal ,(P) , op cit , P, 108

81) Ibid

82) Ibid , P, 109

83) Tacite , Hist. , IV, 74 P.C.

84) Ant.Rom I, 3

85) Eloges de Rome , edit. Br.Keil , P, 94

86) Grimal(P) , op cit , PP, 117/119

87) Aristide, op, cit , P, III ; Grimal (P) , op cit , P, 122

88) Grimal (P) , op cit, P, 123

89) Ibid , PP, 124/125

90) Dondon-Payre (M) , op cit , PP, 104/105

91) لقد تمكنت روما من ضم أراضي حوض المتوسط وحولتها إلى مقاطعات بدءا بصقلية (231) ثم سردينيا وكورسيكا واسبانيا ومقدونيا وبعدها قرطاجة في 142 ق.م. وتلتها آسيا الصغرى في 133 ق.م. فبلاد الغال في 118 ق.م. وكذلك بثينا (Bithinie) وقورينه في 74 ق.م. وبعدها كل من كريت وكليكيا وسوريا وقبرص .

92) Pauliat (G.A) , Pauliat (M), Civilisations grecques et romaines, Paris, 1997, P, 120

93) Ibid , PP, 120/121

94) Marquardt (J) , L'organisation de l'empire , Paris, 1889 , T, II , P, 105

95) Rachet (M) , op cit , P, 163

96) Broughton (T.R.S.) , The roman of Africa Proconsularis , USA , 1929 , P, 163

97) Montesquieu , l esprit des lois, T, I , Paris, 1944 , P, 146

98) Petit (P) , Le haut empire , Paris, 1974 , P, 45

99) Grimal (P) , Les villes romaines, Paris, 1958, P, 5

100) Gascou (J) , La politique municipale de l'empire romain en Afrique pro-consulaire de Trajan à Septime Severe , Rome, 1972, P,

101) Ibid , PP, 21-34 ; 86-101

102) Cary (M) , D.Litt (Oxon) , A history of Roman down to the reign of the Constantin , London , 1954 , P, 654 .

103) بلغ عدد البلديات في الفترة الممتدة ما بين القرن الثالث الميلادي ونهاية الإمبراطورية 82 بينما بلغ عدد المستعمرات 62، راجع،

Kotula (T) , Snobisme municipal ou prospérité relative , Recherche sur le statut des villes nord afdricaine solus le haut empire, Ant. Afr. T, VIII, 1974 , P, 118

104) الناصري (سيد علي)، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، القاهرة، 1975، ص، 44 .

105) تاريخ الرومان، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، القاهرة 1978، ص، 180

106) نفسه ،صص، 82/681/ . 83

107) نفسه،

108) الناصري (سيد علي)، المرجع السابق ص، 44.

109) Pline l'ancien , H.N. XXVII , 3

110) الناصري (سيد علي)، المرجع السابق ص، 44.

111) Rutitius Nomatianus , I , 47 , 66 عن Homo (L) , Nouvelle Histoire romaine, Paris, 1969 , P, 320 .

112) op cit , P, 16 Benabou (M) , op cit , P, 36 ; Gascou (J) ,

113) Res gestae , 1,3

114) أنظر ص، واقع الاستعمار .

115) Benabou (M) , op cit , P, 51

116) Pline l'ancien , V, 24

117) وقد سميت " colonia Tertiadecimanorum " Ibid , V, 29

118) Ibid ,

119) C.I.L., VIII, 14612 , 22197

120) Pline l'ancien , V, 3, 22 ; C.I.L., VIII, 27568

121) Pline l'ancien , V, 19, 21

122) Ibid , V , 21 ; C.I.L., VIII, 8931 , 8933

123) Année epigraphique 1921 , 6

124) Ibid ,1956 ,160 ; Salama (P) ,Les voies romaines de l'Afrique du nord , Alger ,1951, P, 6 .

125) Pline l'ancien , V, 20

126) Ibid ,

127) C.I.L., VIII, 8837 ; A.E., 1934 , 39

128) A.E., 1940 , 20

129) Pline l'ancien , V, 2

130) Ibid , V, 5

131) Petit (P) , Histoire genérale de l'empire romain , I , Le haut empire (27 av.J.C-161 ap.J.C) , Paris, 1978 , P, 46

132) Baradez (J) ,op cit , P, 186

133) Baradez (J) , Les travaux hydrauliques romaines , Actes du 79° congrés des societés savantes , Alger , 1954 , P, 274 ; Payen (J) , Les travaux hydrauliques anciens , R .S.A.C., 1864.

134) شنيتي (محمد البشير)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1981، ص، 116

135) Petit (P) , Ibid , III ,La crise de l'empire , P, 118 ; Baradez (J) , Fossatum Africae , PP,186,191,192,193 ,

136) يعيد غاسكو تأسيس هذه المستعمرة إلى الإمبراطور تراجانوس، op cit , PP, 28, 32

137) C.I.L., VIII, 10362 ,10338 , 10347 ; Gsell (S) , Atlas archéologique de l'Algerie , Alger 1997 , f, 16, n° 364 ; Fevrier (P.A) , Aux origines de l'occupation romaine dans les hauts plateaux de Setif , Cahier de Tunisie , 1967 , T, XV , P, 64 ; Cat (E) , Essai sur la Mauretanie Cesarienne , Paris, 1841, P, 162

138) Petit (P) , op cit , P, 123

139) Gsell (S) , op cit , f, 26 , n° 19

140) شنيتي (محمد البشير)، المرجع السابق، ص، . 174

141) Gsell (S) , loc cit

142) الخريطة في الملحق Baradez (J) , op cit Ibid

143) Gauthier , Bull. du comité , 1907 ,P, CXCI , Gsell (S) , op cit , f, 26 , n° , 17, 19

144) Ibid , f, 15 , n°, 91

145) C.I.L., VIII , 8777 , Prosalute et incolomitate domini nostri imp.cae.M. Antoni Gordiani invicti pii felicis aug.totuisque domus divinae ejus minus constitutus a soli a colonis ejus castelli callensis dicatissime devoti numini ejus fecerunt .anno . P(rovinciae)CCIII (243 ap.JC) . Gsell (S) , op cit , f, 26 , n° 135 .

146) Ibid , n° 111

147) ; Baradez (J) , loc cit Ibid , f, 26 , n° 111

148) Gsell (S) , op cit , f, 25 , n° 85 149) Gsell (S) ,op cit , f, 20, n° 10

150)Picard (G.C) , La civilisation romaine de l Afrique romaine , Paris, 1959 , P, 22, Kotula (T) Snobisme municipal ou prospérité relative ?, Recherche sur le statut des villes nord africaines sous le bas empire , ant. Afr. T,8 , 19 P, 115 .

151) ; Rostovtzeff (M.I Grimal (P) , La civilisation romaine , Paris, 1984 , P, 108 Histoire économique et sociale de l empire romain , trad. Par Odile Demange , Paris, 1988, PP, 304/305

152) Grimal (P) op cit , P, 9,

153) Ibid , PP, 15, 21

154) C.I.L., VIII , 11824

155) Dondon-Payre (Monique) , Recherche sur un aspect de la romanisation de l l'Afrique du nord , l'expansion de la citoyenneté jusqu à Hadrien , Ant. Afr., n° 17 , 1981, P, 98 .

الباب الثالث

النظـم الحضاريـة الرومانيـة

الفصل الأول

النظم الحضارية الرومانية من خلال المدن

إن الدارس للعصر الروماني في بلاد المغرب القديم تواجهه أول ظاهرة وهي قيام الرومان بإنشاء عدد كبير من المدن الرومانية، سواء كانت ساحلية أو داخلية في مختلف أنحاء المغرب، والملاحظ أن الرومان اختاروا في بداية الأمر نفس المواقع التي اختارها الفينيقيون، والقرطاجيون لإنشاء مدنهم، ولقد أثبتت الدارسات الأثرية الحديثة التي أجريت في هذه المواقع المستوطنة قديما، أن تواجد الطبقة الرومانية فوق الطبقة الجيولوجية الموريطانية، التي تقع بدورها فوق الطبقة القرطاجية، وذلك أن عملية اختيار هذه الواقع كانت تتفق مع القادمين الفينيقيين الأوائل من حيث صلاحية المكان، وتوافقه مع الأهداف الاقتصادية والمستلزمات الدفاعية، ويلاحظ أيضا انتشار هذه المدن الرومانية في الولايات الأربعة الرئيسية في المغرب، وهي ولايات افريقية، ونوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية.

وقد عمل الرومان على إنشاء مدن تحمل الصبغة الحضارية الرومانية في شتى جوانبها، حيث تضمنت هذه المدن في تخطيطها كافة العناصر الرسمية والخاصة الرئيسية.

وأمام كثرة المدن الرومانية القديمة، أو الشبه رومانية، فإن عددا من الدراسات الحديثة ذهبت إلى التأكيد، على أن الثروة الإفريقية في العهد الروماني كانت ترتكز

أساسا على مهنة الفلاحة، وهذا العنصر الاقتصادي هو الذي أدى إلى استقرار المعمرين حيث بنوا المنازل والديار، واقتدى بهم الأهالي المعمرين، وقلدوهم في حياتهم وفي بناء مساكنهم في المدن، أو في المزارع والحقول وبذلك ترومنوا بالتدريج وحسب هذه الدراسات، فإن ذلك يعد السبب في وجود مدن كثيرة بالمغرب القديم ذات الطابع المعماري من النوع الروماني، إضافة إلى المزارع، والمداشر، والقرى، ووجود كثير من المنازل بجميع ما يتبعها من المرافق مثلما كان يوجد في روما في العهد الإمبراطوري [2].

وآثار تلك الأطلال ما زالت ظاهرة، وموجود في أماكن عديدة جعلت الباحثين يتصورون الإطار المادي الذي كانت تدور فيه الحياة بإفريقية القديمة. (أنظر الخريطة رقم 1).

لقد تضمنت تخطيطات المدن الرومانية في بلاد المغرب القديم، المباني العامة والخاصة المتمثلة في الحمامات والمنازل، والمؤسسات الاقتصادية كمعاصر الزيتون والمطاحن والمحلات التجارية والمرافق العمومية الأخرى بهدف. الترفيه مثل أقواس النصر، والمسارح والملاعب وغيرها من متطلبات الحياة العامة في المدن، وكان نمط فكان نمط تخطيط المدينة الرومانية المشيدة في الولايات مطابقا لنمط تخطيط المدينة الإيطالية حيث تم تقسيم أراضي كل مدينة رومانية بشارعين عموديين يتقاطعان ويمتد أولهما من الشمال إلى الجنوب ويسمى (CARDO MAXIMUS) ويمتد ثانيهما من الغرب إلى الشرق ويسمى (MAXIMUS DECUMANUS وكان ينتج عن تقاطع هذين الشارعين،أربعة أقسام متساوية تدعى(CENTURIAE) يوجد في أطرافها شوارع موازيين تسمى :

CITRO CARDINEM
ULTRO CARDINE;
EXTRA DECUMANUS
SINISTRA DECUMANUS [3]

ولم تكن عمليات تشييد هذه المساكن الجديدة بالمهمة السهلة بل تطلبت جهودا كبيرة، وأموالا طائلة وتضحيات جسيمة لأنها شملت بناء مدن كاملة.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العمارة الرومانية اعتمدت إلى حد كبير على الفنيين المعماريين اليونانيين، والشرقيين، وعلى سبيل المثال فان عددا من الدراسات ترجع أن قوس النصر الروماني يعود في أصوله التاريخية إلى الفن الآشوري، وأن بعض المقابر الرومانية ذات الشكل الهرمي تكون مقتبسة من الفن المعماري المصري القديم [4].

ويلاحظ أن تخطيط المدن الرومانية تضمن الحمامات الرومانية التي لم تقتصر على جانب النظافة العامة ،بل كانت بمثابة مراكز للنشاط الرياضي البدني، وأيضا للثقافة والقراءة العامة. (انظر شكل رقم 1)

والواضح أن الرومان حاولوا طبع هذه المدن بالطابع الروماني الصرف وكذلك التأثير على سكان المغرب بكافة الوسائل لاجتذابهم إلى الثقافة الرومانية وبالتالي طبعهم بالطابع الروماني، حيث كانت تلك المدن بمثابة نماذج مصغرة للعاصمة الرومانية، ووسيلة لسياسة الرومنة، ولقد خلدت الآثار عدداً هاماً من هذه المدن الرومانية، ولا تزال هذه المدن تشهد الكثير من هذه العمائر(انظر شكل رقم2)

توصف الحضارة الرومانية بكونها مدنية الطابع، وكان مدى تحضر الولاية وصبغها بالطابع الروماني يحدده درجة تقارب المدن، ولقد سجلت الحياة المادية تطوراً كبيرا في الولايات الإفريقية، حيث يمكن إحصاء خمسمائة مدنية عل الأقل في بلدان المغرب قاطبة، وجد منها مائتان في ولاية البروقنصلية وحدها[5] ولكن ليس واضحا بدرجة كافية إن كانت هذه الحضارة العمرانية رومانيةالأصل أم موروثة أساسا من العصر البوني- النوميدي- وهذا موضوع بحث آخر.

ومن خلال عدد من الدراسات الأثرية الحديثة، فانه أمكن تصنيف هذه المدن إلى ثلاثة أنواع وهي :

- المدن البحرية
- المدن الداخلية الفلاحية
- المدن العسكرية[6]

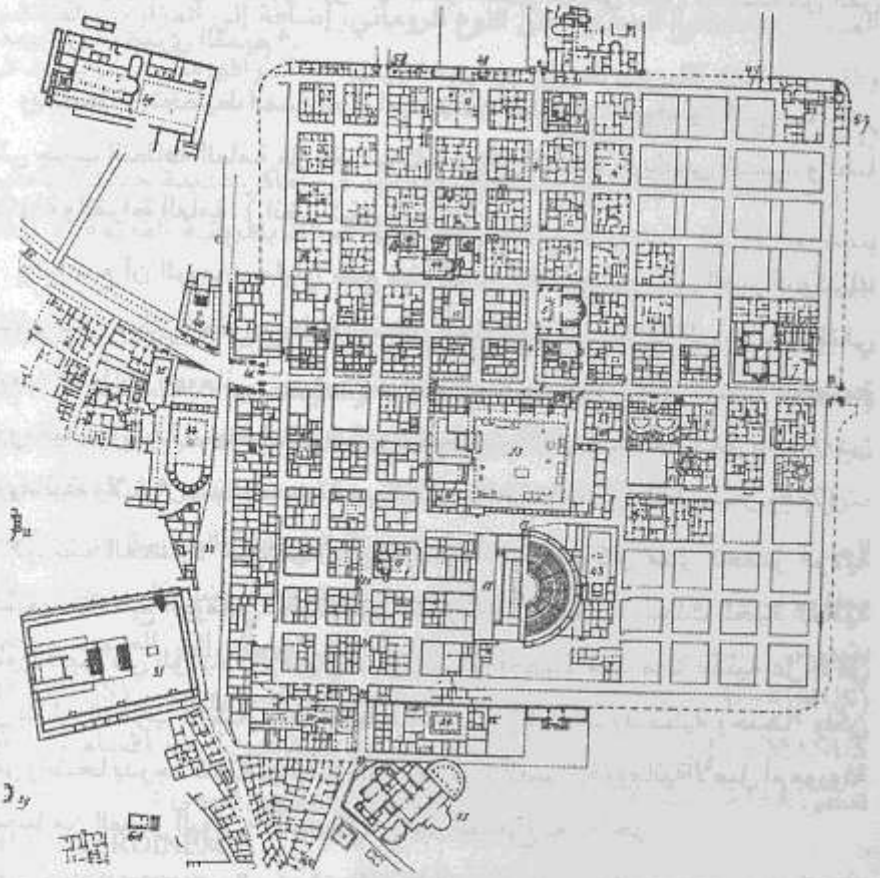

مخطط مدينة تيمغاد

1) المدن البحرية :

هذه المدن البحرية لحقها تغيير كبير بسبب إنجراف المجاري المائية كالأودية التي غمرتها، إضافة إلى رسوب كميات كبيرة من الغرين فوقها أدخلت تغييرا كبيرا على رسم الساحل وشكله، مما يصعب في الغالب تصور هيئتها القديمة ومثال ذلك ما وقع في خليج قرطاجة، أو أوتيكا الذي غمر وادي مجردة جانبا كبيرا منه، بل إن جزءا من الخليج الذي كان شمال قرطاجة صار اليوم بحيرة واسعة (تعرف بسبخة أريانة)، كما يذكر الأثريون مدينة أوتيكة كنموذج ثاني حيث كانت مدينة ساحلية لكنها تحولت الآن إلى مدينة داخلية، مما يتطلب الكثير من البحث والتحقيق لتحديد وتصور الخطوط القديمة لبعض أماكنها، ومثال ذلك أيضا الميناء الحربي، والتجاري بصالمبو جنوب قرطاجة الذي أصبح عبارة عن غديرين صغيرين، أو بسبب الإنشاءات المعمارية الحديثة التى أزالت نهائيا كل الآثار القديمة مثلما وقع بموانئ عديدة بالمنطقة منها ميناء سكيكدة[7] (أنظر شكل رقم 3).

2) المدن الداخلية الفلاحية:

وهي عبارة عن مدن في اغلبها كانت في بداية نشأتها قرى صغيرة، ثم اتسعت تدريجيا بازدياد عدد سكانها وتنوع نشاطها وتكاثر عمرانها.

3) المدن العسكرية:

وهي مدن كثيرة منها مدينة تموقادي (Thamugadi)، حيث كانت مدينة قدماء الجنود أسست بأمر من تراجانوس سنة 100م فخطت بالزيج*، وسطرت فكانت طرقاتها منظمة على شكل مستقيمات متعامدة تتكون من مربعات في غاية الإتقان، ويظهر أن تخطيطها رسم في بداية الأمر على الورق في مكتب المهندس، قبل أن يبدأ في تجسيده على أرض الواقع، فكان كل شيء فيها محدد من قبل، وتم تشييد كل بناء في مكانه المعيّن، وعلى الشكل المرسوم في التخطيط [8].

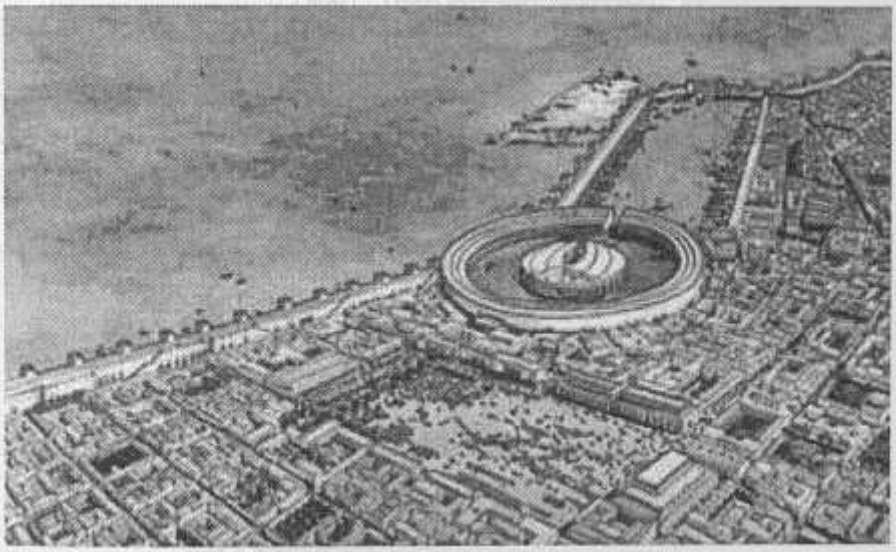

مخطط مدينة قرطاجة

لمباز (Lambaesis) إن القسم المنظم فيها على شاكلة التخطيط الهندسي هو المعسكر فقط، والأثر الذي ما زال قائما هو (البرطوريوم) أو مقرا البريطور والقائد الأعلى للجيوش الرومانية، أما المدينة التي برزت بعد ذلك بالقرب من المعسكر فهي خالية من الدقة الهندسية، التي نجدها في تموقادي[9].

جميلة (Cuicul)، هي مدينة على جانب كبير من الأهمية، حيث في بداية أمرها كانت مدينة قدماء الجنود أيضا مثل تيموقادي وكانت مثلها من حيث ترتيبها ونظامها وشكلها الهندسي، لكنها تخلصت فيما بعد من تلك القيود وتحررت وازدادت اتساعا متخذة في توسعها الأشكال التي فرضتها المدنية الرومانية، وحسب عدد من الباحثين فإنها تعد خير مثال للمدنية الحية التي لا تتقيد بشكليات المساحين والمهندسين[10].

والواقع فإن ظهور المدن القديمة كان منطلقها الأساسي مجتمعات محدودة الانتشار اقتصاديا وجغرافيا، وبالتالي قليلة التضامن فيما بينها ومتفاوتة الإمكانيات الاقتصادية التي كانت قائمة على أساس الملكية الفردية المختلفة أيضا مما دفع إلى اتباع أسلوب التخفيف من حدّة هذه الفروقات الاقتصادية بين أفراد مجتمع المدينة الواحدة حيث تحمل الأغنياء عبء بناء المرافق العمومية، وبمرور الوقت أصبح ذلك العطاء والبذل يمنح صاحبه سلطة معنوية، وقانونية تصل به إلى مرتبة الحكام ولكي يستمر في المحافظة على منزلته هذه عليه الاستمرار في البذل والعطاء، وبالتالي فالأموال التي تعرف في بعض المجالات عبارة عن مستحقات في شكل خدمات تؤدي لصالح سكان المدينة وإقليمها، ومع مرور الزمن أصبحت هذه الخدمات واجبات على الأغنياء تقديرها كل حسب درجة ثرائه، ورتبته في الحكم، ومنزلة المدينة التي هو تابع لها.

والواقع فإن المدن القديمة لا تختلف في هذا النظام التأسيسي بما فيها المدن الفينيقية، أوالإغريقية أو الرومانيةعن بعضها، ذلك أنه كان في قمة الهرم الاجتماعي طبقة الأغنياء الذين قدموا خدمات مجانية لمدنهم على اعتبار أنهم يستفيدون من ألقاب شرفية والتي أكسبتهم فيما بعد سلطة معنوية وقانونية.

ولقد أوردت النقوش التي عثر عليها في المدن الفنيقية والقرطاجية الكثير من هذه الألقاب التي تم استعمالها أيضا في الفترة الرومانية، مما يدفع إلى الاعتقاد باستمرارية التقاليد البونية في العهد الروماني[11].

كذلك جدير بنا أن نؤكد على أن مفهوم المدينة مختلف عما هو عليه الآن، حيث أنّ الوثائق الأثرية دلت على أن هذه المدن تمتعت بطابع الاستقلالية ذلك أنها عرفت باسم ريسبو بليكا (Respublica)، حيث كانت تكتفي ذاتيا ولا تحتاج إلى إمدادات من السلطة العليا إلا عند الضرورة القصوى، إلا أن عدد من الدارسين يؤكدون أن ذلك نابع من كون الإمبراطورية عبارة عن فيدرالية تضم جمهوريات، يحكمها القانون الذي ينظم العلاقات فيما بينها ويترك لها الحرية لتتصرف في شؤونها الخاصة بما يتلائم مع ظروفها ومصالح سكانها. إلا أن تلك الحرية لا يجب أن تتعارض مع سيادة المدينة الأم روما، وكذلك مع السلطة العليا للإمبراطورية.

وعلى هذا الأساس فإن نموذج المدينة الرومانية التي هي خلاصة نماذج المدن الفينيقية والإغريقية قد أصبحت تشكل أفضل أنواع التنظيمات العمرانية، وهو ما أدى إلى تدهور بقية النماذج وذوبانها التدريجي، وذلك حسب درجة تأثرها بالحضارة الرومانية في الأقاليم الخاضعة للسلطة الرومانية، ومن هنا فإن مدن المنطقة كانت متباينة الطابع حسب تفاوتها من حيث التأثر بالحضارة الرومانية وذلك سواء من حيث الشخصية القانونية للمدينة، أو الوضعية المدنية لرعاياها تجاه القانون الروماني العام والخاص بالممتلكات والأشخاص.

وبالتالي فإن تطور الوضعية القانونية بعد حجر الزاوية في التأريخ للمدن، والمؤسسات العمرانية المختلفة التابعة للإمبراطورية الرومانية بالمقاطعات الأخرى التي تقوم على سياسة الإدماج التدريجي للمجتمعات الحضرية الخاضعة لسلطة روما، وذلك حسب الترتيب التالي من مدينة أجنبية (Peregrini) إلى مدينة لاتينية (Latini) ثم مدينة رومانية (Romani) مكتملة الشروط تعادل نظيرتها في جميع المقاطعات من حيث الحقوق والواجبات التي يضمنها قانون الأوربس (urbs)

(مدينة المواطنين الرومان)، والوصول إلى هذه الدرجة يجبر المدينة المعنية أن تتخلى عن دستورها الخاص، وبالتالي الاندماج في القانون الروماني، حيث أن هيئة الديو مغيري (Decumuris) تعوض هيئة الشفاط (Chufètrs)، الفنيقية الأصل[12].

إن هذا التنظيم صحيح من الناحية النظرية التشريعية، إلا أن دراسات حديثة أثبتت أن الواقع كان أكثر تعقيداً، حيث أن القاعدة التشريعية كانت من الناحية التطبيقية متناقضة في بلدان المغرب القديم إن وجدت فقد ظلت على النظام التقليدي الذي أساسه نظام بونيقي.

وهو ما شهدت به الوثائق التي عثر عليها في خزائنها، بالرغم من أن مواطنيها كانوا يتمتعون بالشخصية القانونية الرومانية، فقد كان يرأسها أمير(Princeps) يساعده مجلس العشرة (Decemviri) على الطريقة البونيقية وكان للمدينة مسؤول على القربان يحمل لقب ملك الأضاحي (Rex sacrorun)، الذي اختفى نهائيا في المدن الرومانية منذ القرن الثالث في كل الإمبراطورية[13].

إلا أننا نلاحظ أن هذه المدن ذات الأوضاع المتباينة كانت بعيدة على المراكز الحضارية الرومانية، فقد كانت تقع في منطقة التخوم تحت سيطرة الإمبراطور مباشرة كونها منطقة عسكرية ينعدم فيها الأمن، وصعب التعامل مع سكانها الحضريين حسب القانون المدني الروماني.

وفي هذا الإطار عمل أغنياء بلاد المغرب في هذه الفترة على إنفاق جزء كبير من ثروتهم في سبيل ترتيب منازلهم الأنيقة، وتنظيم مدنهم، وأن أفراد الطبقة الأرستقراطية من الرومانيين كانوا يقيمون المدن ويقلدون رومة في نظامها ورفاهيتها وعظمة بناءاتها[14].

- **كيرتا (قسنطينة)** (Cirta) : عاصمة سيفاكس وماسينيسا، ويوغرطة هدمها ماكسن (MAXENCE) سنة 311 م، ثم أعاد بنائها القيصر قسطنطينوس (Constantin) وسماها باسمه (constantine) قسنطينة.

- **سكيكدة** (Rusicade- Philippeville) : بها آثار صهاريج رومانية ومسرح

روماني طوله 82,40 م يستوعب بين 5000 و6000 متفرج، وهو أكبر من مسرح تيمقاد ومسرح جميلة.

- **جميلة** (Cuicul) : بها أطلال رومانية مختلفة تتمثل في معابد عديدة منها معبد ألكابتول، وساحتان، ومسرح شيد سنة 161 متر يسع 3000 متفرج، وقاعة البلدية، ومعبد الكابتول وحمامات كبيرة شيدت سنة 183م، وقوس نصر كاركلا بني سنة 216 م، وبلغت جميلة أوج ازدهارها، وعظمتها في النصف الأول من القرن الثالث.

- **لمباز** (LAMBAESIS) : بهذه المدينة معسكر روماني الذي تم بناؤه في عهد هادريانوس في أوائل القرن الثاني، طوله 200 م، وقبل سنة 146م بنى الجنود معسكراً آخر (Praetorium) أوسع من الأول (500 x 420 م.) وهو المستعمل الآن كمركز لإعادة التربية، وما زالت أطلال الحمامات بها تظهر فيها قاعة المياه الساخنة وبها أيضا ملعب إهليجي الشكل تم بناؤه في عهد ماركوس أورليوس وبها قوس نصر يعود لأيام كومودوس.

- **تموقادي** (THAMUGADI) : مدينة رومانية أسسها تراجانوس سنة 100 م وبها قوس نصر، يعرف بقصر تراجانوس يرجع تاريخه إلى بداية القرن الثالث وحمامات ومسرح.، ولكنها اشتهرت أكثر بمكتبتها الفريدة من نوعها (أنظر الشكل رقم 4).

- **شرشال** (Caesara) : من أكبر المدن الساحلية في المغرب القديم وعاصمة قديمة أسسها الفينيقيون في القرن 12 ق.م وأطلقوا عليها إسم يول (IOL) ثم اتخذها الملك يوبا الثاني مقرا له وعمل على تحسينها سماها القيصرية اعترافا بجميل القيصر أغسطس، وجعلها عاصمة مملكته موريطانيا، بها ساحة رومانية، وحمامات، ومدرج يستطيع أن يستقبل 14 ألف متفرج ومعابد وقصور كثيرة بلغ عددها 30، ومسرح، وبها تماثيل كثيرة على غاية من الجمال مثل تمثال أغسطس وتمثال فينوس إلاهة الجمال.

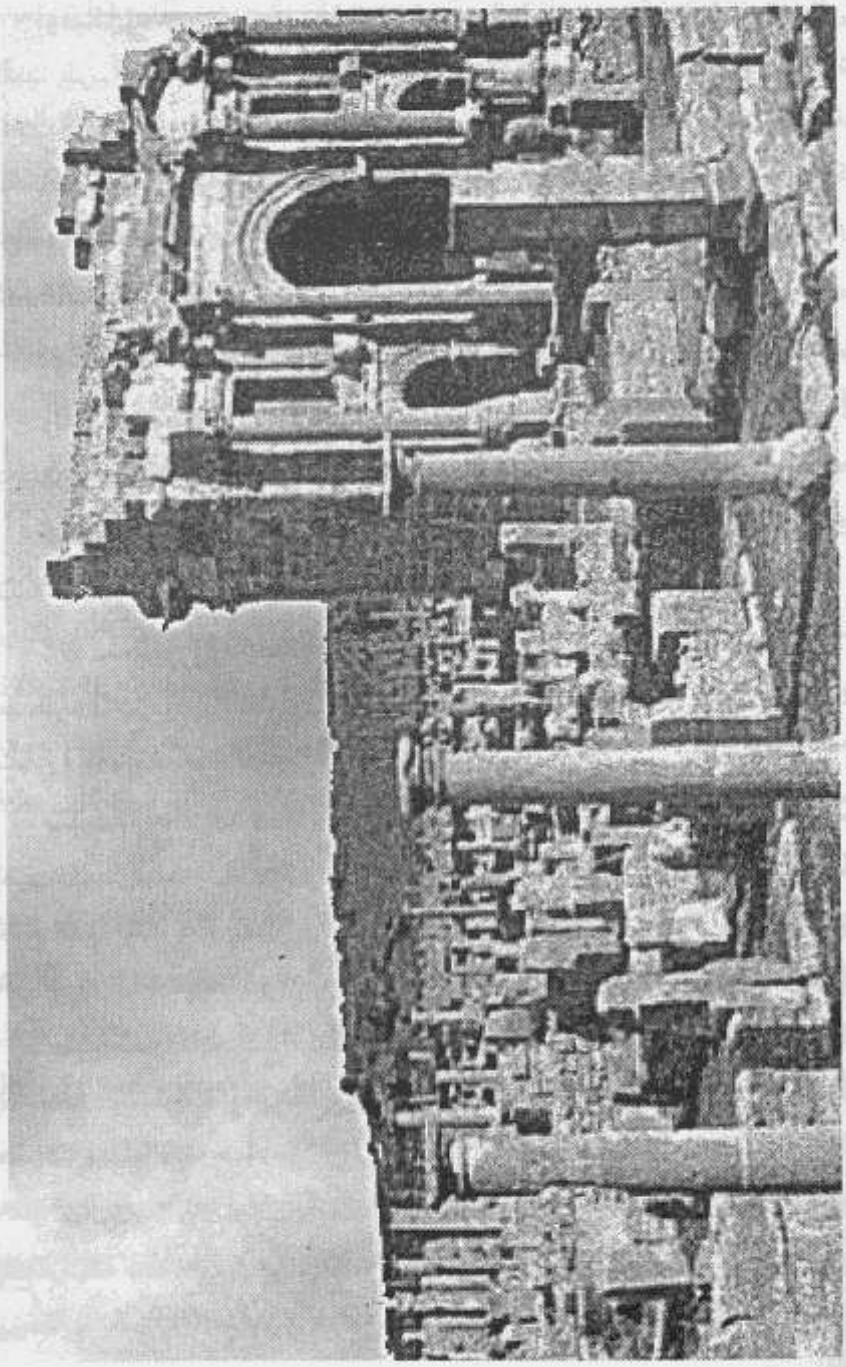

أطلال مدينة تيمغاد

- **أوتيكا** (Utique) : عاصمة الولاية الرومانية ابتداء من سنة 146 ق.م إلى أن خلفتها قرطاج سنة 39 بعد الميلاد، تضاءلت قيمتها شيئا فشيئا حيث تعرضت موانئها للردم بالرمال شيئا فشيئا، لم يتبق من المدينة العتيقة إلا بعض الآثار منها قناة كانت تجلب المياه من جبل كشاطة على 10 كلم غربا، وصهاريج، وملعب كبير يبلغ طوله200 وعرضه 100م.) اختفت مصاطبه.

- **قابس** : (Tacapas) : من بقاياها ميناء صغير وآثار قليلة.

- **بوغارة** : (GiGHtiS) : من بقاياها ساحة الفوروم، معبد الكابتول، سوق وحمامات.

- **رأس الديماس** (Thapsus) : يرتبط اسم هذه المدينة بانتصار قيصر على البوميين ويوبا الأول من آثارها رصيف كبير لوقاية المرسى وأطلال غير واضحة

- **لمطة** (LEPTIS MINOR) : من آثارها، صهاريج، سدود، قناة، سور، كانت مدينة فينقية ثم تحولت إلى مدينة رومانية.

- **المنستير** (Ruspina) : من آثارها الباقية، حمامات رومانية منقورة في الصخر دهاليز، ودير للنصارى (Monastere)، حوله المسلمون إلى رباط في القرن التاسع وجاءت تسمية المدينة من الاسم اللاتيني المذكور.

- **سوسة** (Hadrumentum) : مدينة فنيقية، رفعها تراجانوس إلى درجة المستعمرة، ولقبت بالمدينة الخصبة (Frugifera) لخصوبة تربتها وارتفاع مردودها الزراعي وخاصة القمح الذي أشاد به الجغرافيون والمؤرخون القدماء والخيرات بحقولها وأصبحت في آخر القرن الثالث عاصمة ولاية جديدة مستقلة وهي ولاية مزاق (BYZACENE)

- **سبيطلة** (Sufetula) : لقد اشتهرت هذه المدينة بمعابدها الثلاثة (الكابتول) وساحتها المستطيلة (60x70 م.) ذات الأروقة والأعمدة وكذا حماماتها وقوس نصرها، وبقايا مسرحها.

- **حميدرة** : (AMMAEDARA) : تميزت بكثرة آثارها وتعددها منها مسرح وقع ترميمه سنة 299 م، قوس نصر لستيموس سيفروس سنة 195 م.، ضريح وقلعة بيزنطة (200م x 100 م) بنيت حولها جدران رائعة وبرج مستدير، وتسعة أبراج مربعة.

- **الكاف** (SICCA VENERIA) : شبهها الرومان بفينوس (VENERIS) إلاهة الجمال والحب، وكانت مدينة الكاف تحتل مركزاً استراتيجيا ممتازاً لأنها كانت تشرف على المواصلات بين نوميديا إلى البروقنصلية ولا زالت بها آثار لكنيسة قائما إلى اليوم.

- **المدينة** (ALTHIBUROS) : لا زالت تحتفظ بأطلال رومانية عديدة وعلى درجة كبيرة من الأهمية، وهي تقع على ضفة وادي المدينة: من آثارها ساحة مبلطة محاطة بأروقة إضافة إلى طرقات مبلطة، وكذا بيوت رومانية، ومعبد الكابتول ومسرح كبير يعود إلى عهد كومودوس تحيط به أقواس لا يزال بعضها قائما، إضافة إلى قوس نصر بفتحة واحدة كان بناؤه إلى عام 138 يعرف بقوس نصر هادريانوس.

- **مكثر** (MACTARIS) : تعد من المدن الهامة التي احتفظت بآثار عديدة منها ساحة الفوروم وهي ما زالت مبلطة، قوس نصر تراجانوس الذي تم بناؤه سنة 116 م ثم ألصق به برج مربع فأصبح قلعة بيزنطية، وأطلال حمامات ما زالت قائمة وواضحة، ومعابد كثيرة، ملعب للرياضة (GYMNASIUM) أسس سنة 95م، يتكون من ميدان للرياضة الجسدية(PALESTRE) وأحواض كبيرة للسباحة (PISCINE) وكنيسة كبيرة (BASILIQUE)، وقاعات عديدة، وحمام، وعلى بعد كيلومتر واحد من مكثر نجد قناة مرفوعة فوق 12 قنطرة أو حنية كانت تجلب مياه عين سوق الجمعة إلى مستودع المياه، وحامي المدينة معبد أبولون (APOLLON).

- **هنشير القصبة** (THUBURBO MAJUS) : بها أطلال عديدة، يعود إنشاؤها إلى القيصر أغسطس، ومن آثارها معبد الكابتول الذي شيد سنة 168 م، وساحة الفوروم المربعة(45 x 4 م)، وأروقة على ثلاثة جهات ومعابد كثيرة وحمامات الشتاء بالجهة الشرقية، وثلاثة أبواب في آخر المدينة، وباب رابع داخل المدينة جهة الجنوب وحمامات الصيف بالجهة الغربية.

- **دقة** (THUGGA): كانت من المدن المستقلة في عهد سبتيموس سيفروس ومن آثارها أطلال قناة تجلب المياه، ومعبد سبيلستيس تم بناؤه في عهده، وبها مسرح ومعبد الكابتول، وساحة الفوروم.

- **حمام دراجي** (BULLA REGIA) : بها آثار عديدة منها صهاريج كبيرة وبيوت رومانية كثيرة مزينة بالفسيفساء، وحمامات رائعة، وآثار ساحة الفوروم، ومعبد الكابتول وكنيسة، ومعبد أبولون، مسرح، ملعب، ثلاثة قصور تحت الأرض مزينة بالفسيفساء، وسميت بأسماء تدل على تلك الزينة قصر الصيد في البر وقصر الصيد في البحر، وقصر امفيتريت إلاهة البحر، وحمامات رائعة.

- **شمتو** (SIMITTHU) : اشتهرت بآثار عديدة وأهمها المرمر النوميدي ذي اللون الأصفر والوردي، وساحة الفوروم المبلطة (40 م X 23 م) وحمامات تأتيها المياه بواسطة قناة تحملها تارة أقواس، وتختفي تارة أخرى تحت الأرض، وملعب مطمور تحت الأرض، وآثار جسر على وادي مجردة.

- **خميسة** (THUBURSICU NUMIDARUM) : بها آثار كثيرة، خاصة وأنها لا تبعد عن وادي مجردة ومنابعة سوى بـ 950 م، منها قاعة محكمة ذات 26 عموداً ضخما وقاعات أخرى عديدة، وباب روماني ضخم، ومعبد الكابتول ومسرح ما زال في حالة جيدة وأطلال حمامات، وآثار أخرى عديدة.

- **تبسة**: (THEVESTE) : من آثارها قوس النصر المعروف باسم قوس كاراكلا أو - الباب القديم- ويحيط بها سور بيزنطي أحد أبوابه القوس المتقدم ذكره وبها معبد يرجع عهده إلى أيام آل سفروس.

1) السكان

بعد الاحتلال، قسمت روما سكان المدن الرومانية في الولايات إلى كور (CURIAE)، تنقسم إلى كور كبرى (JUNIORES) وكور صغرى (SENIORES) وكان لكل كورة، اسم يميزها عن الأخرى ومن بين هذه الأسماء يمكن ذكر (TRAGANA PAPIRIA SABINA) إنه لدراسة الجانب السكاني، فإننا ننطلق من التقديرات التقريبية لحجم السكان في الفترة الرومانية، ومن الضروري- بداهة - انه كان يجرى تعداد دوري للسكان لأغراض جبائية، ولكن النتائج لم تصل المؤرخين، وعلى هذا الأساس فان الدراسات الحديثة لجأت إلى عدة وسائل، ومنها تلك التي اعتمدها كريستيان

كورتوا (Courtois)[15] على سبيل المثال المتمثلة سجلات الكنائس كنقطة بداية، وقد انتهى بعد دراستها وتمحيصها إلى انه كان هناك خمسمائة مدينة مغاربية، وبعد أن عكف طويلا على دراسة حجم الكثافة السكانية بالنسبة إلى متوسط مساحة معينة لكل مدينة استقر رأيه على متوسط خمسة آلاف نسمة في كل مدينة، وأما العدد الكلي للسكان فهو أربعة ملايين نسمة في المنطقة ككل ي بداية العصر الإمبراطوري، بينما نزل هذا الرقم إلى ثلاثة ملايين في أواخر عصر الإمبراطورية والرقم الأخير يعتمد على تقرير بيلوخ (J.Bloch)[16] الذي أحصى عدد السكان في الإمبراطورية الرومانية بناء على التعداد الذي أجراه أغسطس في ايطاليا، رغم هذا فان كورتوا انتهى إلى أن كثافة الستة عشر شخصا في الكيلومتر المربع- الذي يعتبره الباحث الألماني محتملا- هي كثافة مرتفعة بالنسبة لشمال إفريقيا التي كان فيها حوالي ثمانية ملايين نسمة فقط في منتصف القرن التاسع عشر بينما يقدر كثافة المدن بمائتين وخمسين نسمة في الهكتار، وقد آثار شال بيكار (G.Ch.Picard)[17] عدة اعتراضات على تعديلات كورتوا، لعدة اسباب، وخلص إلى نتيجتين هما:

أن كثافة السكان بالأفارقة تتجاوز مائة نسمة في الكيلومتر المربع في مناطق معينة وأنه رغم هذا العدد الكبير من المدن كان يعيش معظم السكان في هذه المنطقة الزراعية أساساً في مراكز تجارية صغيرة، وفي الضياع الفسيحة الملحقة بالفيلات أو القصور الفاخرة (Villae) المتناثرة في الريف، وفي ولاية إفريقيا البروقنصلية يبدو أن مجموع السكان بلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة، وبإضافة سكان ولايتي نوميديا وموريطانيا نصل إلى رقم ستة ملايين ونصف مليون نسمة في الفترة الممتدة بين منتصف القرن الثاني والثلث الأول من القرن الثالث فيى الوقت الذي بلغت فيه إفريقية قمة الرخاء والازدهار.

وفيما يخص سكان الدن فان ليزين (Lezine A) يؤكد أن ظروف المعيشة والكثافة السكانية تشبه إلى حد كبير ما كان سائداً في العصور القديمة، وحاول تقدير حجم السكان على أساس معطيات منها كثافة السكان، وإعداد المنازل (Domus) والأحياء السكانية (Insulae)[18].

إن مسألة السكان تثير الكثير من الإشكالات المعقدة خاصة إذا ما ربطت بمسألة النظم القانونية التي سيرت المدن، وعموما فملخصها هو أننا نجد في المقام الأول الرومانية التي كانت متعددة، والتي لم يكن سكانها مواطنين رومان منهم من يخضع لضريبة الأرض الثابتة بينما تمتعت مدن أخرى بالحرية (LIBERTAS) وأعفيت ثالثة من الغريبة.

لقد عاشت المجتمعات المدنية بالمنطقة في ظل انقسام طبقي تجلى في الطبقة الأرستقراطية المشكلة من المستوطنين الرومان الحكام منهم والنبلاء، ونظرائهم من السكان المحليين، وكذا الطبقة البرجوازية وكان هؤلاء يتمتعون بكامل حقوق المواطنة الرومانية.

أما الطبقة الدنيا الأخرى فتشكل ما يقارب 90 في المائة من مجموعة سكان المدن وتتمثل في سكان المنطقة الأجراء الفقراء ،و فئة العبيد[19].

والملاحظ أن القوة الإجتماعية الرئيسية – في عهد الإمبراطورية المبكر – التي عمل النظام الروماني أن تطعيم منها الطبقة الأرستقراطية بالرغم من أن طبقة الفرسان حافظت على المستوى العالي من الكفاءة الوظيفية، لقد كانت هذه القوة هي الطبقة الوسطى من سكان المدن، والتي يطلق عليها أيضا اسم الطبقة الأرستقراطية المحلية، وقد ادمج أعضاء هذه الطبقة البارزون، وهم أعضاء مجالس الأعيان المحلية في الأرستقراطية الرومانية، ومنها كان الأباطرة يمتازون بمثابة العمود الفقري للمجتمعات ذات الصبغة الرومانية في المغرب، وفي عهد الإمبراطورية استمد أعضاءها كلية من فئة ملاك الأراضي، حيث كان العضو يعيش في المدينة على دخل يأتيهم من ممتلكاتهم، ولكنه لا يملك ضيعات كبيرة (Latifundium) وليس الأرستقراطي الحضري فلاحا، حتى وإن أحس بالارتباط بأرضه فقد كان يفضل أسلوب الحياة البرجوازي فلكي يجعل له اسما في المدينة ويحصل اعتراف سكان مدينة بالجميل، كان عليه أن يمنح الهدايا والتي كان يوزعها على نطاق ينم عن زهوه وكرمه، وكان ينظم المباريات المحلية، ويقدم الصدقات من

الطعام والأموال للفقراء أو يبني، ويصون المباني العامة حتى أن آثار اقل المدن شانا تكشف عن ولع شديد بالزخرفة العمرانية على نحو لا يتناسب مع حجم هذه المدن، وكانت جميعها تصر على أن تكون لها ساحتها العامة (Forum)، المكتملة بالتماثيل ومبنى لمجلس الأعيان، ودار للمحكمة ،و حمامات، ومكتبات وملاعب ضخمة ومعابد كثيرة على شرف الآلهة الرسمية، والتقليدية، والملاحظ أن نمو المدن الصغيرة منها والكبيرة على السواء- مثله في ذلك مثل ثروة الأعيان في المدن- كان حتما يقوم على استغلال المزارعين[20].

ولكن في عصر الإمبراطورية المتأخر، فانه رغم استمرار الزراعة كمصدر رئيسي للدخل عند خيرة الناس في المدن، إلا أن فئة جديدة برزت على المسرح السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحلت محل الطبقة الوسطى تتمثل في كبار ملاك الأراضي، وهم الوجهاء (Primates)، أو الزعماء والرؤساء (Principales) المحليون الذين جمعوا ثرواتهم بتصدير القمح ،و الزيت من مزارعهم وتمكنوا بذلك من الانضمام إلى طبقة النبلاء حيث تبوأ هؤلاء الأثرياء أعلى المناصب، وأعادوا بناء المباني العامة ،و أصلحوا المهدمة منها وزخرفوا المدن، مدركين أن هذه الأنشطة التي يتطوعون للقيام بها دون مقابل تفتح لهم أبواب الرقي، ولقد كيف الأباطرة سياستهم في المدن مع هذه المتغيرات الاجتماعية، وكان الهدف منها تشجيع نمو المدن ليس فقط للحصول على المزيد من الضرائب،و لكن أساسا لأن المدن كانت تشكل حاجزا منيعا في وجه ضد خطر الأهالي، وبالنسبة لطبقة الأعيان التي مع مرور الوقت، فقدت امكانياتها، وأصبحت أقرب إلى الفقر من الغناء ورغم ذلك اقتصرت - على نحو جماعي- بتأدية واجبات مرهقة متزايدة نحو المدينة، حيث أنها أرغمت على أن تتولى مسؤولية القيام بالخدمات الإلزامية (كتوفير الخدمات العامة). إضافة إلى أن ممتلكاتهم تعتبر كضمان للديون المستحقة على الأهالي، وبالتالي تطلعت للارتقاء إلى فئة الوجهاء (Primate) للاحتماء وراء امتيازات الطبقتين النبيلتين طبقة السيناتو وأدى هذا التهرب من أعباء هذه الالتزامات إلى تفويض أسس الحكم الروماني الذي تصدى لهذا الخطر،

بتحميل المسؤولية كل الملاك (Possessores) حيث شكلوا طبقة توارثت المسؤولية، وقد انعكس انعكس انحطاطها المستمر على أسلوب الحياة الرومانية حيث اضطروا فيما بعد إلى هجرة المدن، بعد أن سحقت الأعباء المختلفة هذه الطبقة مما أدى إلى تفاقم الأزمة الاجتماعية التي انعكست آثارها على تنمية المدن نفسها.

انعكس ذلك على تدني مستوى معيشة كل طوائف سكان المدن إلى أدنى منزلة إلى مستوى الدهماء (العامة) (Plebe)، ولقد انعكس هذا الوضع الجديد على أوضاع الملاك الكبار في الريف حيث ابتلع الأغنياء أراضي الملاك الصغار والمتوسطي تدريجيا طاردين الفقراء مما أدى إلى ظهور حركان تمرد مست مناطق هامة من المغرب القديم.

يلاحظ أن سكان المدينة الرومانية في المغرب يتشكلون من سكان أصليّين ذكور بالغين أحرارٌ، وتعني الأصالة هنا الإنتماء العائلي لأب متمتع بالمواطنة الرومانية مصرح بأبوته له، ولا يصبح مواطنا كامل الحقوق إلا إذا بلغ سن الرشد، على ألا يكون مملوكا لأي شخص، تحت أية طائلة بالإستدانة، أو ما شابهها من الحالات التي تؤدي بالرجل الحر إلى وضعية العبيد، والأنثى هنا يستثنيها الشرع الروماني من التمتع بالمواطنة لأنه يعفيها من المسؤولية المدنية التي يتحملها الرجل وإن كانت قد تمتعت بمكانة اجتماعية وعائلية معتبرة والواضح أنه ماعدا المتمتعين بهذه الصفات الثلاثة (الأصالة، الجدية، الذكورية)، فإن كل الأشخاص القاطنين بالمدينة أو إقليمها يعتبرون في وضعية الغرباء (INCOLAE) بالنسبة للشرع الروماني سواء كانوا من أهل البلاد الأصليين أو وافدين إليها من بعيد[21].

في حين يتركب الهيكل الاجتماعي للمدينة الرومانية من الشعب(POPULUS) الذي يجب أن يكون أفراده الذكور متمتعين بالمواطنة الرومانية، والهيئة الحاكمة (ORDO)، أي مجلس الشيوخ، والكل يشكل الشخصية القانونية (RESPUBLICA)، حيث كانت القرارات النافذة تؤخذ من طرف مجلس شيوخ المدينة(ORDO)، والشعب (POPULUS)عن طريق ممثليه وذلك تشبها لما كان سائدا في مدينة روما

باعتبارها مثلاً يقتدى به، بالنسبة لجميع مدن المقاطعات حيث أنها جميعا، سعت لأن تكون نموذجا مصغرا لروما المدينة وهو ما عبر عنه أحد مواطني مدينة إقليمية ما مؤداه" لسنا سوى منتوج صغير لشعب روماني.[22].

ويذكر المؤرخون أن الرغبة في التشبه بمواطني مدينة روما كان يدفع مجتمعات المدن بالمقاطعات لتصل إلى درجة ومستوى حضارة مجتمع روما.

3) المنشآت الرومانية في المدن

لقد عملت السياسة الرومانية للنهوض بأعباء الوظائف العامة في المدن على أن تكون هناك وسائل متوفرة إضافة إلى ذلك جرت العادة على إبراز مظاهر الحضارة الرومانية، وكرمها بمختلف السبل وقد تجلى تجلى ذلك في إقامة االمرافق الاجتماعية المختلفة كالحمامات والأسواق والنافورات والمعابد والمسارح في المدن المغربية يرجع عدد من الباحثين ذلك إلى روح المنافسة الحقيقية بين الأعيان، وكان أعلى المناصب المدنية - في أي مدينة - وهو منصب الحاكمين واللذين يتوليان منصبهما لمدة خمس سنوات" ولذا عرفا باسم (quinquennalis Duoviri)، وكانا مسؤولين عن التعداد العام وهذا يعني أن عليهما إحصاء العدد الكلي للسكان وللمواطنين الرومان، والإشراف على كل المنشآت المختلفة المقامة في المدنية، زيادة على مسؤولياتهم المدنية الأخرى الإدارية، والاجتماعية والاقتصادية، والسياسية ولعل من أهم هذه المنشآت التي أقامها الرومان:

أ. السوق :

لقد أوضحت المكتشفات الأثرية، الأهمية الكبرى للأسواق التي وجدت في مختلف مدن المغرب القديم ،و دورها في تجارة واقتصاد سكان المنطقة، حيث أوضحت هذه المصادر أن " الأسواق " (Nundinae) وهي نوع من الأسواق كانت تفتح في المراكز الريفية في مختلف أيام الأسبوع، وفي القرى كانت تقام أسواق للسلع التموينية، (Macellam) في موقع يتكون من ميدان محاط بأروقة تتفتح عليها

دكاكين مختلف التجار، وقد عثر على عدد من هذه المواقع، حيث أقيمت مجموعة من الأكشاك المجهزة بمقاييس، وموازين، ومكاييل موحدة، والتي كان يقوم بفحصها المشرفون على شؤون التموين المحليون، أو المحتسبون (Aediles)، وكانت الصفقات التجارية والمعاملات الأخرى تعقد في الميدان العام(Forum)، أو في الدكاكين، والأسواق المسقوفة بالمدن التي تمتلئ بأصحاب البنوك ،و الصيارفة، وأصحاب الحانات وتجار الملابس، وغير ذلك ،و لقد تميزت هذه الأسواق المدنية باحتوائها على أجنحة خاصة بالبيع بالتفصيل، وأجنحة خاصة بالبيع بالجملة، تقع في فضاء مسقف وهذه الأسواق كانت تبدو في شكل ساحات تحيط بها دكاكين صغيرة للتجارة [23].

ويبرز دور الأسواق في الحياة اليومية للسكان أنها لم تكن مركزا لتوفير المواد الإستهلاكية فقط، بل كانت كذلك مركزا اجتماعيا وثقافيا حيث يلتقي فيها مختلف السكان يتبادلون الأذكار ويناقشون مختلف قضاياهم مثلما كان عليه الحال في الاسواق الاغريقية.

ب. المسرح :

لقد اهتم الرومانيون كثيرا بوسائل اللهو، والتسلية ،فهم يشيدون لهذا الغرض منشآت ضخمة، ولعل من أهمها المسرح (Theatrum)، وهو عبارة عن بناية دائرية الشكل يحتل قطرها ما نسميه عادة " خشبة المسرح" (La scène)، ولكنها في تلك الفترة كانت مبنية بالحجارة، وتحتل المصاطب (Les CAVEA) نصف الدائرة، وكان المسرح يستعمل لتمثيل الروايات من نوع المآسي (Tragédies)، والروايات الهزلية (Comédies)، ووعرض قصائد شعرية لشعراء إغريق مثل (DRONICUS-AN) و(NAEVIUS) ولشعراء لاتين مثل، ACCIUS و(ENNIUS) والتي من خلالها يمدحون أبطالهم وتاريخهم، وكذا فرجيل بمؤلفه الالياذة (ENEIDE) التي تعد ملحمة الرومان، شأنها في ذلك شأن ملحمة الإلياذة والأوديسة، للشاعر هوميروس بالنسبة للإغريق. لقد بقيت أطلال مسارح عديدة بالمنطقة، مثل مسرح تيموقادي

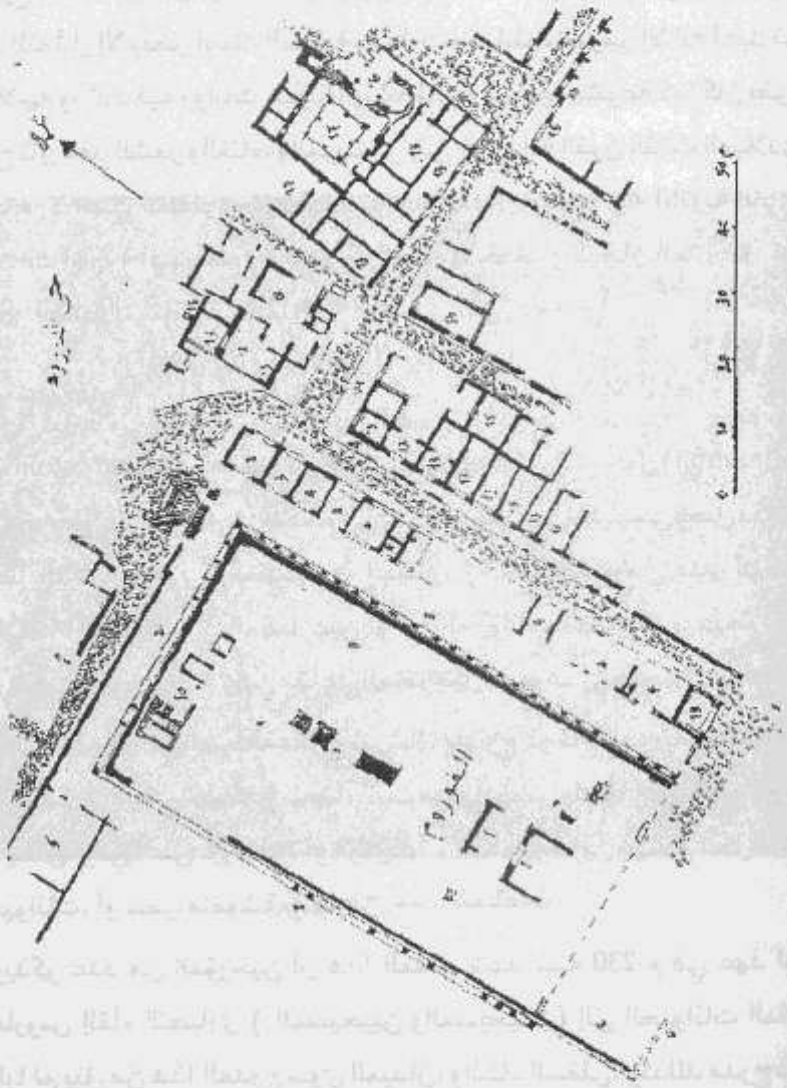

الشكل رقم 5 الفوروم

ومسرح قرطاجة، الذي شيد في القرن الثاني وألقى فيه ابوليوس خطبة، وأن مصاطبه كانت من المرمر وأعمدته رشيقةو بنايته مرتفعة، وجدرانه جميلة وأن هذا المسرح هدمه الوندال فيما بعد، ولم يبق من نصف دائرته إلا بعض آثارها والمكان المعد للتمثيل إلا بعض أبنيته السفلية وانهارت مصاطب المرمر إلا انه أعيد ترميمه وإصلاحه ومثلت فيه روايات عديدة، ونشاطات مسرحية متنوعة كما كان بقرطاجة مسرح ثان معد للشعر والغناء، والموسيقى بني في بداية القرن الثالث الميلادي، ولم يبق منه إلا البناء السفلى، ولقد أعيد ترميمه بعد أن رفعت عنه الأتربة التي غطته حيث دلت آثاره (أعمدة من المرمر الوردي، والأخضر والتيجان المتنوعة، على انه كان من أعظم المسارح في المنطقة[24] (انظر شكل رقم 6)

ج -المدرج :

(Amphitheatrum) مشتق من اليونانية (Amphi) بمعنى حول (jueatron) بمعنى المسرح، وهو عبارة عن مبنى ضخم في شكل مستدير أو اهليليجي تحتل دكانه كامل محيط الدائرة، وفي الوسط يكون الميدان (ARENA)، وهو معد للمصارعة، والملاكمة، والعراك بين المصارعين أو مع الحيوانات الضارية، ويحيط بالميدان جدار قصير يفصل بينه وبين مقاعد المتفرجين، ويعرف بالحاجز (le podium).

ولعل أشهرها في المنطقة مدرج شرشال ومدرج قرطاج الذي يقع تشييده غربي بيرصه لقد كان يضم خمسين طابقا، بنيت فوقها خمس طبقات من الأقواس بعضها فوق بعض، وفي أعلى كل نافذة أو قوس عقد مستدير مزين برسوم تمثل أشخاصا أو حيوانات، أو سفن منقوشة بإتقان.

ويذكر عدد من المؤرخين أن هذا الملعب شهد سنة 230 م في عهد اسكندر ساغاروس إلقاء النصارى (المسيحيين والمسيحيات) إلى الحيوانات المفترسة، وحاليا لم يبق من هذا المدرج سوى الميدان، والبناء السفلي، وكذلك مدرج شرشال حسب اطلاله، كان طوله 120 متر، وعرضه 70 متر، بنى في آخر القرن الثالث للميلاد [25](أنظر شكل رقم 7).

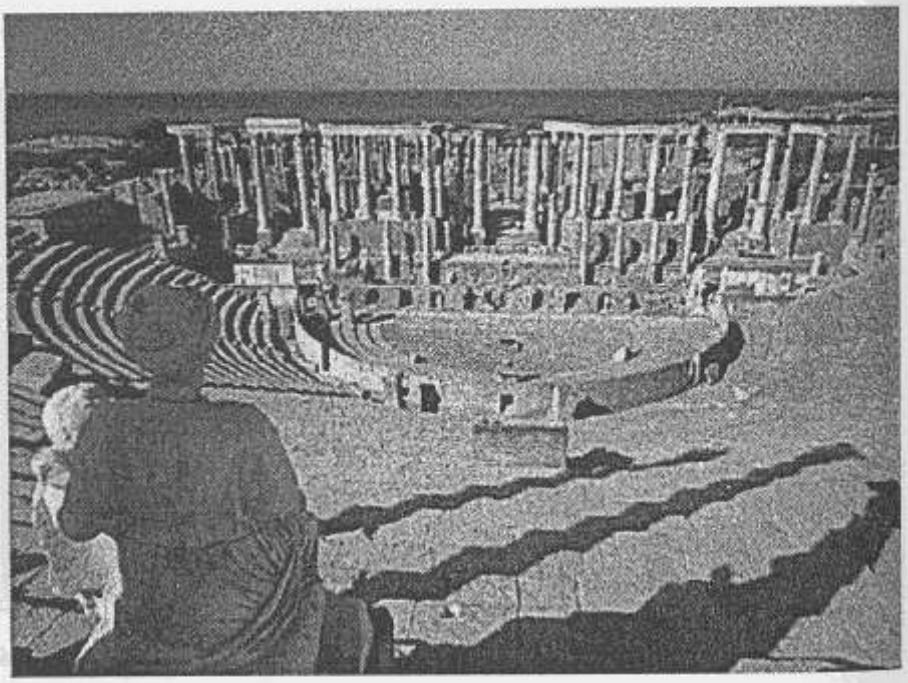

تخطيط المسرح الروماني

المدرج الروماني

والجدير بالملاحظة أن المدن المتقاربة من بعضها تتفق فيما بينها حيث توزع المرافق الترفيهية فيما بينهامن أجل التقليل من الأعباء المادية حيث تتجز مدينة مسرحا وأخرى مدرجا وهكذا ففي مدينة تموقادي بينما شيد في مدينة لمباز مدرجاً، وبمدينة الجم (Thysdrus) نجد مدرجاً ولا نجد مسرحاً، وبمدينة دقة (Thugga) بنى مسرحاً ويعد مدرج الجم الاهليليجي الشكل اكبر المدرجات الرومانية في بلدان المغرب القديم بل حسب عدد من المؤرخين اضخم بناء معماري روماني فيها، طوله 148م وعرضه 122م، وارتفاعه 36م، وكان يسع لستين ألف متفرج[26].

د- الحمامات : (Thermae)

من خلال الدراسات الأثرية يلاحظ انه لا تخلو مدينة من الحمامات الفسيحة والفاخرة، لقد كانت من الأمكنة المفضلة التي يقضي فيها الناس أوقات فراغهم، وبالتالي فهي تقوم تقريبا مقام المقاهي والنوادي اليوم، كذلك يلاحظ أن الحمام لا يستخدم للاستحمام فقط بل لتمارين وأنشطة رياضية، وبدنية، والمطالعة والحديث والمذاكرة، واللعب، فحسب الدراسات الحديثة فان الروماني أو المغربي المترومن كان يقضي في الحمام اغلب أوقات فراغه، ولا ينام إلا بعد الاستحمام. (أنظر نموذج لهذه الحمامات، الشكل رقم 8)

ولعل من أروع هذه الحمامات ما عثر عليه في تموقادي المعروفة الحمامات الشرقية الصغرى" التي احتوت على كل المرافق من قاعات الانتظار والراحة، إضافة إلى خزائن للألبسة وأحواض الحوض البارد (FRIGIDARIUM) والحوض الفاتر (TEPIDARIUM)، والحوض الساخن (CALDARIUM) ومراحيض وغرف التسخين، ولا زالت آثارها ظاهرة حتى الآن.

كما نجد بالمنطقة أيضا ما يعرف بـ" الحمامات الشرقية الكبرى" التي تم بناؤها في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، عرفت توسيعا سنة 167م، إلا أنها تحولت إلى أطلال وخزائن[27].

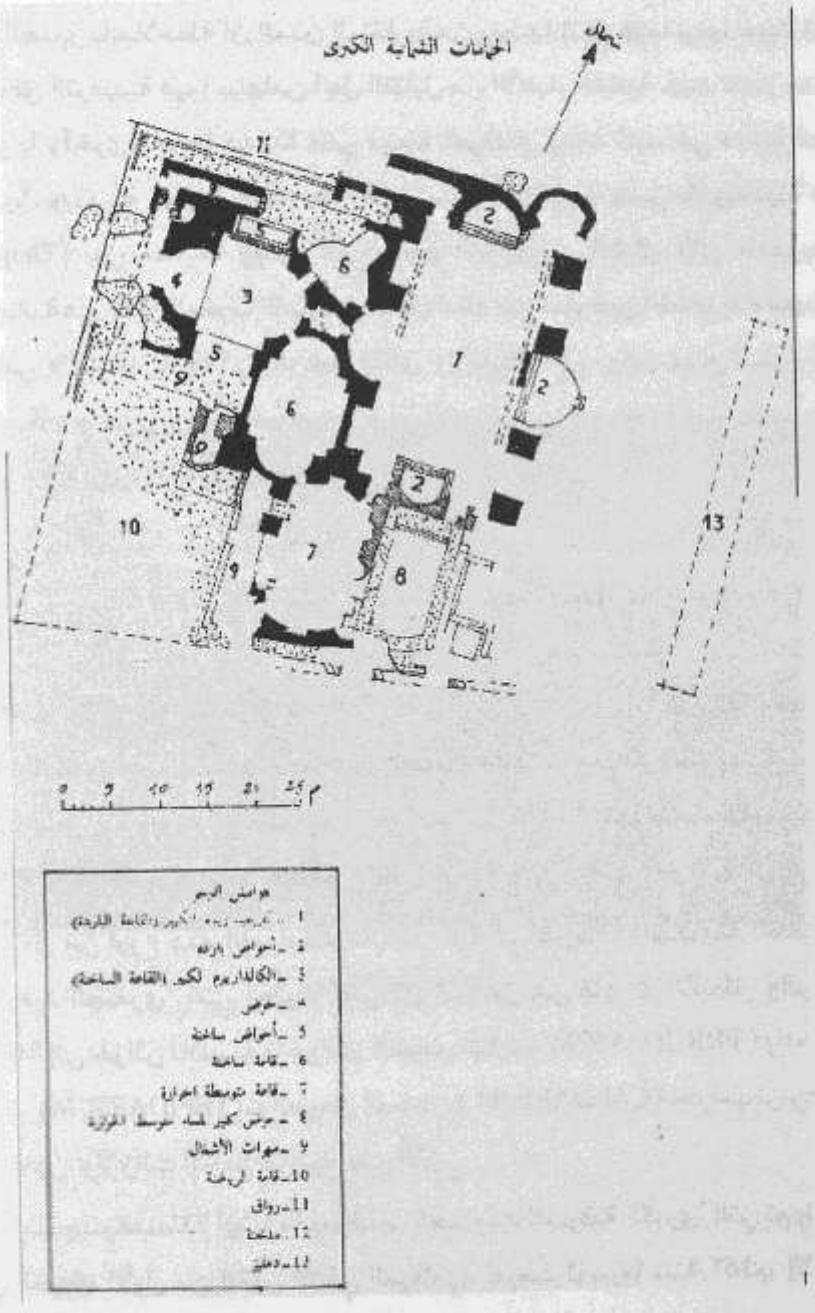

الحمامات الرومانية

كذلك نذكر حمامات قرطاجة التي تم بناؤها بين سنة 145م. وسنة 165م. وهي عبارة عن بناية واسعة لا تقل عن حمامات كاراكلا بروما بلغ طولها 200 م بالتقريب، خصص قسم منها للرجال، وقسم آخر للنساء، وكانت المياه تأتيها من الصهاريج الكبرى-قرب البرج الجديد- وتلك الصهاريج هي التي جاء مكانها ما يعرف اليوم بمستودع قرطاج للمياه العصرية.

إضافة إلى حمام (Bulla regia) أو حمامات دراجي التي اشتهرت بمنظرها الخلاب [28].

ويذكر المؤرخون أن الحمامات الرومانية بالمغرب القديم تميزت بالشساعة حيث قدرت مساحتها ب 6200 م مربع بجميلة، و3000متر مربع بلمباز وب 4000 متر مربع بتموقادي في حين بلغت حمامات انطوان بقرطاجة مساحة هكتارين 20000 متر مربع، وحمامات لبدة بطرابلس ثلاث هكتارات (30 000 متر مربع)(29).أنظر الشكل رقم 8)

هـ - المعابد: (temples) والكابتول (capitole)

لقد تم تشييد العديد من المعابد في كل أحياء المدينة لمختلف الآلهة ففي المدن الكبرى يشيد اكبر معبد وهو الكابتول، إضافة إلى معابد صغيرة للآلهة ويلاحظ انه وقع في عدة مدن بالمنطقة بناء معابد لثلاث آلهة وهي جوبتر كبير الالهة، وجينون آلهة النور، ومينرفا اله الحكمة والفنون سنذكر ذلك تفصيلا في الفصل الموالي[30]. (أنظر الشكل رقم 9)

و- المنـازل :

لقد شهدت مدن وأرياف المغرب القديم بناء منازل متنوعة :

- منازل خاصة بالمدن: (DOMUS)

عادة ذات طراز يوناني، يتكوّن من طابق واحد ومجموعة غرف أقيمت حول الساحة أو الفناء (PERISTYLUM).

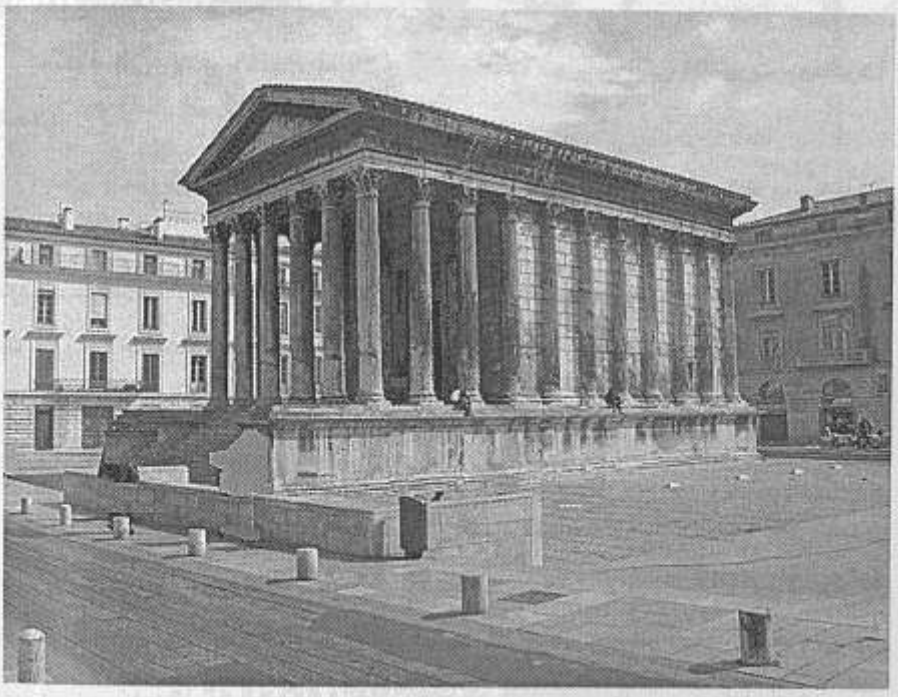

معبد روماني

الكابتول

- منازل ريفية (VILLAE URBANAV)

ومن خلال الفسيفساء مثلاً دلت على نوعية منازل وحياة الطبقة الأرستقراطية من الرومان أصحاب القصور الريفية، حيث زينت الفسيفساء منازلهم التي تتميز بمسكن على شكل قصر، يتشكل من أقواس وابراج، وساحة واسعة ورواق مشكل بالأقواس، وحول المسكن حديقة للتنزه، وروضة مزينة بالأزهار ترفرف فوقها الطيور إضافة إلى الغرف المتنوعة هناك إسطبل للفرس، وغرف خاصة بالخدم وهذا النوع من المنازل هي التي تختص بها الطبقة الأرستقراطية الرومانية أو المترومنة.

- منازل الأهالي :

أعطيت قراءة الفسيفساء ،و الآثار نوعا آخر من المساكن، صورت لنا حياة الطبقة الفقيرة التي خدمت الأرض والطبقة الغنية الرومانية والمترومنة يسكنون أكواخا فقيرة من حول المدن الرومانية، ويعتقد أن هذه المنازل في البداية كانت بدائية ثم اصبح سكانها أهل حضر بعد تحسن أحوالهم الاقتصادية يسمح لهم ببناء المنازل والديار[31].(أنظر الشكل رقم 11)

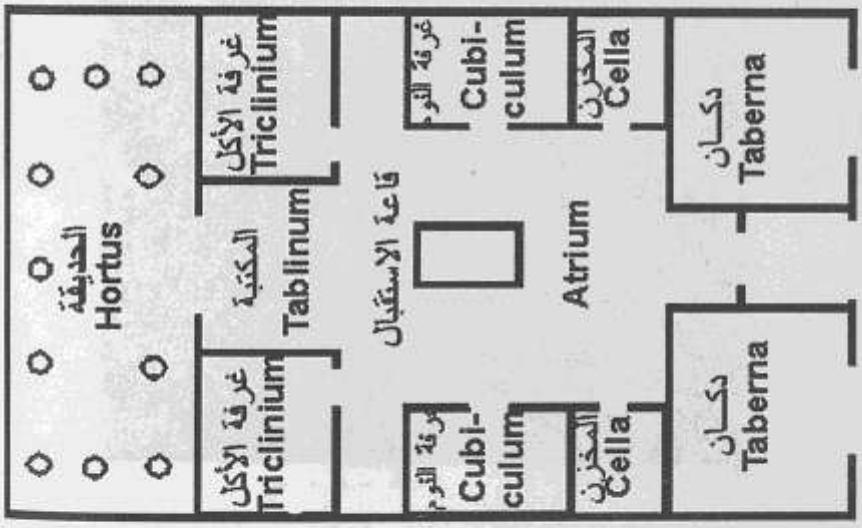

تخطيط عمراني لأحد المساكن الرومانية

الفصل الثاني

النظم الرومانية من خلال الديانة والتعليم

أولاً : سياسة روما الدينية

لقد عرف المغرب القديم كغيره من مناطق العالم القديم،عددا هاما من المعتقدات تكتمت عنها المصادر،و الشيء القليل الذي وصلنا منها يبقى يشوبه الغموض.

ومن أهم المصادر التي يمكن الأخذ بها في هذه الدراسة هي نصوص هيرودوت التي تشير إلى تقديس المجتمع الليبي للظواهر الطبيعية، ومنها الشمس والقمر وهو ما تؤكده الدلائل بحيث لوحظ رسم لكبش يحمل بين قرنية قرص شمس [32].

ويمكن إرجاع سبب تقديس المجتمعات القديمة لهذه الظواهر إلى عجزها عن تفسير وجودها،أو إلى الفائدة التي كانت قد تقدمها لها هذه الظواهر.

عملت الإدارة الرومانية في المغرب القديم على الجمع بين السلطة الإمبراطورية السياسية والروحية،و منه جعل هذا الآخر الكاهن الأعظم المؤله،لتسهيل عملية التحكم في المنطقة التي ما فتئت تثور ضد إدارة الاحتلال.

وعليه فقد أنشأت السلطة الرومانية جهازا رسميا يقوم عليه كبير الكهنة،مهمته الإشراف على هذه الديانة،و مختلف شعائرها التي تتمثل في إقامة الاحتفالات والمآدب والمهرجانات،كان يجد فيها الفقراء ضالتهم من إشباع للبطون واللهو[33].

ومهما يكن من أمر فقد كانت خريطة انتشار الديانات في المغرب القديم في الفترة الرومانية معقدة متداخلة، إذ نجد ديانات مختلفة الأصول،كالمعتقدات الشرقية البونيقية التي اعتنقها بسطاء المدن والأرياف، والمعتقدات الليبية المحلية التي انتشرت خارج مناطق نفوذ الرومان كالمناطق المعزولة من الصحاري والجبال [34].

وما يمكن استخلاصه من خلال ما سبق، هو أن المجتمع قد قدس تلك المعبودات بدافع الحاجة، ولجأ إليها عندما شعر بحاجته لها، وعندما عرف الفائدة التي تقدمها له الظواهر الطبيعية تفانى في عبادتها عن طريق الأضحيات والقرابين التي كان يقدمها لها، ولما عجز عن تفسير حقيقة وجودها ومسبباتها زاد في إقباله عليها بمحض إرادته، على عكس عبادة الإمبراطور التي فرضت عليه إكراها ورأي تبعيتها للجهاز السياسي الذي دمر حياته فحمل السلطة الرومانية مسؤولية تدهور أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية.

أما عن الخاصة التي تميزت بها الديانة عند سكان المغرب القديم قبل ظهور المسيحية به. هي أنها كانت عامل إجماع على نبذ التبعية والانصياع للإدارة الرومانية، وهو ما ساعد في تسهيل مهمة المبشرين الذين وجدوا المناخ الملائم لنشر تعاليم ومبادئ الديانة الجديدة في المغرب القديم، حيث يجمع المؤرخون أنه لم يكن للسيطرة الرومانية عمليا، تأثيرا يؤدي إلى منع عبادة الآلهة التقليدية التي قدسها السكان الأصليون في المغرب القديم، في معابد متواضعة طبقا للطقوس المتوارثة، ولكنهم عكفوا – في بعض الأحوال- على عبادة الآلهة اليونانية والشرقية، فعلى سبيل المثال كانت عبادة جنيات المياه واهبات الخصب، والصحة تتستر في بعض الأحيان وراء عبادة نبتونوس (NEPTUNUS) وإسكولابيوس (CULAPIUS-AES) وسرابيتس (SERAPIS) والالهة الفاريسي (MITHRA) وفي الأقاليم التي تنتمي للملكة النوميدية- حيث كان التأثير البوني عميقا وراسخا- توجد أيضا دلائل طفيفة على تكريس معبد للآلهة (HGLPGDM)، ولكن غالبية سكان الولايات الإفريقية مارست عبادة ساتورنوس (SATURNUS)، والآلهة اليونانية الرومانية التي تماثل آلهة قرطاجة القديمة، وكانت عقيدة ساتورنوس الإفريقي هذا مجرد

استمرار لعقيدة بعل حمون تماما مثل جونو- كايلستس (JUNO-CAELESTIS) المعبودة الكبرى، لقرطاجة الرومانية التي لم تكن سوى تانيت (TANIT)، الآلهة الكبرى لقرطاجة البونية، كما عرفت عبادة آلهات الزراعة(CERERES) في الأزمنة البونية النوميدية وغيرت عملية صبغ البلاد بالصبغة الرومانية ديانة سكان المنطقة إلى حدٍّ ما.

وفي هذا الصدد، عندما ظهرت أسماء الآلهة الرومانية مرفوقة بأسماء اللغة الافريقية مثل (BAAL HAMMON JUPITER) و(TAMIT CAELESTIS) أدرك الرومان أنه لم تتم رومنة الالهة الافريقية بل افريقية المعبودات الرومانية (ION-AFRICANISAT)[35].

وتعكس أماكن العبادة تأثير العمارة الرومانية، ولكن فيما يتعلق بلب العقيدة وجوهرها فإن الدين الإفريقي احتفظ بخصائصه المميزة، التي تعبّر عنها الطقوس والأشكال المرسومة على اللوحات، وحتى العبارات المستخدمة في الإهداءات الدينية اللاتينية، التي تحاكي الصيغ التقليدية المتعارف عليها منذ القدم، محاكاة مثيرة.

وبالنسبة لعبادة الإمبراطور الرسمية، فلم يمر وقت طويل حتى حظيت شعائرها بالتقديس في المدن، وجرى التعبير عن الولاء لروما عمليا عن طريق ممارسة الشعائر الدينية التي كانت جزءا مكملا للحضارة الرومانية وتطلع أعضاء مجلس الأعيان (ORDO DECURIONUM)، الذين بلغوا قمة المناصب البلدية إلى منصب الكهانة (FLAMEN) لمدى الحياة، وإلى أن يصبح كل منهم عضوا في جماعة الكهنة التي كانت تتمتع وحدها بحق إقامة الصلوات، وتقديم النذور باسم المواطنين للزوجين الإمبراطوريين المؤلهين، وزيادة على ذلك فإن مجلس الولاية الذي كان يتكون من ممثلي كل المجالس المحلية، كان يجتمع مرة في السنة في قرطاجة لاختيار كاهن الولاية- الكاهن الأعظم- والذي من واجبات عمله ومنصبه أن يعظم الدين الرسمي باسم كل الولاية[36].

وأخيرا كان في كل مدينة هيكل لعبادة الثالوث جوبتر(JUPITER) وجونو (JUNO) ومينرفا (MINERVA)، وعبادة مارس (MARS)، جد الشعب الروماني وحاميه وعبادة فينوس (VENUS)، وكيريس(28) (CERES)، وأبوللو (APOLLON) وميركوريوس (MERCURIUS) وهرقل (HERCULES)، وباخوس (BACCHUS) وغير ذلك من الأشكال الرسمية لعبادة الإمبراطور، والحياة الروحية اليونانية الرومانية[37].

ومن أجل ذلك أقيمت المعابد،والتماثيل، والمذابح، وقدمت القرابين على شرف هذه الآلهة، وآلهة عديدة أخرى مثل السلام (PAX) والوئام (CONCORDIA) والحظ (FORTUNA)، والروح الحارسة للإمبراطور(GENIUS)، والروح الحارسة لمجلس الشيوخ الروماني وغيرها[38].

كذلك وجدت في المنطقة آلهة الأقاليم الشرقية في الإمبراطورية الرومانية والتي وجدت قبولاً سريعاً في روما وفي منطقة المغرب، وهي الآلهة التي وصلت عن طريق الموظفين والجنود، والتجار، الذين نشروا مثلا عبادة ايزيس (ISIS) وميثرا (MITHRA أو كوبيلي (CYBELE)، وقد شبهت هذه أحيانا بالآلهة المحلية، مثلما شبهت ايزيس بديميتر (DEMETER)، أوكوبيلي بكايلستس (CAELESTIS)، وبنفس الطريقة ومن نفس الأقاليم وصلت إلى المغرب موجة التصوّف التي اجتاحت كل العالم الروماني رغم أن الأديان الشرقية الباحثة عن الخلاص لم تكن تستهوي الصفوة الإفريقية مثلما استهوتهم جمعية عبادة باخوس، وجمعية عبادة ديميتر وبالمثل فإن المذاهب الصوفية وبخاصة الأفلاطونية الجديدة انتشرت في بعض الدوائر، بل وحسب عدد من المؤرخين فإنه جرت عملية للتوفيق بينها وبين معتقدات بونية معينة، وتصور نقوش الشرفة (CHORFATSTELAE) على سبيل المثال اتجاهات متأثرة بالأفلاطونية الجديدة، ويعتقد عدد من المؤرخين أن الفكرة التي عبرت عنها هذه الآثار تعني أنه كان هناك موجود علوي أول يدير العالم السفلي بواسطة الأقاليم (Rypostates)، وأنه من المحتمل أنه كان مهّد الطريق للإيمان بإله واحد في ظل المسيحية[39]

بالرغم من أن معمري المغرب عموما دانوا بدين الرومان، وتمذهبوا بمذاهبهم إذ أن الدين جزء متمم من الحضارة الرومانية، إلا أننا نسجّل أن كثيرا من السكان الأصليين كانوا محافظين على معتقداتهم القديمة من تقديس المظاهر الطبيعية والحيوانية أو كانوا منعكفين على عبادة آلهة القرطاجيّن أي تانيت التي أصبحوا يسمونها سيلستيس والآلهة السماوية، وبعل الذي صاروا يسمونه ساترنس.

أما الطبقة الأرستقراطية فهي نبذت في الغالب هذه المعتقدات القديمة وعوضتها بآلهة الرومانيّين، وفي طليعتها الثالوث الكابتولي (CAPITOLINE LA TRIADE) جبتر، جينون، مينرفا، ثم آلهة أخرى منها؛ مارس (MARS) وهرمس(MERCURE) وغيرها.[40]

أما الآلهة الشرقية القادمة من مصر وآسيا الصغرى، فكانت تعبد بروما وكذا ببلاد المغرب، وهذا يدل على أن التدين في هذه الفترة من تاريخ المنطقة تميز بالتّسامح، وعدم التعصب حيث تم قبول مختلف المعبودات، وساد الاعتقاد لدى الطبقة المثقفة أن جميع الأديان الخاصة ما هي إلا أشكال مختلفة للدين العالمي، وأن أسماء الآلهة والآلهات ما هي إلا تعيين أصل إلهي واحد متفرق في العالم.

أما أفراد الطبقة العامة من الشعب فقد يعتقدوا أنه بقدر ما يزداد عدد الآلهة التي يعبدونها، ويقدسونها بقدر ما يضمنون لأنفسهم حماة يحمونهم ويصرفون عنهم الشر والأذى، وعليه بني ذلك الموقف الفلسفي من قبل الطبقة المثقفة، وهذا الاعتقاد من قبل الطبقة العامة، وبالتالي كلا المفهومان يؤديان عمليا إلى نتيجة مؤداها هي القبول بالأديان الأحرى.

والمؤكد أن تقديس الإمبراطور كان فوق كل عبادة، كان له المكانة الأولى حيث تميز بمواكبه الرائعة التي يهرع إليها الناس من كل مكان، تقدم الضّحايا والقرابين، وتهيئ الأطعمة المقدسة حيث تتحول المدينة إلى حانة كبيرة وينهمك الناس في الفجور[41] وبذلك العمل المقدس إشارة للوفاء، وعهد للولاء للإمبراطور.

روما والديانات التوحيدية في المغرب القديم

1) ظهورها

أما عن الديانة اليهودية فان اليهود رافقوا الفينيقيّين في أسفارهم إلى الموانئ والمصارف التجارية ببلاد المغرب، خاصة أيام توسعات الفرس نحو فلسطين ولقد انتشروا في مدن عديدة، وقاموا بدعاية كبيرة لدينهم خاصة بين الوثنيين مما أوجد أقليات يهودية ببلاد المغرب في الموانئ خاصة في قرطاجة وفي مناطق صحراوية عديدة[42].

أما عن النصرانية فلقد بدأ التبشير بها، انطلاقا من المدن والموانئ وخصوصا بقرطاج، ثم توسعت عمليات التبشير نحو المناطق الداخلية منذ أواخر القرن الأول الميلادي لكنها لم تبرز إلا في أواخر القرن الثاني للميلاد، وانطلاقا من مقولة ترتليان (TERTULLIEN) المشهورة " نحن لم نخلق إلا البارحة، ومع ذلك أصبحنا نملأ كل مكان"[43] هي مقولة من خطابه الذي ألقاه سنة 197م، مما يؤكد أن المسيحية قد تقوت واشتد ساعدها على الأخص في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد، حيث تمركزت آنذاك في افريقية البيروقنصلية، وطبقا لترتوليان الذي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، فقد كان يوجد أعداد كبيرة من المسيحيّين في المنطقة في ذلك الوقت ينتمون لكل الطبقات، ويمارسون شتى المهن.

ومن المحتمل أن مجمعا من 71 أسقفا عقد في قرطاجة في حوالي سنة 220م حضره 90 أسقف، وعقد مجمعا آخر في حوالي سنة 240 م [44]، وهذا يبيّن أن المجتمعات المسيحية الصغيرة في بلاد المغرب كانت مبعثرة بين عدة مدن مشكلاً بذلك ما اعتبرته الإمبراطورية خطرا عظيما، وكان واضحا أن المسيحيين كانوا يرفضون الإيديولوجية الإمبراطورية وبصفة خاصة يرفضون ممارسة عبادة الإمبراطور،فقد كان المسيحيون يتبنون بثبات موقف حركة معارضة، وبالرغم من نظرة روما المتفتحة، وموقفها المتسامح المعتاد إزاء الأديان الجديدة، إلا أنه لم يكن بوسعها أن تتساهل مع طائفة، تهدف إلى خلق شبكة واسعة من جماعات

تعمل من أجل مثل أعلى، مختلف خارج عن إطار الأنظمة الرسمية، وعلى هذا الأساس فرضت روما عقوبات صارمة على المسيحيين،SCILLI (UM) بأمر البروقنصل (حاكم ولاية إفريقيا)، وشهد عام 203 م استشهاد القديستين بريبيتوا (PERPETUA) وفيليستاس (FELICITAS) ورفاقهما الذين ألقي بهم إلى الوحوش الكاسرة في ساحة ملعب قرطاجة [45] ولكن رغم الإجراءات القمعية التي لا يجب ألا يفوتنا ذكرها تلك التي كانت تنفذ على فترات متباعدة دون أن تنجح في كبت حماس المؤمنين الذين كان العديد منهم يميلون بشوق كبير إلى الاستشهاد.

ومع هذا فقد عرف المغرب القديم المسيحية، قبل تاريخ 180م. وما اضطهاد المسيحين الأثنى عشر في المنطقة المذكورة أعلاه، إلا دليلا على ارتفاع عدد معتنقي الديانة الجديدة، وما أصبحوا يشكلونه من خطر،بالنسبة لعبادة الإمبراطورية ومن ورائها السلطة الرومانية.

وما يؤكد هذا الرأي هو عدم وجود أدلة مادية أو كتابية تشير إلى تاريخ أو مكان معين لظهور الديانة الجديدة في المغرب القديم، وأشهر النصوص التاريخية التي ذكرت مبشري المسيحية من الحواريين في المغرب القديم هو نص لابن خلدون استند فيه مؤرخين مسيحين،و يقول في هذا الصدد" وعند علماء النصارى أن الذي بعض من الحواريين إلى روما بطرس ومعه بولس من الأتباع ولم يكن حواريا وإلى السودان والحبشة متى العشار وأمبرواز إلى ارض بابل، والشرق توماس وإلى ارض إفريقية فلبس وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحنا،و إلى أرشليم وهي بيت المقدس يوحنا،و إلى ارض العرب والحجاز بارتلوماوس وألي ارض برقة والبربر يشمعون القناني.[46]

يتضح من النص أنه قد بعث من الحواريين فلبس إلى إفريقية البرقنصلية وشمعون القناني إلى بلاد البربر وبالتحديد إلى برقة (ليبيا)، ويذكر منساج أن هذين المبشرين قد تمكنا من استقطاب عدد كبير من الاتباع حولها،و تمكنا من نشر المسيحية خاصة في المناطق الريفية.[47] وحسب الدكتورة منصوري خديجة، فإنه لا يمكن الأخذ بهذا الرأي لعدم توفر نص صحيح يؤكد ذلك لا سيما أن كتاب منساج

ظهر في فترة نشطت فيها الحركة التنصيرية التي كانت تسعى لنشر المسيحية في الوسط الجزائري وبالتالي يبدو أن الهدف من هذا الكتاب هو هدف عملي بل لا يستبعد أن يكون ظهور قصد خدمة حركة التنصير.[48]، ويلاحظ أنه في أواسط القرن الثاني عرفت المسيحية طريقها بين سكان المغرب القديم بحيث تهافت هؤلاء على اعتناق هذه الديانة ذات الاتجاه التوحيدي. وفي هذا الصدد يصرح القديس كبريانوس في مجمع ديني بقرطاجة قائلا: إن الملحدين مهما عشقوا الأصنام إلا أنهم يعترفون بالله العلي الأب والخالق"[49] وفي مثل تلك الأوضاع التي عرفها مجتمع المغرب ذلك الوقت، حيث كثرت العبادات الوثنية، والرومانية والتعصب لها تغلغلت المسيحية في قرطاجة.

أما بخصوص الطريق الذي انتشرت من خلاله المسيحية في المغرب القديم يذكر منساج أنه كان عبر اتجاهين، الأول من الشرق والثاني من روما[50].

يعتبر استخدام الاتجاه الأول رائد مقارنة بالاتجاه الثاني،و مثلت سوسة وشرشال وقرطاجة المراكز الأولى للتبشير المسيحي في المغرب القديم.

وقد ساهم البحارة والتجار الشرقيون، الذين قدموا من موانئ الساحل الفينيقي والإسكندرية وتجار المقدس في نشر تعاليم هذا الدين، بين سكان المدن الساحلية المغرب القديم كخطوة أولى تبعتها مرحلة التبشير به في المدن الداخلية للمنطقة.

يبدوا أن اليهود الذين حاولوا نشر الديانة الجديدة من خلال هياكلهم (synag-ogues)، المنتشرة عبر مدن المغرب القديم بين بني جلدتهم واتباع المعتقدات الوثنية،سرعان ما اضطهدوا معتنقي المسيحية،لتكاثر عددهم، وربما وربما لتشكيلهم خطرا على المصالح اليهودية في المنطقة..

2- عوامل انتشار المسيحية في المغرب القديم

انطلاقا من نصوص ترتليانوس ،يشير منساج إلى أن عدد المسيحيين كان مرتفعا في القرن الأول الميلادي، ليس في افريقية البروقنصلية فحسب، بل عرفت نوميديا وموريطانيا هي الأخرى انتشار المسيحية بها[51].

ويبدوا أن معتنقي الدين الجديد لم يكونوا من البؤساء فقط، وإنما شمل شرائح المجتمع المختلفة من أغنياء، ونبلاء، وتجار، وحرفيين، ومزارعين ولا سيما الصغار منهم، وكذا عبيد المدن والأرياف، وقد تراوح عددهم في الفترة الممتدة ما بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد بين ثلاثمائة ألف وثلاثمائة وخمسون ألف مسيحي، ينتشرون على النحو التالي:

200000 إلى 230000 بالبروقنصلية

80000 إلى 100000 بنوميديا

15000 إلى 20000 بموريطانيا [52]

وبخصوص التفاوت الملاحظ بين معتنقي المسيحية، في المقاطعات الثلاث المذكورة أعلاه، يعلق منساج على أن السبب في ارتفاع عددهم بالبروقنصلية يعود إلى الاستقرار السياسي الذي تميزت به هذه الأخيرة، مقارنة بمقاطعتي نوميديا وموريطانيا اللتان عرفتا اضطرابات وثورات ضد الاحتلال الروماني[53].

يبدوا أن الفراغ الروحي، الذي كان يتخبط فيه سكان المغرب القديم والتناقض الذي ميز مختلف المعتقدات المعروفة آنذاك، ودعوة المسيحية إلى الإيمان بالإله الواحد، كل هذه الأمور مجتمعة كان لها دور لا يستهان به في انتشار هذه الديانة في المغرب القديم..

كما يظهر أن الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كانت تتخبط فيها مقاطعات المغرب الروماني، والتي سبق وأن أشرنا إليها في الفصل الأول من بحثنا هذا في إسراع المضطهدين من قبل الإدارة الرومانية إلى اعتناق المسيحية نظرا لما كانت تدعو إليه من تسامح.

ولما كانت البنية الهرمية لسكان المغرب الرماني على شكل طبقات اجتماعية متباينة، فقد تضرر البسطاء دون سواهم من تردي الأوضاع الاقتصادية وهو ما جعلهم يحلمون بغد أفضل من خلال اعتناقهم للمسيحية كونها ديانة التسامح والمساواة والعدالة الاجتماعية، وقد مثلت المسيحية الوسيلة التي عبر بها هؤلاء البسطاء عن رفضهم للسلطة الرومانية وطريق خلاصهم منها، ونبذ عبادة الإمبراطور وما يترتب عليها من تبعية للسلطة الرومانية.

كما يبدو أن الفوارق الاجتماعية تقلصت بفعل اعتناق المغاربة القدماء للديانة المسيحية، واقتطع الأثرياء من معتنقيها جزءا من ثروتهم لمساعدة البسطاء، وفي هذا الصدد يذكر تارتلياس بأن االنصارى الأوائل كانوا يتقاسمون الممتلكات وكل شيء بينهم مشترك فيما عدا الأزواج.[54].

وما من شك في أن اعتناق المغاربة القدماء للديانة المسيحية، وبخاصة منهم البسطاء كان نتيجة للأوضاع المزرية التي عرفها هؤلاء في حين يرجع تمسح الأغنياء والأرستقراطيون بفعل الفراغ الروحي الذي كانوا يتخبطون فيه، وهو ربما ما يفسر العدد الهائل من معتنقي المسيحية من الطبقات الدنيا، وهي المحرومة من كل شيء، مقارنة بالطبقات الميسورة.

إذن يمكننا القول بأنه نتيجة للعوامل الاقتصادية والاجتماعية التي كان يتخبط فيها سكان المغرب القديم في العهد الروماني، ونظرا لفحوى الديانة الجديدة القائمة على المساواة الاجتماعية والتسامح السائدين بين معتنقيها بالإضافة إلى دورالمسيحين في رعاية اليتامى وتربيتهم، وإسعاف المرضى والمحتاجين وإعالة عائلات من زج بهم في سجون السلطات الرومانية، بسبب اعتناقهم للديانة المسيحية، بسبب هذه الأعمال وغيرها التي سرعان ما ساهمت في إرساء النظام الكنسي، سارعت طبقات مجتمع المغرب القديم المختلفة إلى اعتناق المسيحية.

ويبدو أن تعايش الديانة المسيحية مع العبادات الوثنية السابقة، ظل يسود جل المغرب القديم إلى وقت متأخر نسبيا، وهو ما يمكن استخلاصه من خلال إصراركهنة حمون في القرن الثالث الميلادي على التقرب من هذا الإله بالأضاحي الآدمية.

3) روما وحركة التنصير

الاضطهاد الديني

التزم معتنقو المسيحية الأوائل في المغرب القديم، الصمت والسرية تجنبا لإثارة السلطة الرومانية،التي سخرت كل الوسائل المتاحة،و اعتمدت على كل الأساليب لفرض عبادة الإمبراطور، وقد كان المسيحيون الأوائل يمارسون شعائرهم بحرص

شديد،حيث يجتمع هؤلاء في كل مرة، بمنزل مختلف عن سابقه يتناقشون فيما توصلت إليه عملية التبشير، ويتذاكرون وصايا وتعاليم المسيح.

ويبدو أن العلاقة بين المسيحيين وغيرهم من يهود ووثنيون، تدهورت شيئا فشيئا،لتتميز بالتوتر والنزاع في أحيان كثيرة، حيث خشيت الطائفة اليهودية ذات النفوذ المادي الكبير على مصالحها بالمغرب القديم، وهو ما جعلها تحاول الضغط على السلطة الرومانية، لتنفيذ نشاط الحركة التبشيرية ،و يشير ترتليانوس في هذا الصدد إلى الوشاية والأذى الذي تلقاه المسيحيون من هؤلاء، بعدما كانت السلطة الرومانية تتعامل بنوع من التسامح مع المسيحيين، وقد تصدى الإمبراطور تراجانوس إلى الوشاة بقرار من صرح بتنصره والمبشرين بهذا الدين،و محاولة توجيه هؤلاء لعبادة الإمبراطور تأمينا لهم من المحاكمة وما ينجم عنها من عقاب.[55]

وقد عرفت حركة التبشير بالديانة المسيحية،مرحلة جديدة إثر تولي الإمبراطور كمودوس الحكم مع نصف القرن الثاني للميلاد، فتزايد عدد معتنقي هذه الديانة وجهرهم بها، ترتب عنه ازدياد اضطهاد السلطة الرومانية لهم، وهو ما يظهر جليا من خلال محاكمة مسيحي قرية(SCLLIUM) في 180م أعدم على إثرها إثنا عشر فردا منهم.[56]

لقد شكلت مبادئ الإنسانية والمساواة التي تدعو إليها المسيحية، خطرا على سلطة الاحتلال في المغرب القديم، بل أضحت تهدد كيان النظام الإمبراطوري، حتى في روما، فضاعفت السلطة من عمليات الاضطهاد وألقي الإمبراطور سبتموس سيفروس بالمسيحيين إلى الوحوش الضارية في العاب السرك، والمدرجات بعد ان استعصى عليه التحكم في تكاثر أعدادهم.

غير أن خلفه من آل سفيروس عادوا إلى سابق عهدهم، بالتعايش مع المسيحية وهو الأمر الذي شجع هؤلاء الآخرين لمضاعفة نشاطهم التبشيري، كما حاول هؤلاء أخذ العبر لهم مع السلطة الرومانية، وعليه فقد أعادوا تنظيم الجهاز الكنيسي، وأوجدوا أسقفيات جديدة.

لم تدم فترة التسامح التي ميزت عهد خلفاء سبيتموس سيفيوس من السيفرين حتى آلت الإمبراطورية إلى دقيوس (decius) الذي حمل المسيحيين مسؤولية تدهور الأوضاع الداخلية وكثرة الاضطرابات في ربوع الإمبراطورية، وسارع إلى إصدار قرار سنة 250 م ،الذي فرض من خلاله على المسيحيين العودة إلى ممارسة شعائر الديانة الرسمية، وهو الأمر الذي علق عليه ترتليانوس قائلا " لم يكن يمضي يوم إلا وقد زج بالمسيحيين في السجون، وهم مع هذا لا يستطيعون تبرئة أنفسهم، ليحكم على بعضهم بالإعدام ويعذب بعضهم الآخر وبهذا فقد صنعوا المجد "[57]

لقد ضاعف الإمبراطور فلريانوس (VALERIANUS) من اضطهاده المسيحيين، بحيث قام بإصدار منشورين سنة 257 م، نص الأول على نفي الأساقفة والرهبان،الذين رفضوا الارتداد والرجوع إلى عبادة الأوثان ومنع المسيحيين من ممارسة شعائرهم بينما نص المنشور الثاني على إعدام رجال الدين المسيحيين،ما لم يعلنوا اعتناقهم للديانة الرسمية، قائلا ،" من لا يرتد يقتل ذبحا" [58]. وقد أقر هذا المرسوم تجريد أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان من المسيحيين من ألقابهم وتنحيتهم من مناصبهم وحجز ممتلكاتهم.

لقد ارتد كثير من المسيحيين على ما يبدو نتيجة التعذيب الذي تعرضوا إليه وعادوا إلى ممارسة شعائر الديانة الرسمية،لاسيما وأنهم أصبحوا يعلنون ارتدادهم قبل محاكمتهم، بل وكان بعضهم يعلنها جهارا في الساحات العمومية.

وقد شكلت ظاهرة الارتداد عن الدين المسيحي،علامة استفهام بالنسبة للكنيسة،من حيث التعامل مع هؤلاء ودرجة الذنب المقترف ،و كيفية دمجهم إن عادوا إلى المسيحية، مع الجدل حول قضية تعميد المنشقين، حيث عقدت عدة مجامع دينية، قصد دراسة هذه القضايا ومحاولة إيجاد حلول لها، وكان ذلك بين سنوات 251 م. و254 م. ولكن هذه المجامع لم تخرج بحل نهائي.

لقد ظلت القضايا المطروحة على المجامع الدينية مع بداية القرن الثالث الميلادي تثير الخلاف بين رجال الدين المسيحين،حتى القرن الرابع الميلادي، وقد عرف المسيحيون نوعا من التسامح من طرف السلطة الرومانية بخصوص ممارسة

شعائرهم في الفترة الممتدة ما بين 209 م. 303 م.، أي في عهد الإمبراطور كالوس، بحيث حاولت السلطة الرومانية كسب تأييد المسيحيين للتأثير الإيجابي الذي كان هؤلاء يمارسونه على الجمهور، ومنه فقد أعفت هؤلاء من عبادة الإمبراطور.

استغل المسيحيون فترة السلم التي أتيحت لهم، مع أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع للميلاد، وجعلوا جل اهتمامهم موجه للتبشير وتزويد الجهاز الكنسي بخزينة استغلت في التخفيف من معاناة الفقراء واليتامى في المجتمع بل كان لغير المسيحيين فيها نصيب، ونتيجة ذلك فقد ازداد عدد المعتنقين للمسيحية مع ارتفاع عدد الأسقفيات في أواخر القرن الرابع الميلادي إلى حوالي 250 منتشرة عبر كامل مقاطعات المغرب الروماني.

ويتولي دكليانوس (C.A.V DIOCLETIANUS) أمور الإمبراطورية الرومانية، مع نهاية القرن الثالث الميلادي عادت الأوضاع التي كان عليها المسيحيون، قبل النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، فقد أصدر ديوكلبانوس [59] في الفترة ما بين 303م- 304م أربع قرارات تضمنت:

القرار الأول، نص على :

- عدم السماح المسيحيين بعقد الاجتماعات وتأدية الشعائر.
- هدم الكنائس وحجز الأدوات المستعملة في الطقوس.
- مصادرة الأملاك العقارية وبيع قسم منها بالمزاد العلني، وضم القسم الآخر إلى أملاك الإمبراطورية.
- حرق الكتب المقدسة وسجن رجال الدين.

القرار الثاني :

- حرمان المسيحيين من حقوق المواطنة وحماية الدولة لهم.
- طرد المسيحيين من الوظائف الحكومية مهما كانت رتبهم في السلك الوظيفي أو مركزهم الاجتماعي.
- عدم السماح للمسيحيين بالترافع أمام المحاكم للدفاع عن أنفسهم.

القرار الثالث :

- البحث عن المسيحيين ومتابعتهم وتسليمهم للسلطة لتحديد العقوبة عليهم.

القرار الرابع:

-الارتداد عن الدين المسيحي، وتقديم القرابين لآلهة الديانة الرسمية للسلطة الرومانية، ورفض الامتثال لهذا القرار يعرض صاحبه للموت أو العمل بالمناجم.[60].

الظاهر أن الإمبراطور دقليانوس كان يصبو من خلال إصداره للقرارات التي تحد من نشاط المسيحيين إلى تحقيق الوحدة السياسية، بإلغاء التسامح الذي استغلته الكنيسة في تقوية نفوذها واستبداله بالاضطهاد ليتمكن من إحداث الوحدة في المعتقدات المختلفة،أوساط المغرب القديم في عبادة الإمبراطور.

ولقد تبين للسلطة حقيقة المسيحية، من خلال تمكنها من استقطاب عدد كبير من الأنصار، الذين أدركوا التناقض الكبير بين واقعهم في ظل السلطة الرومانية، وبين النظام الذي أقامته هذه الديانة بين أوساط معتنقيها،و الذي كان مضمونه مبادئ إنسانية تقوم على الأخوة والمسالمة، والتعاطف، وكانت المسيحية تدعو بعدم العنف ورمي السلاح، لأنه يضر بالآخرين، وهو ما دفع بالمنتصرين من أفراد الجيش إلى عصيان أوامر قادتهم، وامتناع بعض أبناء الجنود عن الانخراط في الجندية المفروضة عليهم بالوراثة، مع عدم الاكتراث بالعقوبات المسلطة عليهم من حرق، وتصليب أمام الجمهور، فأصبحوا من الشهداء الذين يقتدى بهم في التضحية من أجل العقيدة، فتسابق الكثيرون للفوز بهذا المجد، وكانت نظرية ترتوليانوس تقول إن المسيحي لا يدخل الجيش، ولا يمكن أن يكون جنديا، وإن اعتنق الجندي المسيحية فإن أفضل ما يقوم به هو الفرار"[61]. لم تتوقف السلطة من اضطهاد المسيحيين الذين فضل بعضهم التضحية في سبيل دينه، في حين ارتد آخرون لضعف إيمانهم، رشده الاضطهاد الذي سلط عليهم في أبشع صوره.

ونجمت إثر ه الأزمة الكبيرة، التي عرفت في تاريخ الكنيسة بالانشقاق الديني،مع نشوب خلافات بين رجال الدين المسيحيين،وانتشار ظاهرة الهرطقة، إلا أن موقف

السلطة الرومانية، وتغير نتيجة فشلها في القضاء على المسيحية، ودفعها إلى أن تنتهج سياسة التحالف معها، حتى تستفيد منها بعدما أيقنت دورها في التأثير في أوساط الشعب.

ويبدو أن السلطة الرومانية أصبحت تتسامح مع المسيحيين، فقدمت لهم تسهيلات وساندت حركتهم التنصيرية،بكل الوسائل لينتشر هذا الدين في أوساط السكان وهو الموقف الثاني للسلطة من حركة التنصير في المغرب القديم.

روما واعترافها بالمسيحية

لقد عرفت الكنيسة مرحلة جديدة بتغير موقف السلطة الرومانية منها، وذلك بعد إعلان الإمبراطور قسطنطين الأكبر اعتناقه المسيحية عام 312 م، حيث قام بوقف عمليات الاضطهاد الديني، وعمل على نصرة المسيحيين وبارك حركة التبشير المسيحي.

غير أن قبل تناول السياسة التي اتبعها هذا الإمبراطور، الذي قال عنه المؤرخون أنه داهية في الحكم،ذو بصيرة فاق فيها من سبقه. نحاول عرض الأسباب التي دفعت به إلى إعلان تنصره، والتي من بين القضايا الغامضة في تاريخ الكنيسة، فقد اختلفت الآراء وتعددت حول أسباب اعتناق هذا الإمبراطور للمسيحية، وبالغ بعض المؤرخين في إبراز الأثر الذي أحدثه تنصره، خاصة منه النصر الذي أحرزه على منافسيه، وكان أشدهم بأسا شريكه مكسانس(M.A.V MAXENCE) إذ يرجع بعضهم النصر الذي ظفر به على هذا الأخير يوم 28 أكتوبر 312 م. إلى اعتناقه المسيحية، في حين يرى البعض الآخر من المؤرخين العلمانيين، أن اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية كان نتيجة رغبته في تغيير الأوضاع المضطربة، والتخفيف من حدة التوتر الذي ساد الإمبراطورية، بعد ظهور هذه الديانة في أوساط سكان الإمبراطورية الرومانية، وسرعة انتشارها بينهم، والبحث عن حل يستعيد به وحدة الإمبراطورية يحل محل عبادة الإمبراطور، وأكثر ما يؤكد هذا الرأي تلك القرارات التي أصدرها هذا الإمبراطور في حق هذه الديان، وأولها نص ميلانو، المتضمن دعوته جميع

ممثلي الأسقفيات في الغرب الروماني إلى الاجتماع عام 313 م. بمدينة ميلانو (MILANO) الإيطالية، وهو تجمع كان بمثابة مؤتمر سياسي، هيمنت عليه إرادة الدولة، وحضره شريكه قسطنطين في الإمبراطورية (ليكينوس) (licinius)، وجاء في لائحة الختام التي سميت ببراءة ميلانو ما يلي " بعد البحث بكل عناية فيما يمكن أن يكون نافعا لخير وسلامة الدولة، وعما يمكن أن يؤدي خدمة لأكثرية الناس رأينا وجوب تسوية كل ما هو مختص بالاحترام الواجب للذات الإلهية، قصد تمكين المسيحية كافة المواطنين من حرية ممارسة الدين الذي يختارونه"[62].

وما نستخلصه من هذا النص،هو منح الإمبراطور المواطنين الحرية في اختيار المعتقد، وإلغاء كل ما من شأنه أن يلحق الأذى بالمسيحية،من قرارات صادرة ضدهم، وبهذا فقد استطاع قسطنطين تحقيق ما عجز الأباطرة السابقين من تحقيقه بقوة السلاح، حيث أصبح يطمح في كسب تأييد الكنيسة، والتمهيد للتحالف معها لعله يتمكن بذلك من القضاء على الاضطرابات التي تسبب فيها المسيحيون.

استمر قسطنطين في العمل بقرارات هذا النص، حتى بعد انتزاعه العرش من شريكه ليكينوس كل سنة 324 م.، فهو لم يفضل أي ديانة عن الأخرى من الديانات التي كانت سائدة في مختلف أنحاء الإمبراطورية خاصة وانه كان يستفيد من خدمات عدد من الوثنيين الأثرياء لصالح السلطة.

وهو ما يزيد في قوة الحجة الثانية التي تميل إلى اعتبار تنصره إنما كان لرغبة سياسة، بتحويل الكنيسة إلى جهاز إيديولوجي قوى التأثير على الرعية لخدمة مصالح الدولة.

وقد أمر قسطنطين، تطبيقا لما جاء من قرارات في براءة ميلانو، بإعادة ممتلكات الكنيسة لأصحابها، والسماح للمسيحيين ممارسة شعائرهم الدينية وتعويضهم عما فقدوا من ممتلكات، كما أمر بتمويل الكنيسة وبتخصيص جزء من دخل كل إقليم لفائدتها لمباشرة أعمالها الخيرية، من صرف المساعدات المالية للفقراء واليتامى، وتغطية مصاريف رجال الدين.[63]

لقد أعفى قسطنطين رجال الدين المسيحيين من أعمال السخرة،حتى يتسنى لهم ممارسة شعائرهم الدينية،و منحوا حق الانخراط في المجالس البلدية، مع عدم أداء الواجبات المفروضة على جميع أعضاء هذه المجالس،و قد أدى هذا الامتياز الذي حظي به رجال الكنيسة المنخرطين في هذه المجالس، إلى تسابق غيرهم من أعضاء ذات مجالس الوثنيين،إلى اعتناق المسيحية، بعد أن كانوا من اشد المعارضين لها، رغبة منهم في الاستفادة من الامتيازات، التي منحتها السلطة الإمبراطورية للمسيحيين دون سواهم، من بينها عطلة يوم الأحد، وشرعية العتق الذي يتم على يد رجال الدين وحق ممارسة السلطة القضائية على أعضاء إكليز وسهم (هيئة الكهنة) من دون قاض البلدة.[64]

والظاهر أن المسيحيين استفادوا من هذه الامتيازات، التي حرم منها غيرهم من ذوي المعتقدات الأخرى، فقد كان تنصر الإمبراطورية عاملا مشجعا على انتشار المسيحية، حيث أخذ أثرياء ووجهاء الدولة، وهم الذين كانوا يشكلون طبقة النخبة في المجتمع يعلنون تنصرهم إقتداء بسيد العالم، فقويت الكنيسة سياسيا، وأصبح أتباعها كبار الملاك، وراح الأثرياء يغدقون عليها من أموالهم تزلفا لرجالها وطلبا للغفران،فارتفع رصيدها الاقتصادي، وتشكلت طبقة اجتماعية مرموقة من رجال الدين، وأصبحت هذه الطبقة بدورها تضطهد العناصر الوثنية، ومختلف النحل الدينية الأخرى التي طالما اضطهدتها، محددتا وحدتها،وبرزت من هنا بوادر انحراف الكنيسة عن مبادئها الإنسانية،التي نادت بها مع بداية ظهورها،وفقدت بالتالي قيمتها المعنوية لدى الطبقة المحرومة التي كانت وقود لنيران الاضطهاد من قبل، وأصبحت مؤيد للسلطة الرومانية القائمة على الاستبداد والظلم الذي طالما عارضته بالتضحيات من أجل ترسيخ مبادئ المسيحية في نفوس المقهورين، وإذا كانت غالبية رجال الدين من الفئة المعتدلة قد رضيت بهذه الوضعية،فإن الأقلية المتطرفة رفضت ذلك التحول الذي عرفته الكنيسة، بعد أن تخلت هذه الأخيرة في نظرهم عن مبادئها، وتحالفت مع السلطة، وهذا ما أدى إلى ظهور الانشقاق الديني، وانقسام المسيحيين في المغرب القديم إلى فريقين، الأول موالي للسلطة تمثله

الكنيسة الكاثوليكية، والفريق الثاني معارض للنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي،تزعمه العناصر المنشقة عن الكنيسة والذي عرف في تاريخ الكنيسة بالحركة الدوناتية.

ب- الانشقاق الديني في المغرب القديم وأثره

قبل التطرق إلي عوامل الانشقاق الديني،الذي تزعمته الحركة الدوناتية يجدر بنا التعريف بهذه الأخيرة، فهي تيار ديني معارض مستقل، معارض للسلطة الرومانية والكنيسة الرسمية، حافظ على المبادئ الأصلية للمسيحية التي ضحى من اجلها الشهداء الأوائل،ورفضت هذه الحركة التعاون مع السلطة،و الامتثال للإمبراطور الذي اتخذ من تنصره عاملا ووسيلة لبسط نفوذه في منطقة المغرب القديم.

تزعم الحركة الدوناتية العناصر المنشقة عن الكنيسة الرسمية على ما يبدو، حيث اتخذت طابع إيديولوجي معاد ومعارض للسلطة والنظام السياسي، الروماني، أطلق على هذه الحركة الرومانية إلى اسم زعيمها (DONATUS) دوناتوس من قرية ديار السود، الذي كان له دور هام في تأسيس هذه الكنيسة، والشخصية الثانية هي الأسقف دوناتوس القرطاجي المعروف بدوناتوس الكبير الذي نظم هذه الحركة.[65] وقاوم أساقفة كنيسة قرطاجة التي رضيت بقوانين السلطة الرومانية وقبلت شروطها التي رأى فيها دوناتوس خيانة عظمى للشهداء الأوائل،و قد تمكنت الحركة الدوناتية من استقطاب جموع كبيرة من المسيحيين المخلصين،في بداية القرن الرابع الميلادي 5 مارس 305 م إثر القرار الذي أصدره مجمع كيرتا الذي هيأ الأرضية لظهور الدوناتية في شمال إفريقيا، ومنه فقد اعتبرت هذه الحركة تعبيرا صريحا عن التذمر الذي كان يحاول سكان المغرب القديم التعبير عنه من خلال التمسك بتعاليم المسيحية.

الظاهر أن عوامل ظهور الحركة الدوناتية أو الانشقاق الديني في المغرب القدم تعود إلى اضطهاد دقليانوس المسيحيين وإلى أحداث قرية أبيتينا في البروقنصلية

سنة 304 م، التي تسببت في تجدد العناصر المرتدة أثناء الاضطهاد وتسليم الكتب المقدسة، وهو ما شجع على ما يبدو العناصر الرافضة لعودة المرتدين عن المسيحية على تأسيس كنيسة ضمت أولئك الذين صمدوا في وجه الاضطهاد،غير أن دور المجمع وقراراته لم تكن السبب الرئيسي في ظهور الدوناتية، وذلك لعدة أسباب، أهمها فشل الأساقفة في إيجاد حل لقضية الارتداد، ووجود عناصر مرتدة في صفوف الدوناتيين أنفسهم، وهو ما أفقد المجمع دوره الديني، وبالتالي فإن وجود عناصر مرتدة من الدوناتيين، الذين كانوا ينادون بضرورة الانفصال عن أسقف الكنيسة الرسمية لا يسمح لنا بإعطاء مجمع كيرتا الدور الرئيسي في ظهور الدوناتية، وهو ما يرجح وجود عوامل أخرى، ساهمت في ظهور الانشقاق الديني والانفصال عن الكنيسة والكاثوليكية وما ظهور الدوناتية إلا امتداد للعوامل التي ساهمت في انتشار الديانة المسيحية ابتداء من القرن الثاني الميلادي، ويمكن حصرها أساسا في العداء القومي للهيمنة الرومانية بالإضافة إلي العوامل الاجتماعية والاقتصادية من تردي الأوضاع الاقتصادية، وظروف الحياة القاسية التي تضرر منها غالبية سكان المغرب القديم حيث اجتمعت هذه العوامل إلى جانب التحول الذي عرفته الكنيسة الدوناتية وانتشارها في المغرب القديم.

ويبدو أن هذه التحولات تركت شعورا بالامتعاض وسط الفئات المحرومة من السكان الذين رأوا في الكنيسة الجهاز السلطوي المسخر لخدمة مصالح سلطة الاحتلال،وبالتالي ولا يمكن الاعتماد على الكنيسة لتحسين تلك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كانوا يعانون منها،لذا أصبح الانضمام للدوناتية الحل الوحيد في نظر المنفصلين عن الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق مآربهم، وهو ما يؤكد طابع الحركة المعاد للسلطة الرومانية ونظامها السياسي في الاستلاء على الأراضي وفرض الضرائب المجحفة على المغاربة، خاصة بعد امتداد خط الليمس نحو الجنوب وتكثيف المراكز العسكرية، وعن العوامل الاجتماعية فمثلها الحصار الاجتماعي الذي ترتب عنه الحصار الوظيفي، حيث كان المتضررون من هذه السياسة من فلاحين بسطاء وعاطلين وفئات فقيرة، وحتى أعضاء المجلس البلدي

لم ينج من هذه السياسة وكانوا يفقدون أراضيهم عنوة، كذلك العقوبات المفروضة على الذين خرجوا من مدنهم دون إذن.

وعن العوامل السياسية فتكمن في الاضطرابات التي شهدها المجتمع المغربي القديم بداية من القرن الرابع الميلادي، والتي تمخضت من خلالها فكرة المعارضة للسيطرة الرومانية وسخط السكان الأصليين، حيث شجعت كل هذه العوامل على قطع الصلة بكل ما له علاقة بالسلطة الرومانية، وأولها الكنيسة الكاثوليكية التي اعتبرت الممثل الفعلي للجهاز السياسي.

وهكذا وجد الدوناتيون في حركتهم الممثل الشرعي وأفضل معبر عن إرادة الأهالي المقهورين، بعدما اجتمعت حولها جموع كبيرة من المسيحيين المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت في نظرهم المنشق الحقيقي عن المسيحية لأنها تخلت عن مبادئها الأصلية.

ج - سياسة روما تجاه الحركة الدوناتية

لقد تباين موقف السلطة الرومانية من الحركة الدوناتية، عبر مرحلتين امتدت المرحلة الأولى من سنة 313م إلى 347 م.، وشملت المرحلة الثانية، الفترة الممتدة من 347 إلى 412 فهي الحد الفاصل الذي ظهر من خلاله التغير في موقف السلطة السياسية من الحركة الدوناتية.

1 - الموقف الأول :

تميزت هذه المرحلة بمعارضة السلطة الرومانية لهذه الحركة من خلال القرارات التي أصدرها ضدها، منها القرار الذي أصدره قسطنطين سنة 313 والذي يؤيد فيه رجال الكنيسة الكاثوليكية بإعفائهم من أعمال السخرة، حيث دفع هذا الموقف بالدوناتيين إلى طرح قضيتهم أمام أساقفة أجانب[66]، مشيرين إلى جرائم الإمبراطور ديكليانوس، أن موقف البابا قد خيب آمالهم بإدانته لدوناتوس وحركته فاحتج الدوناتيون وطالبوا بعقد مجمع آخر يشرف عليه أساقفة جدد فاستجاب

قسطنطين لهذا الطلب، إلا انه هو الآخر كان ضد الدوناتيين، حيث طلب من الدوناتيين الامتثال لقرارات السلطة السياسية، لكنهم رفضوا ذلك، وطالبوا مرة أخرى من قسطنطين التدخل لحل الخلاف بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية، فاستجاب لطلبه، إلا أنه أدانهم في الأخير، وحاول القضاء عليهم من خلال القرارات التي كانت تفرضها المجامع الدينية، وبعد فشل محاولات تطبيق القرارات غيرت السلطة سياستها اتجاه الدوناتيين، بتبنيها حملة إضطهادية ضدهم،لكن نتائج الاضطهاد جاءت معاكسة لما خططت له السلطة حيث كثر مناصروهم وقويت حركتهم بحيث أصبحت احركة تشكل خطرا على السلطة الرومانية ورأت هذه الأخيرة فيها المصدر الرئيسي للفوز في المنطقة، ويكمن السبب الرئيسي في تأخر السلطة في اتخاذ هذه السياسة إلى الاضطرابات التي كانت تعرفها الإمبراطورية وقتئذ، وإلى تخوف السلطة من نتائج سياسة الاضطهاد وصعوبة تحقيق الوحدة السياسية الدينية من جديد في المنطقة.[67]

يبدو أن سياسة الاضطهاد هي الأخرى لم تتمكن من القضاء سوى على ثلاث كنائس دوناتية بقرطاجة، ولعل هذا ما دفع بالسلطة إلى تغيير موقفها من هذه الحركة، وإعلان التسامح معها من خلال القرار الذي أصدره قسطنطين سنة 321 م سمح، بموجبه للدوناتيون بممارسة طقوسهم والاحتفاظ بكنائسهم وعودة أساقفهم المنفيين، وذلك رغبة من الإمبراطور في إعادة الاستقرار إلى المنطقة فنعم الدوناتيين بموجب هذا المنشور بفترة من السلم واستفادوا من الاضطرابات التي كانت تعرفها المنطقة حيث وظفوها لصالحهم.

2 – الموقف الثاني:

يبدأ بحملة إعادة الوحدة الدينية في شمال إفريقيا، من خلال سياسة الإغراء التي جاء بها الإمبراطور قسطنطين لإعادة الوحدة بتقديم مساعدات مالية للدوناتيين في محاولة منه شراء ذممهم لعلهم يتخلون عن حركتهم،إلا أن موقف دوناتوس كان عكس ذلك إذ رأى في ذلك تدخل من الإمبراطور في شؤونهم الدينية،و نشير هنا أن موقف الدوناتيين قد اختلف من مقاطعة لأخرى بين رافض ومؤيد. كما

استفاد الدوناتيون من تسامح الإمبراطور جوليان الذي أعاد لهم كنائسهم التي صودرت بموجب القرارات السابقة. وانتهزوا فرصة التسامح بالانتقام من الكاثوليكية، بمساعدة شخصيات سياسية، كمساعدة (athenius)، حاكم موريطانيا القيصرية عندما حاول الدواناتيون في سنة 362 م، ولكن مع تولي الإمبراطور فالنتينيان (F.VALENTINIEN) وغراتيان (F GRATIEN) تجدد عهد الاضطهاد، وكذلك الإمبراطور هنوريوس (F.honorius) من خلال القرارات التي كانوا يصدرونها ضدهم ورغم محاولات السلطة القضاء على هذه الحركة إلا أنهما لم تتمكن من ذلك فقويت وتضاعف نشاطها ضد الكاثوليك وأصبحت تشكل خطرا يهدد تحالف السلطة والكنيسة الكاثوليكية الإفريقية [68]

هـ موقف الكنيسة الكاثوليكية من الكنيسة الدوناتية

قاوم الدوناتيون خصومهم الكاثوليك بقطع العلاقات معهم، واستخدام العنف ضدهم،أما بالنسبة للكاثوليك فقد تباينت مواقف المجامع الكاثوليكية من الدوناتية الأخرى ومرت بمرحلتين اتجاهها.

تميزت المرحلة الأولى بالضعف تجاه هذه الحركة في حين عرفت المرحلة الثانية نشاطا، وذلك منذ تولي أغسطين السلطة الدينية بمدينة عنابة في 392 م.، وقد انتهز فرصة رفض المسيحيين الانضمام الى الكنيسة الدوناتية بسبب إعادة التعميد لجلب المزيد من الأتباع، كما سمح دوناتيين الذين يعودون إلى الكنيسة الكاثوليكية ضمن المدنيين وإبقائهم في مناصبهم الدينية السابقة، كما اقترح عليهم من خلال مجمع سنة 348 إمكانية تعيين الكهان من بين الذين في صغرهم بالنسبة للدوناتيين.[69]

وظلت الكنيسة الكاثوليكية منذ ظهور الدوناتية تستشير كنائس ما وراء البحار، فيما تتخذه من إجراءات لمواجهة الدوناتية بحيث لا تسرع باتخاذ أي إجراء دون موافقة الكنائس.

وحل الخلاف السائد بينهما وبين الدوناتية ولوضع حد للوضع الذي كانت تعيشه الإمبراطورية، رأت الكنيسة الكاثولية الدخول في مفاوضات، ومناقشات علها تخمد

الأوضاع، وتضمد الجراح لكن هذا المشروع انتهى بالفشل، فبادرت الكنيسة الكاثوليكية إلى طلب الحماية من الإمبراطور بعدما كثرت محاولات الاغتيالات التي تعرض لها اتباعها ،طالبة إعادة الوحدة الدينية بموجب تحالفها مع السلطة،ورغم كل المحاولات لم تنجح في وضع حد للحركة الدوناتية رغم كل المحاولات، ومهما يكن فان قوة الحركة الدوناتية والخطر الذي شكلته على السلطة الرومانية منذ ظهورها لم يدم، حيث ضعفت الحركة وبدأت الكنيسة الدوناتية تعيش مرحلتها الأخيرة التي تميزت بالضعف بسبب الانقسامات الداخلية التي عرفتها الحركة بمجرد وفاة زعيمها دوناتوس ليبدأ الصراع بين زعماء الدوناتية وانشغالهم بذلك عن مواصلة نشاطهم بنفس الحماس الذي عرفوا به، وأسباب أخرى تعود إلى التطورات التي تعرفها هذه الحركة أثرت عليها وساهمت في إضعافها، هذا وتواصلت الصراعات التي عرفتها المقاطعات الدينية في إطار النشاط الديني العام.

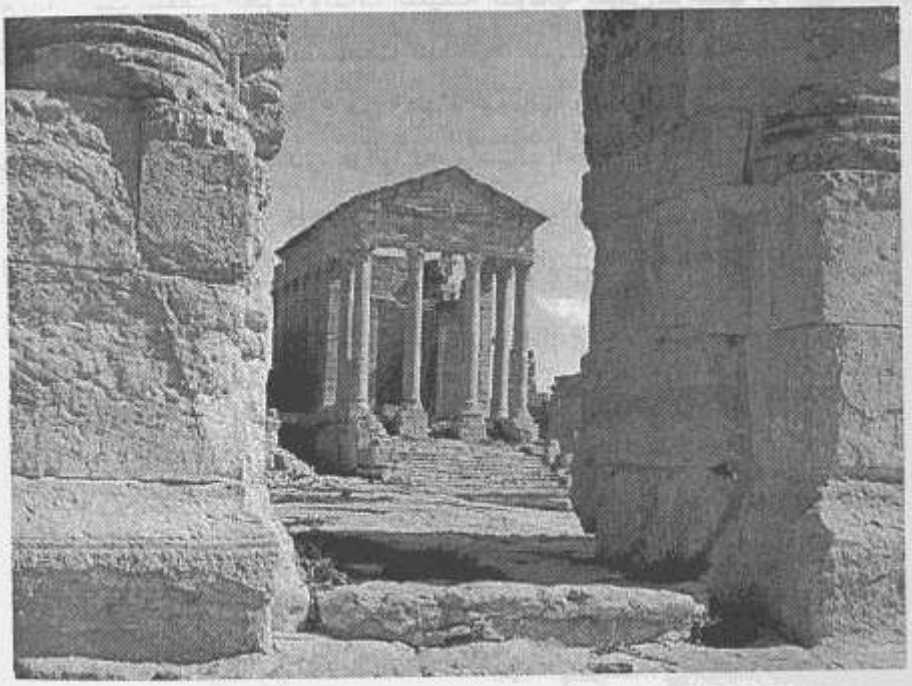

معبد الكابتول بمدينة دقة

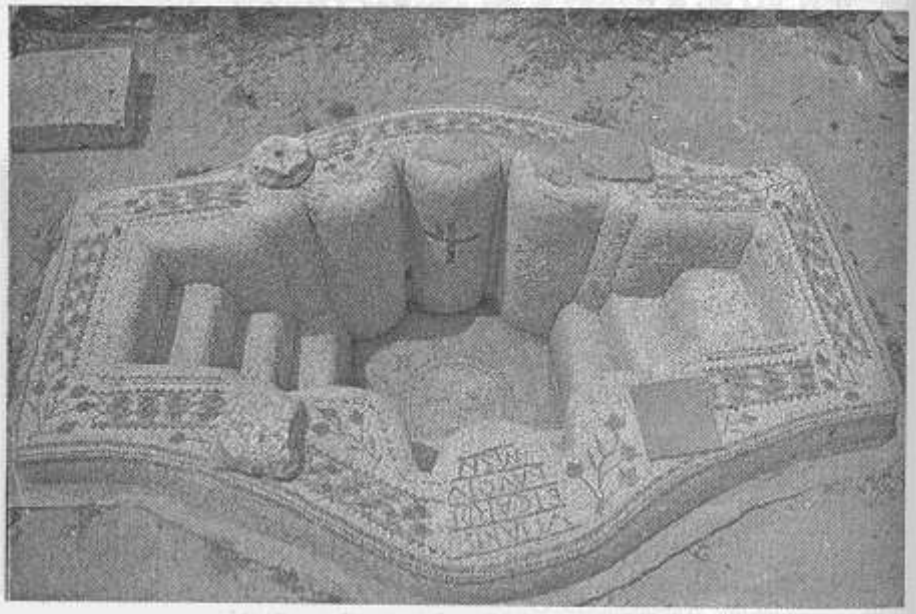

آثار بيت العبادة في سبيطلة

آثار كنيسة بمدينة سيكا فنيريا (الكاف)

الفصل الثالث

آثار سياسة الرومنة على شعوب المغرب القديم

1) من الناحية القانونية

بعد تدمير قرطاجة سنة 146 ق م، وتحويلها إلى ولاية رومانية أصبح مصير شمال إفريقيا في أيدي الرومان، ورغم ذلك فإنه لم يكن من السهل تحقيق احتلال المنطقة أو حسب لغة الاستعمار- تهدئة البلاد- فقد قوبل انتشار الرومان جنوبا وغرباً من إقليم قرطاجة، ومملكة يوبا الأول بمقاومة شديدة وعنيدة، ولسوء الحظ وصل المؤرخين فقط سجلات عن أبرز حوادث المقاومة لسياسة الرومنة دون تفاصيل أخرى، فبعد أن فرضت روما سيطرتها ودعمها فإن الوحدة الثقافية والاقتصادية التي عملت روما بجد لنقلها إلى بلاد المغرب تعرضت أخيراً لمقاومة لا تنتهي أخذت الطابع العسكري، وكان لها أيضا مظاهرها السياسية والعرقية والاجتماعية والدينية.

لقد كانت الطبيعة المميزة للحروب الإفريقية تبرز بصفة خاصة من الروايات الخاصة بمظاهر الغزو، وخلال الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد فإن التتابع الطويل للانتصارات التي أحرزها القادة الرومان على مختلف ثورات المنطقة يعطى دليلاً على أن سكان المغرب القديم لم يخضعوا خضوعا تاما لسياسة الرومنة رغم الانتصارات الرومانية، لقد كانت الحرب التي قادها الزعيم النوميدي تكفاريناس ضد الرومان، والتي استمرت ثمانية أعوام في عهد الإمبراطور تبيريوس (Tiberius)[70]

وامتدت إلى المناطق الجنوبية لبلاد المغرب، من طرابلس شرقا حتى موريتانيا غربا، فهذه الحرب هي تعبيرا حيا عن رفض السكان المحليّين الوجود الروماني، ومصادرته أملاك الأهالي من أراضي زراعية ومراعي، بعد طردهم إلى المناطق الفقيرة، بغرض انشاء مستعمرات لتوطين أبنائه، ولعمليات الاستيطان التي تشرع لها الرومان[71].

ومع هذا فإن المطالب التي نسبها تاكيتوس إلى تكفاريناس تعطي فكرة واضحة عن الأسباب الأساسية لمقاومة السكان المحليّين لسياسة الرومنة التي كان لها تأثير خطير على شعوب المغرب، فقد حمل القائد النوميدي السلاح لإرغام أقوى إمبراطورية على الاعتراف بحق شعبه في الأرض، إذ تبع الغزو الروماني مصادرة كل الأراضي الخصبة في الحال، وخربت حقول النوميديين المستقرين[72]، وبطبيعة الحال فإن المناطق التي اعتاد النوميديون على التجول فيها تقلصت وحددت ووطد المستعمرون الرومان أقدامهم في كل مكان، بادئين بأغنى أجزاء البلاد واقتطعت شركات التزام جباية الضرائب، وأعضاء الأرستقراطية الرومانية وأعضاء مجلس الشيوخ، والفرسان ممتلكات ضخمة لأنفسهم، وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة فإن الرعاة الأصليين، وكل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتابعة، وإجراءات مصادرة الملكيات فهم إما تحولوا فقراء مدقعين أو طردوا إلى السهوب غير المشجرة أو إلى الصحراء، وصار أملهم الوحيد للخروج من أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المزرية إلى المقاومة المسلحة، وكان هدفهم الرئيسي من الحرب هو استعادة أرضهم.

والشواهد التاريخية التي يستقي منها الباحثون مادتهم العلمية إضافة إلى أن أوضاع إفريقيا الرومانية كانت غير مستقرة، لأن السلطة الرومانية لم يكن يهمها سوى ما نزود به روما من منتجات فلاحية وما تجدر الإشارة إليه أن بداية الحكم الإمبراطوري تميزت بعدم الاستقرار الداخلي والخارجي، حيث استحوذت مسألة أمن روما عليكل جهود الأباطرة الأوائل مهملين المجالات التنظيمية، ثم قل اهتمام السلطة الرومانية، بوضعية المغاربة الاجتماعية، الذين ظلوا تحت سيطرة الحكام المحليّين الذين كان جل اهتمامهم منصبا على ابتزاز السكان وجمع الثروات.

ويلاحظ أن المؤرخين يؤكدون على أن النظام الذي كان يخضع له الأهالي لا يرتبط بنظام البلدية التي يقطنون بها إلا مبدئيا، ويذكرون أن الأباطرة اعتنوا بالطبقة الأرستقراطية المغربية حيث شجعوها على الاندماج، وجعلها أساسا لتنمية التأثير الروماني في المغرب مما أوجد طبقة أرستقراطية مغربية في المدن، عرفت بارتباطها المصلحي بروما وبولائها التام للسلطة الرومانية.

في حين ظلت أغلبية الجماهير المغاربية خارج هذا الإطار تتوق إلى اللحاق به، وهو ما كانت تهدف إليه روح القوانين الرومانية وقوانين درجة المواطنة الروماني، ولقد ميزت هذه الصفة التشريعية الفترة الممتدة من عهد أكتافيوس أغسطس إلى عهد غورديانوس الثالث[73].

- الملاحظ أن اللجنة التشريعية التي عهد إليها مجلس الشيوخ بمهمة تنظيم الولاية الرومانية عشية سقوط الدولة القرطاجية عام 146 ق م. انحصرت مهمتها في إقامة حدود الولاية، وتنصيب الحاكم، ووضع ترتيبات تخص علاقة الولاية بالمدن الحرة الحليفة، وتنظيم أساليب الجباية، وغيرها من الأمور ذات الطابع الإستعجالي، فهي ليست لجنة تشريعية، وظيفتها وضع نصوص قانونية تحدد الوضعية الإدارية، والاجتماعية لأهالي الولاية، وبالتالي فإن المواطنين المغاربة ظلوا عرضة للتصرفات المتقلبة المزاج التي كان يعاملهم بها الحكام الرومان الذين تعاقبوا على الولاية والذين استغلوا حكمهم ليستغلوا الأهالي أبشع استغلال من أجل الكسب السريع

كذلك فإن السلطة المركزية في روما، لم تكن تعطي لحكام الولاية صلاحيات تشريعية تسمح لهم بإصدار قوانين تكون أساساً لحكم يأتي من بعدهم، وتحدد بوضوح حالة سكان الولاية المتعددي الطبقات، فأمر هذه الفئات الاجتماعية الأجنبية الخاضعة للحكم الروماني كان متروكا للحاكم الروماني المؤقت الذي يتصرف في أمورهم بمحض إرادته واختياره، وهو ليس ملزما باتباع خطة سلفه في معاملة الأهالي، فله أن يقتدي بمن سبقه من الحكام، في تصرفاته تجاه المحكومين،

أو يغير أسلوبه نحوهم حسب ما تمليه عليه مصالحه الخاصة في الولاية والظروف العامة[74].

- إضافة إلى ما تقدم، فإن التشريعات الرومانية لا تولي اهتماما كبيرا لقضايا الشعوب الخاضعة، بقدر ما كانت تهتم بالشعب الروماني نفسه، أي أنه رغم ضخامة العمل التشريعي الروماني الذي جعل للرومان المكانة المرموقة في تاريخ التشريعات الإنسانية، إلا أن حظ الشعوب المستعمرة من تلك التشريعات يبدو ضئيلا لدرجة يصعب معها التعرف على الأوضاع القانونية التي تحدد الوضعية الاجتماعية لتلك الشعوب تحت السيطرة الرومانية.

لقد كان للقانون الزراعي المعروف بقانون طوريوس (THORIUS) الصادر سنة 111 ق م.، والذي تزامن مع ثورة يوغرطة في نوميديا، لم يتجاوز مجال الأرض إذ هي في الحقيقة تصحيح للقوانين أو للإصلاحات الأراكية(GRACQUES)[75] الإصلاحية في مجال الزراعة على الخصوص، ولا تتضمن في جوهرها كثيرا النظام الإداري، أو الاجتماعي للإنسان المغربي.

- من الناحية الاجتماعية

يلاحظ أن القوانين الرومانية المتعلقة بالجانب الاجتماعي لسكان المغرب كانت تقوم على مبدأ الطبقية الاجتماعية وتنطوي على عنصرية واضحة، بحيث أنها تعطي للإنسان الروماني الاعتبار الأول بين بقية الأجناس الأخرى، وبالمقابل يفتح القانون الروماني المجال للإدماج، بحيث أن المجتمعات الأجنبية يمكنها أن ترتقي إلى مصاف المجتمع الروماني بصفة تدريجية.

وأبرزت النصوص القانونية الرومانية أبعاد هذا المبدأ الخاص بمجتمعات المدن فهي تحتوي على بنود تخول لمواطني الدرجة الدنيا حق الارتقاء إلى أعلى درجة، وذلك عندما تتوفر فيهم شروط معينة، يعتبرها بعض المؤرخين نضجا للتأثير الروماني فيهم، إلى حد لا يخشى معه أن يتحرك فيهم واعز الوطنية[76]

والواضح أن روح القوانين المتعلقة بدرجات المواطنة أي أنها أشبه بسلم يفرض على الشعوب الخاضعة أن ترتقبه وبصعوبة لتجد نفسها في وضعية الشعوب المترومنة، إلا أن هناك غموضا كبيرا حول الحقوق والواجبات الممارسة يوميا من طرف المتمتعين بوضعية " الرومنة" أو غيرهم. فالنصوص الإدارية والقضائية لم تجسد بوضوح موقف النظم الرومانية من الفئات الاجتماعية المختلفة في المدينة الواحدة، أو على مستوى الولاية، سواء كانت هذه الفئات من صنف الرومان أو اللاتين، أو الأجانب.

إن المعلومات المتعلقة بالوضعية الاجتماعية المغربية في نهاية الحكم الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري قليلة حيث يعد البحث في هذا الموضوع من الأمور الصعبة، إذ أن الهياكل الإدارية والتشريعية لم تبرز في بلاد المغرب إلا منذ القرن الثاني للميلاد، وهي في فترة متأخرة بالنسبة لموضوع البحث. لقد اعتادت كتابات المؤرخين التركيز على فترة الازدهار الروماني ببلاد المغرب، حيث توفرت النصوص القديمة.

والملاحظ أن القانون الروماني[77] أبرز درجات متباينة للمواطنة لدى الرومان وهي:

- مواطنة لاتينية: يتمتع حاملوها بحقوق أقل قيمة من حقوق المواطنة الرومانية، ومنحت أصلاً لبعض الشعوب الحليفة في إيطاليا، ثم عممت على باقي الولايات التي استوطنت بها جماعات لاتينية.

- مواطنة رومانية: وتسمح لحامليها بجميع الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتمتع بها مواطنو مدينة روما نفسها. والملاحظ أن هذه المواطنة كانت في بداية الأمر لا تعطي إلا للمستوطنين الرومان، من إداريين وتجار ومعمرين، وغيرهم ممن يعودون في أصلهم إلى مدينة روما أو إلى إحدى المدن التي تتمتع بالمواطنة الرومانية في إيطاليا.

- أما الشعوب الخاضعة للرومان سواء كانت في إيطاليا أو في المستعمرات الرومانية، أي وضعية هؤلاء الأجانب يخضعون لحكام وإدارة الرومان، أي وضعية

هؤلاء الأجانب ومنهم المغاربة كانت في بداية الأمر وضعية غير مستقرة، خاصة وأن سياسة الرومان كانت لا تحظى بالتأييد من طرف مجلس الشيوخ خلال فترة التوسعات باستثناء الخطوات التي أمكن لقيصر أن يسنها في مجال توسيع دائرة الحقوق المدنية الرومانية لصالح الشعوب الخاضعة في الولايات غير أن هذه الخطوات تعثرت عند مصرع قيصر سنة 44 ق م.

إضافة إلى اعتبار آخر كان له الدور في حرمات جماعات كثيرة من المغاربة من الحصول على حقوق مدنية تمكنهم من الرقي الاجتماعي والاندماج في إحدى صفتي المواطنة، وهذا الاعتبار يكمن في أن الذين لا يملكون أراض من سكان الولايات يعدون في وضعية الأجانب، أي أن ملكية الأرض من الشروط الأساسية للاندماج.

تبدو عملية سهلة إلا أنها كانت صعبة بحكم أن الجيش الروماني كانت قدرته محدودة على الاستيعاب.

ويعطي أحد المؤرخين صورة المغاربة أثناء هذه الفترة على الشكل التالي [78]:

- الريفيون :

هم سكان الأرياف التي تشملها الحدود الرومانية تميزت وضعيتهم بكونهم في وضع الأعداء الخاضعين والمحاطين بمنشآت عسكرية رومانية كالليمس، الحصون، والقلاع، ومستعمرات قدماء الجنود، عمل بعضهم في أراضي المعمرين الرومان، في حين انعزل بعضهم عن المؤسسات الرومانية في المناطق الجبلية، رافضين الاندماج في المجتمع الروماني، ورفضوا سياسة الرومنة واعتبرت تلك المناطق معاقل للمقاومة ضد الرومان.

- المهادنون:

وهم السكان الذين كانوا ضن حدود الولايات الرومانية أو على نحوها، ارتبطوا بمعاهدات سلم أو تحالف مع الرومان، وسبب اتباعهم هذا السلوك هو تأثرهم من قوة روما عسكريًا وتأكدهم عدم جدوى مقاومتهم.

- الطبقة الارستقراطية:

وهي الفئة التي قبلت الترومن وهي من سكان المدن الذين حصلوا على أراضى وعقارات، وإمكانيات مادية سمحت لهم بمشاركة الرومان في مستوى حياتهم المادية والاقتصادية فاندمجوا معهم تدريجيا خاصة وأن سياسة روما هدفت إلى جلب هذه الفئة وإعطاءها فرصة الثراء المادي والارتقاء الاجتماعي ليتم تثبيت النفوذ الروماني، ولقد كثر عدد أفراد هذه الفئة مما أدى إلى انتشار الأمن نسبيا في الولايات، خاصة وأن تشريعات جديدة فتحت المجال أمام السكان للترومن[79].

يلاحظ أن الاستعمار الروماني رغم محاولته التدرج والحذر هو ما تجلى في النظم القانونية، والأجهزة الإدارية التي عملت عن طريقها روما إلى تحويل أنظمة المنطقة التي وجدت عليها إلى أنظمة رومانية بحتة وعلى هذا الأساس كان النظام السياسي الروماني، حيث اقتضت أهداف روما الاستراتيجية الاستعمارية في بلاد المغرب، تهيئة النفسية المغربية لتقبل الاستعمار الروماني والحضارة الرومانية، وبذلك يتم تثبيت السيطرة الرومانية، ورومنة بلاد المغرب، ولعل من أهم آثار هذه السياسة نذكر:

تقسيم بلاد المغرب: تجلى ذلك في أن السلطة الرومانية اعتمدت سياسة تقسيم المنطقة الخاضعة لها إلى وحدات إدارية مستقلة عن بعضها وربطها بالإدارة المركزية في روما، والهدف من هذه التجزئة تمكين السلطة الرومانية من السيطرة عليها عسكريا وتسييرها إداريا وكذا تسهيل عملية جباية الضرائب المختلفة، والحصول على مختلف المنتوجات الزراعية لتحويلها إلى روما، وبالتالي يهدف هذا التقسيم إلى السيطرة بشكل نهائي على كل العناصر الوطنية الثائرة والرافضة للاستعمار الروماني، وإخضاعها بمختلف الوسائل[80].

كذلك خولت قوانين روما في هذا الشأن السلطة المحلية اتخاذ مختلف الإجراءات الردعية بشكل سريع دون اللجوء إلى طلب رأي روما، إضافة إلى هذا يسمح هذا التقسيم بمراقبة كل ما كان يقع في مختلف أماكن المغرب القديم والذي الرومان من الإخضاع الكلي للمنطقة ومراقبة كل ما يهدد وجودهم، وهذا يؤكد شعور روما بأن مصالحها مهددة في هذه الأقاليم باستمرار.

وهذا الخطر قد يكون ناتج عن حركات وطنية رافضة للوجود الروماني أو عن طموح ولاة روما في الانفصال والاستقلال، والاستفادة من خيرات المنطقة وبالتالي سياسات التقسيم الرومانية وما تبعها من تشريعات تنظيمية قصدت بها إحكام السيطرة على أية ثورة أو حركة تمرد تنظم ضد السلطة ا المركزية الرومانية.

-يلاحظ أن القوانين الإدارية الرومانية صنفت بلاد المغرب إلى أقاليم إدارية حسب درجة انتشار النفوذ الروماني، ومدى خضوع السكان للإدارة الرومانية وعلى هذا الأساس تم التصنيف التالي المناطق الأكثر أمنا والتي كان احتلالها مضى على احتلالها زمن طويل حتى استبعدت من هذه المناطق أية ثورة تسيرها سلطة مدنية، تتمثل حاكم عضو في مجلس الشيوخ الروماني خضع لهذا النوع من القوانين الإدارية الرومانية إقليم قرطاجة، واقليم نوميديا الشرقية منذ إعلانه ولاية رومانية جديدة عام 46 ق م. في حين ظلت الأقاليم التي شهدت نشاطا ثوريا معاديا للرومان، والتي وتبعا لذلك رأت السلطة الرومانية أنها تحتاج إلى وجود ونشاط عسكريين اكثر منه نشاط وتنظيم إداري، حيث اعتبرت مناطق عسكرية (أو ولايات إمبراطورية) يسير أمورها ضباط سامون يعينهم الإمبراطور ويأتمرون بأوامرهم[81] وبالتالي فان هذا التقسيم خدم كثيرا سياسة الرومنة وقد تجلى ذلك في أن المؤسسة العسكرية عملت على تأمين المناطق الثائرة بضرب الحركات الوطنية وإضعاف نشاطها، لتحول هذه الأقاليم إلى الإدارة المدنية، وعلى هذا الأساس ظهرت مناطق عسكرية وأخرى مدنية، وترجع هذه السياسة إلي عهد قيصر، حيث نفذت عمليا غداة إعلانه عن إنشاء ولاية إفريقية الجديدة عقب انتصاره في الحرب الإفريقية. وذلك عوضا أن يضمها إلى ولاية إفريقية القديمة، حيث اعتبر قيصر نوميديا منطقة غير آمنة، لذلك ظلت الولاية القديمة معزولة خاصة وأن مشاريع الرومنة فيها قطعت أشواطا، وحتى لا تنتقل إليها الثورات الوطنية. والملاحظ أن سياسة العزل الإداري الوقائية هذه التي اتبعتها روما قد زالت بعد أن انتقلت الحدود الرومانية إلى ما وراء نوميديا غربا، وذلك حينما تم القضاء على محاولات أرابيون الوطنية، وتم تثبيت مستعمرات إقطاعية، كانت مكافأة قيصر لسيتيوس ورجاله في نوميديا، لتتواصل بذلك سياسة

الرومنة بالمنطقة. وإذا كانت سياسة تقسيم البلدان المستعمرة في الفترة الرومانية إلى مناطق مدنية وأخرى عسكرية هي سياسة لقيصر ثم انتشرت في العصر الإمبراطوري، فان أهداف تلك السياسة هي القضاء أو التضييق على الحركات الوطنية المقاومة، وفتح المجال لاستغلال المنطقة اقتصاديا بشكل كامل، ومن جهة أخرى العمل على تغيير وجه المنطقة الحضاري، وهو جوهر سياسة الرومنة[82]، وهنا نسجل أن الرومان استفادوا من التركة الإدارية والحضارية التي خلفها القرطاجيون، خاصة في إقليم قرطاجة، حيث ساهم نظامها في تعويد الناس على السلطة المدنية.

1) المدارس

لقد سادت بلاد المغرب قبل الاحتلال الروماني لغتان كانت مستعملتان من قبل سكان المنطقة هما اللغة الليبية، وهي لغة أبناء البلاد الأصلية، واللغة البونيقية، وهي لغة القرطاجيين التي لم تنحصر في منطقة نفوذ قرطاج، بل انتشرت وعمت، وصارت مستعملة في كل بلاد المغرب قبل الاستعمار الروماني

ويذكر المؤرخون أنه في زمن الاحتلال لم تضمحل الليبية، واللغة البونيقية إلا أن اللغة اللاتينية أصبحت هي اللغة الرسمية المستعملة في المحاكم والمجالس وفي القرارات والمراسيم، والمناقشات البلدية، والمراسلات الإدارية والاتفاقيات، وأصبح كل فرد في غالب الأحيان مزدوج اللغة، أي يتكلم بالليبية واللاتينية أو بالبونيقية واللاتينية، فكان يستعمل البونيقية أو الليبية في حياته العائلية، وفي علاقاته مع خدمه أوأقربائه وجيرانه، في حين يستعمل اللغة اللاتينية في الأمور الإدارية والرسمية وشؤون الحياة العامة[83].

والملاحظ أن من أسباب انتشار اللغة اللاتينية هي الخدمة العسكرية حيث كان الجندي المغربي يصبح يحسن التكلم باللاتينية بعد أن يكون قد قضى مدة طويلة في صفوف الجيش الروماني.

وكذلك المدارس التي تعد من عوامل انتشار اللغة اللاتينية ،بالرغم من أن

المؤرخين يذكرون أن الدولة لم تكن تتدخل في مسألة التعليم ونشره إلا في حالات استثنائية نادرة، في حين كانت البلديات تهتم بإعداد هياكل التعليم، وانتداب المعلمين الذين يقومون بالتدريس، وكذلك تعمل البلديات على دفع رواتبهم وأجورهم، وإذا كانت البلدية فقيرة أو متقاعسة، أو غير مهتمة بنشر الثقافة والتعليم، فإنه يلاحظ تطوع أحد الأغنياء، أو جماعة من الأفراد بتأسيس مدرسة والقيام بشؤونها، وتحمل نفقاتها[84].

والملاحظ أن المؤرخين يركزون في هذا الإطار على نموذج مدرسة مدينة قورِيني التي أسسها الفيلسوف أرستيوس حيث ارتادها طلاب من مختلف مناطق المغرب، وساهمت بقسط وافر في انتشار نشاط ثقافي واسع بهذا الإقليم، إلا أن هذه المدينة اتسمت بخصوصية واضحة وهي الثقافة اليونانية، وقد ارتكز التعليم مواده على ما جاء في دستور بطليموس، حيث رأت إحدى مواده إلى من يقومون بالتدريب الأول، وإلى الذين يقومون بالتدريب على استخدام القوس وركوب الخيل[85]. واستخدام السلاح، وربما دفعنا هذا إلى الاعتقاد بوجود شبه بين توعية التعليم في هذه المدرسة والتعليم اليوناني، حيث وجدت البلابستير لتدريب الأولاد الصغار على المصارعة تحت إشراف مدرب، وربما كان التدريب على استخدام الأسلحة وركوب الخيل شبيها بما كان يحدث في الفترة الرومانية، حيث كان يعد ذلك إعداد أوليا للحياة العسكرية.

ولقد أشارت النقوش التي عثر عليها منذ عهد أغسطس وهي نقوش لاتينية وبونيقية أشارت إلى شخصيات ساهمت في عملية إقامة منشآت عامة ثقافية ودينية واقتصادية، وتذكارية هذه الأخيرة التي لم تعرف إلا مع الاحتلال الروماني، وظهورها في تلك الفترة المبكرة يدل على ازدهار الثقافة البونيقية إذ لا جدوى من كتابة النقوش باللغة والكتابة البونيقية واللاتينية[86] إذ لم توجد فئة متعلمة، ولا توجد فئة متعلمة بدون مدارس، كما أن هذه النقوش تدل على المكانة الاقتصادية والاجتماعية التي كان يتمتع بها المتعلم في العصر البونيقي وفي فترة الاحتلال الروماني، وعلى مدى انتشار الثقافة الرومانية، من هذه النقوش نقش رأس الحداجة

عثر عليه بمنطقة نزهونة، ونقوش وادي العامود[87].

ورغم ذلك فإنه بالعودة إلى حقيقة التعليم الروماني فإنه لم يكن مشتملا على درجات واضحة من ابتدائي وثانوي وعالي، بل أن بعض المؤرخين يرون أن إطلاق مصطلح جامعة أو كلية قرطاج ما هو إلا مجرد قول وتعبير جرت به العادة لا أكثر ولا أقل غيرأنه كان هناك تدرج في التمارين حسب سن الطفل، ومقدرته ومعلوماته، فيبدأ المرحلة الأولى بالقراءة والكتابة والحساب، ثم يقع الانتقال إلى المرحلة الثانية التي يتعلم فيها تفسير نصوص الشعراء والمؤرخين كفرجيل وطالوست، ثم التدريب على الخطابة والبلاغة، والإلقاء والتاريخ والقانون والنحو والصرف ويكون التلميذ بلغ أحد عشر عاما وأن أرقى هذه التمارين وأعلاها، درجة أي ما كان منها موجها إلى الطلبة البالغين السابعة عشرة من عمرهم ويلتحق هؤلاء الطلبة بالمدن الكبرى مثل قرطاج وقرطة، ولو أنه توجد مدارس لاباس بها حتى في المدن الآخر التي هي أقل شأنا فإن الأطفال يأتون من بعيد لمزاولة دروسهم في مدرسة مادوروش المشهورة حيث كانت ذائعة الصيت زاول فيها القديس أوغسطين تعليمه[88] هذا العلاّمة الذي دلت مؤلفاته (LES CONFESSIONS) ومدينة الله (LA CITE DE DIEU) على ذكائه وإيمانه وحبه للناس مما جعل رجال الذين يسمونه بأب المسيحية"منذ السابعة من عمر التلميذ تحت إشراف معلم (LITTERATOR PRIMUS MAGISTER) وكان يلتحق بهذه المدارس متوسطو الحال أما أطفال الأغنياء فكانوا يتلقون تعليمهم في منازلهم عن طريق أمهاتهم أو معلمين خصوصيين.

وقد اهتم الرومان كثيرا بالخطابة خدمة لأهداف سياسية ولما لها من تأثير بالغ في الشعوب والجماهير، وقد كانت تتم في مجلس الشيوخ بإيطاليا وفي الولايات لتهدئة النفوس أو بعث الحماس فيها حسب ما تقتضيه وبالتالي استفاد أصحابها من تشريفات ومن شهرة عظيمة ومن أبرز الخطباء اللاتين يمكن ذكر (ENSIUS-HORT) والملاظ أن الرومان لم يسمحوا لأي قائد بارتقاء أعلى الرتب مهما كانت خصاله إذا لم يتمتع بقوة التأثير في صفوف جيشه وفي محيطه.

وإلى جانب الخطابة، حظيت مادة التاريخ بعناية الرومان لتحفظ أجيالهم أسماء الأبطال الذين حققوا الانتصارات وبنوا مجد روما وليعرفوا الوسائل المستعملة في ذلك الشأن ومن ثم ليحافظوا على مكتسبات دولتهم، كما قاموا بتدريس مادة خاصة بالقوانين حتى يدرك كل فرد، أنه بعد اعتماد دولتهم على القوة للاستيلاء على المقاطعات فإنها أوجدت قوانين تدير شؤونا مع تبرئة كاملة لمواقفها[89]. وهذه المدينة هي التي ولد فيها الكاتب الروائي أبوليوس (APULEE) الذي ألف روايات كثيرة أشهرها رواية الحمار الذهبي (L'ANE D'OR) أو المسوخ (les metamorphoses) في إحدى عشر جزءاً صور فيها الحياة المغربية تصويرا دقيقا- حسب أحد المؤرخين- ألوانا جذابة وحقائق لاذعة.

ولقد وجدت مدارس متعددة حتى في المدن الأخرى الأقل شأنا فكان الأطفال يأتون من بعيد لمزاولة دروسهم في مدرسة ماداوروش(MADAURE) وكانت كل مدينة تشجع أبناءها على التعليم، وتحثهم عليه بجميع الوسائل وتقيم الاحتفالات لتمجيد الناجحين منهم الذين أصبحوا من المفكرين البارزين ومن فطاحل علماء البيان، وكانوا ينتدبونهم لمراتب الشرف ويقيمون لهم التماثيل، ويسجلون ما أحرزوا عليه من نجاح مدرسي وفوز أدبي، وبالتالي لم يبرز المغرب للوجود علماء محليين فقط، بل أنجب أعلاما ذاع صيتهم في الدنيا بأسرها، سواء تعلق ذلك بالأدب النصراني الذي كان للمغاربة فيه مركزا ممتازا، بل حتى في الأدب الوثني، وذلك بدء من القرن الثاني، ويمكن أن نذكر من بين فحول الخطابة والبيان في ذلك التاريخ، العلامة فرنطون القسنطيني (LE RHEFEUR FRONTON) المولود بكيرتا[90]، وكان أستاذا للإمبراطور ماركوس أوريلوس، وقد حصل على شهرة كبيرة، وأدرك في ميدان الأدب ما يمكن اعتباره المثل الأعلى حسب فهم معاصريه، وإننا إذا وجدنا اليوم في مؤلفاته شيئا كثيرا من التكلف والتصنع والادعاء، وفساد الذوق، فإنه يجب أن لا ننسى أن تلك النقائص، كانت تعتبر في عصره من الكماليات والمحاسن، ولذلك كان فرنطون يعد في حياته فريد عصره، ومن اكبر فنانى زمانه. أما الكاتب الروائي أبوليوس- المذكور سابقا- المولود بمداوروش سنة 125 م. والذي كان

معروفا بقريحته العجيبة، ونبوغه النادر وولعه بالنظر إلى الأشياء لمعرفة أسرارها، وشغفه بكل فلسفة وبكل مذهب في التصوف، فلقد كان فنانا رقيقا، وخطيبا بليغا، قوي اللسان خصبا في إيجاد الألفاظ وابتكار المعاني[91]. وعليه فان الثقافة المغربية لم تتمكن من الصمود أمام زحف وتوغل العناصر الرومانية، ذلك أنه وجدت نقوش بونيقية إلى جانب نقوش لاتينية، وبعضها مزدوج الكتابة، فإن هذا الصمود - إن صحت تسمية كذلك - استمر حتى أواخر القرن الأول الميلادي، وربما حتى منتصف القرن الثاني الميلادي، حيث أنه منذ عصر أغسطس بدأت العناصر الثقافية المحلية في الاختفاء، بل وجدت شخصيات بونيقية اتخذت لنفسها أسماء وألقابا رومانية، مثل ريفيوس وايميليوس مع استمرار وتوسع الوجود العسكري الروماني، وتطبيقه لنظام الإدارة الرومانية المعروف فان العناصر الرومانية توغلت في كل المنطقة حاملة معها ثقافتها إلى الداخل تاركة بمرور الزمن تأثيراتها على العنصر الوطني، حيث وجدت بعض نقوش لافتة في الصحراء أشارت الى عناصر ليبية صبغت بالصبغة الرومانية(92) في لسانها وكتابتها وثقافتها وتكوينها، عموما لكن ظلت ليبية وافريقية في جوهرها وفي أصلها.

2) الإدارة :

وتجدر الاشارة إلى أنه إلى جانب الجيش والمدارس والملاعب والأسواق والمسارح وغيرها من الهيئات الرومانية ساهمت الإدارة الرومانية في نشر اللغة اللاتينية في مدن الولايات بتطبيقها النصوص القانونية اللاتينية مما حفز الأهالي على تعلم هذه اللغة لفهم هذه القوانين وللتخاطب بها.

وكون الإدارة الرومانية لم تسع إلى تعميم التعليم على جميع سكان الولايات فقد تعلم البعض القليل منهم اللغة اللاتينية وأحسنها وظل أغلبهم إما لا يجيدها ويتقنها أو يجهلها تماما ولا يعرف إلا اللغة الليبية أو البونيقية.

وفي ضوء ذلك، تكشف لنا النقوش على نسب متفاوتة في كتابتها بحيث وجدت[93] :

- نقوش لاتينية متقنة كثيرة تدل على أن جل أصحابها من الرومان

- نقوش ركيكة باللغة اللاتينية والأسلوب، سيئة الخط مما يدل عل عدم تلقي أصحابها القدر الكافي من التعليم.

- نقوش• مزدوجة اللغة بالبونيقية واللاتينية داخل المدن الرومانية أو بالقرب منها وهذا يعني عدم تخلي الأهالي على لغتهم

- نقوش في مجملها ليبية أو بونيقية في القرى والجبال التي لم يصلها التوسع الروماني ولم يؤثر فيها، وبالتالي ظل سكانها يجهلون اللاتينية كسكان عنابة رغم أهميتها ذلك أنه عندما اجتمع بهم القديس أغستين، صحب معه كهنة يجيدون البونيقية لترجمة القسم (اليمين)[94] وهذا يدل على أن هذه الأخيرة كانت شائعة شيوعا معتبرا (بقيت اللغة الشعبية المستعملة) ومهما يكن من أمر، فإنه إذا كان بعض الأفارقة استطاع تعلم اللاتينية واتقانها واحتلال مناصب هامة في الإدارة الرومانية، فإن البعض الآخر، بنسب متفاوتة، تعلمها أو جهلها.

ثالثا- مدى نجاح روما في سياسة الاحتلال وسياسة الرومنة

- من الناحية السياسية:

يعتبر المؤرخون الرومان أن بدأ التطبيق الفعلي لمشروعهم التوسعي الاستغلالي منذ القضاء على قرطاجة سنة 146 ق م، حيث اعتبر ذلك من أبرز مظاهر السياسة التوسعية الرومانية إزاء شعوب البحر الأبيض المتوسط حيث وصفت هذه السياسة بالتوسع البطيء والمتدرج ومع مرور الوقت أخذت وتيرة متسارعة، ثم أخذت تتسارع مما أدى إلى نتائج وآثار خطيرة، تجلت في ذلك الصراع المرير بين روما وبين شعوب المنطقة، رغم محاولتها تبني العمل الديبلوماسي في عدة مناسبات، وهو النشاط الذي حقق بعض النجاحات منها أن كسب ود أعداءها، واستمالتهم نهائيا وبذلك أبعدت الخطر الذي أحدق بها، بل إن من أهم نتائج هذه السياسة أيضا اتباعها لمبدأ فرق تسد حيث أنها كما نجحت في استغلال سوء العلاقة بين سيراكوزة وقرطاجة عنما تقربت من هذه الأخيرة وأبرمت معها معاهدة صداقة ؟ حسن جوار- واتفقتا على معاداة العنصر الإغريقي المشاغب، نفس النهج اتبعته تجاه الممالك المغربية أو تجاه هذه

الأخيرة وقرطاجة، ولتجسيد مشروع الرومنة عمدت روما إلى إخضاع الشعوب المتألبة عليها في الولايات أو على حدودها ثم التخفيف من المشاكل الداخلية التي كانت تهز الكيان الروماني، وإلهاء الناس بالحروب وتوفير العمل للعاطلين، وبالتالي تجسيد فكرة" أفضلية الشعب الروماني وعظمته والإيمان بضرورة فرض سيطرته على شعوب العالم- لهذا كانت هذه الأمة مشبعة بالروح العسكرية ومستعدة لمنازلة الشعوب التي ترفض التفوق الروماني، أو حتى إزاء القوى التي تنافسها في مناطق النفوذ، وذلك كان سببا في النزاع القرطاجي الروماني انتهى بالسيطرة الرومانية على المنطقة، وفرض ما سموه بالسلام الروماني، تجلى ذلك في استسلام القرطاجيّين لشروط معاهدة ربيع 201 ق.م. التي أملاها عليهم الرومان إثر هزيمتهم في معركة زاما الشهيرة(أكتوبر 202 ق. م) وبذلك أمكن للأمن الروماني أن يستتب إلى حين واتسع المجال الجغرافي للسيطرة الرومانية على سكان المنطقة حيث أدرجوا مملكة نوميديا في وضعية الدول الحليفة للرومان لتقوم هذه المملكة بعزل القرطاجيين عن المغاربة المؤيدين لهم في المنطقة، وذلك في إطار الحصار السياسي والاقتصادي الذي ضربه الرومان على منافسيهم وأعدائهم القرطاجيين لإنهاء وجودهم من المنطقة.

ولقد نجحت ديبلوماسية روما في الاستفادة من الصراع الذي شهدته منطقة المغرب من ذلك أنها غضت الطرف عن توسعات ماسينيسا على حساب القرطاجيين حيث يعمل بذلك على إضعافهم ودفعهم إلى نقض معاهدة 201 ق. م. وبالتالي الصدام مع الرومان، وبذلك أثمرت السياسة الرومانية في أنها جرّت قرطاجة إلى حرب ثالثة(149- 146 ق. م.) حيث انتهت إلى تدميرها وإنهاء وجودها السياسي، وبذلك اكتسحت الجيوش الرومانية إحدى أصعب الجبهات التي أعاقت توسعها إضافة إلى الانتصارات الأخرى التي حققتها، وعم لدى الرومان نظرية الإرادة الرومانية التي لا تقهر، وبالتالي نجحت السياسة الرومانية في توطيد نفوذها العسكري، والذي يعد مكسبا اقتصاديا في جوهره.

كما أننا نسجل أن الممالك المغربية أصبحت معرضة للخطر الروماني أكثر من أي وقت مضى عقب سقوط قرطاجة التي وصفها المؤرخون بأنها كانت حصنا

احتمت خلفه بلاد المغرب، وعليه أصبحت منطقة المغرب مكشوفة أمام الرومان مما يسهل عملية الاستيلاء عليها فيما بعد أما المغاربة فإنهم حاولوا التصدي للاستعمار الروماني بمختلف الوسائل، إضافة إلى بعض المناورات السياسية التي حاول من خلالها بعض الزعماء النوميديين المحافظة على استقلال بلادهم حيث حاول بعضهم استغلال أزمات روما السياسية وتجلى ذلك في الدور الذي قام به يوبا الأول أثناء الحرب الأهلية الرومانية[95].

إلا أن هذه المحاولات أفشلتها الاستراتيجية الرومانية، حيث تغلبت على كل المحاولات العسكرية والسياسية المغربية، وأخضعوا بذلك المنطقة وجسدوا مبدأ الرومنة، والملاحظ أنه لإنجاح هذه السياسة خاصة مع حلفائها المغاربة، فإن الاستراتيجية الرومانية اقتضت بداية تجنب الصدام مع الزعماء المغاربة في نوميديا حتى لا تثير الشعور الوطني لديهم، ويتحولوا إلى مصدر قلقها، بل إن روما نجحت في الظهور بمظهر الحكيم، والحكم العادل في الفصل في القضايا الناشئة بين المغاربة، في حين تكون قد عملت على التقرب منهم، وحاولت إثاتهم ضد بعضهم البعض، وبالتالي نجح في تمزيق الوحدة المغربية، ودعمت الهيبة الرومانية لدى المغاربة، وبذلك نجح الرومان تدريجيا في فتح أبوب نوميديا أمام حركة اقتصادية رومانية واسعة، مكنت روما إثرها من ربط الاقتصاد المغربي بالاقتصاد الروماني والسيطرة عليه تدريجيا.

كذلك فإن المصادر تذكر أن الجالية الرومانية في المنطقة المغربية والتي كانت لها أنشطة اقتصادية نجحت في أن يكون لها نشاط سياسي بالمنطقة من ذلك التدخل في تصعيد حدة الخلاف بين ورثة ماسينيسا، والدفع بالرومان إلى التدخل العسكري، وهو نفس الدور الذي أداه التجار الرومان في طنجة عاصمة بوغود أي خلال الصراع الذي نشب بين أوكتافيوس وأنطونيوس وانضمام بوغود ملك موريطانيا الغربية إلى هذا الأخير فإن هؤلاء التجار نجحوا في إثارة سكان المدينة ضد ملكهم بوغود، حيث أغلقوا المدينة في وجهه عندما كان قادما من إسبانيا فاضطر إلى العودة إليها، وتخلى على المملكة لخصمه يوكوس الثاني المتحالف مع

أوكتافيوس[96]، وبالتالي يعد تحالف الرومان مع الملوك المغاربة أقوى سند لنجاح الديبلوماسية الرومانية، وعامل أساسي في نجاح السياسة الرومانية بالمغرب.

مدى نجاح روما في سياسة الاحتلال الروماني:

- تصدي الافارقة للغزاة الرومان منذ بداية الاحتلال حتى زواله ولم تنحصر مقاومة الأهالي في منطقة أو في جهة معينة، فقد انطلقت بهجماتهم على مراكز الاستعمار من الأراضي الساحلية والداخلية وأيضا من الأراضي الصحراوية المستقلة.

- قاوم السكان الأصليون أعداءهم بمختلف الأساليب والوسائل بحيث شنوا الحروب العارمة وخربوا المزارع وأحرقوا مساكن المعمرين وقاموا باختطاف الأفراد والجماعات وحجزوا المؤونة كما رفضوا دفع الضرائب

- لم يخدم كل الأفارقة المجندين قهرا مصالح الرومان في المنطقة وخارجها بل فر بعضهم مثل تكفرناس ورفاقه بعدما تعلموا فنون الحرب النظامية ثم حاربوا عدوهم بأسلوبه الحربي.

- ذاق الأفارقة الأمرين على يد الرومان، فقد صادروا أراضيهم، وأبعدوهم إلى المناطق الفقيرة وأثقلوا كاهلهم بالضرائب مما دفع الأفارقة إلى مواصلة نضالهم للتخلص من أعدائهم، ويكفي في هذا الصدد أنهم استغلوا أول فرصة أتيحت لهم حين سارعوا يرحّبون بالوندال رغم أن هؤلاء لا يختلفون عن الرومان في سياستهم تجاه الأهالي.

- استولت روما على الثروات الإفريقية واستغلت أصحابها الذين تحولوا من ملاك إلى أجراء مستأجرين وحرفيين صغار

- رغم سياسة التجويع والحرمان التي طبقها المحتلون لم يستسلم الافارقة للأمر الواقع وقاموا بثورة عارمة عرفت بثورة الدوارين.

مدى نجاح روما في سياسة الرومنة

عن طريق النظم

شرعت روما في رومنة الأفارقة تدريجيا بحيث بعد إنشائها للبلديات والمستعمرات بأنواعها، أعطت الجنسية الرومانية لمن تتوفر فيه الشروط، وبعد إنشاء مختلف المرافق الضرورية فيها فرضت عليها نظمها .لم يكن هدف روما من إنشاء المدن بأنواعها في الولايات هو تعمير هذه الأراضي وضمان الراحة والرفاهية للمستوطنين والأهالي، وإنما الهدف من ورائها كان سياسيا، كونها تعد رمز النظام السياسي والاقتصادي والحضاري القائم وفي الحقيقة، هذا وحده كفيل بأن يكون تحد للأهالي الذين لا يعيشون كما يعيش الفرد الروماني ولا يفكرون كما يفكر هؤلاء.

عن طريق حقوق المواطنة الرومانية:

رغم عدم تمكننا في ضوء المعطيات الأدبية والأثرية الحالية من معرفة نسبة الأهالي سواء الذين تمسكوا إفريقيتهم أو الذين تمت رومنتهم، ينبغي الإشارة إلى أن حصول الأهالي على الجنسية لم يكن دائما أمرا إراديا الغرض من ورائه التحول إلى فرد روماني والتمتع ببعض الامتيازات وإنما أمر فرضته روما فرضا على الأهالي بإدخالهم عنوة في الجيش أو بإرغامهم على تعلم لغتها لاستعمالها في شتى مجالات الحياة الرومانية الجديدة.

- سمحت الجنسية الرومانية للأفارقة بالمساهمة في الحياة السياسية الرومانية حيث تمكن عدد كبير منهم الارتقاء إلى مجلس الشيوخ ليس في مدن إفريقية فحسب بل حتى في روما عاصمة الإمبراطورية آنذاك خاصة في عدد الإمبراطور كومود (COMMODE) كما بلغ عدد الضباط الذين أصلهم من المقاطعات والذين يشرفون على الشئون المالية وشؤون المناجم والمقاطعات (PROCURATEURES) في عقدها دريانوس أعدادًا كبيرة تكاد تتساوى مع الضباط الإيطاليين البالغ عددهم 53 بينما بلغ عدد الغاليين والأسبان 22 ضابطا و13 ضابطا إفريقيا[97].

- عن طريق اللغة :

فرضت روما اللغة اللاتينية عن طريق الجيش، على المنخرطين فيه قهرًا أو طواعية، وعن طريق المرافق الضرورية والاجتماعية كالأسواق والمسارح والمدرجات والحمامات، وأيضا عن طريق المدارس والمكتبات، فهناك من تعلمها وهناك من رفضها، لأنها لغة العدو الذي اغتصب أرضه وهناك من اتخذ موقف وسط بحيث تعلمها وفي آن واحد احتفظ بلغته الأصلية.

- بتعلم الأفارقة اللغة اللاتينية، ساهموا في إثراء الأدب اللاتيني، بأعمال خلدها التاريخ، شملت مجالات عديدة، كما برز عدد من الأدباء والمفكرين منهم (FRONTON) و(APULEE) في منتصف القرن الثاني الميلادي، كما نجد بينهم كذلك رجال الدين أمثال (TERTULLIEN)، وخاصة القديس أغستين الذي يعد مصدرا دينيا لرجال الذين المسيح قديما وحديثا، والذي خلد أفكاره في مؤلفات عديدة منها الاعترافات ومدينة الله.

- قل استعمال اللغة اللاتينية بمجرد سقوط الإمبراطورية الرومانية رغم قضائها فترة طويلة تجاوزت خمسة قرون في بلدان المغرب القديم خلافا للغة البونية التي ظلت مستعملة بعد سقوط كل من قرطاجة وروما.

- عن طريق الديانة :

- كما هو الشأن بالنسبة للغة اللاتينية، أدخلت روما ديانتها إلى المقاطعات إلى جانب الديانات الشرقية كالمصرية والفارسية، وهناك من تبناها وأصبح كاهنا، وهناك من عمد إلى تشبيه الآلهة المحلية بالآلهة الرومانية وهناك من ظل لا يعيد إلا الآلهة الإفريقية مثلما أضحى هناك من يمارس العادات الدينية الفينيقية الأصل المتمثلة في التضحية بالأطفال (MOLK) حتى أصدر الامبراطور (TIBERE) قانونا يحضرها، وهذا إن دل على شيئ إنما يدل على قوة عقيدة الأفارقة وعلى رغبتهم في الحفاظ على قوميتهم.

- عن طريق الاندماج:

- لعل أبرز نموذج للتماثل والاندماج هو مثل (LOIUS URBICUS) الذي ولد في مدينة الخنج (TIDDIS) بضواحي قسنطينة الذي رغم اعتلائه مناصب مرموقة وعديدة خارج أراضي إفريقية مثلا كموظف سام في الشئون المالية (Quaestoris) بآسيا الصغرى وقائد لدى الإمبراطور هادريان في الحرب اليهودية وفي بريطانيا وأيضا كقنصل ثم وال في مدينة روما، ظل يحن إلى مسقط رأسه إلى أن عاد ليموت فيه[98]، كذلك تمكنت روما من جعل المغاربة ينقسمون بين مؤيد ومعارض لأطراف الصراع الدائر في روما بين مجلس الشيوخ والأحزاب السياسية، حيث كان من آثار الصراع السياسي الروماني على بلاد المغرب أن وفرّ هذا الوضع مجموعة من الأسباب دفعت الملكين المغربيين، بوكوس ويوبا إلى اتخاذ موقفين متناقضين، حيث أن فكرة قيصر التي اقتضت أن يقتحم جيش الملك بوكوس الثاني، ومرتزقة سيتيوس مملكة نوميديا من الخلف، بطريقة مفاجئة تحدث ارتبكا في النوميديّين وتنال من معنوياتهم، ومن ثم يرغم الملك يوبا على التخلي عن حلفائه أتباع بومبي ليدافع عن مملكته، وبذلك انسحب يوبا من الجبهة الشرقية حيث كان يحاصر جيش قيصر، وأسرع لصد هجمات بوكوس ولستوس التي نالت من المملكة فأحدث انسحاب النوميديين تصدعًا في صفوف أتباع بومبي، ألحق بهم الهزيمة في معركة تابسوس (THAPSUS)، وفي نفس الوقت لم يتمكن يوبا من إنقاذ مملكته وكان من نتيجة الانقسام والاقتتال بدل الاتحاد الثورة على الوجود الروماني، أن انتصرت روما بقيادة قيصر في الحرب الإفريقية، وألغى مملكة نوميديا نهائيا، وأعلنها ولاية رومانية جديدة سميت بإفريقيا الجديدة (Africa nova) كذلك منح الجزء الشمالي الغربي من مملكة نوميديا إلى مرتزقة سبيتيوس، واتخذوا من سيرتا عاصمة لإمارتهم ضمن عدة مدن كالقل (CHULLU) وسكيكدة (RUSICADA)، وميلة (MILEV)، وضمنت بذلك روما نجاح سياسة الاسيطان بعد أن مهد لها هؤلاء المرتزقة وأدوا خدمة كبيرة لسياسة الاستيطان الرومانية في نوميديا حيث أسسوا مستعمرات زراعية - مهدت لمرحلة استيطان واسعة النطاق في نوميديا وموريطانيا، خاصة في عهد أكتافيوس أغسطس.

في حين نالت موريطانيا نظير تحالفها مع قيصر الشطر الغربي من نوميديا كذلك نسجل أن الثورات التي قام بها المغاربة، ورغم هزائمهم المتكررة فإن ذلك لم ينل من عزائمهم الوطنية حيث ظل المغاربة يحاولون إيقاف الزحف الروماني على المنطقة، محاولين استغلال كل الفرص المساعدة على الثورة منها فترات أزمات روما السياسية، وما تبعها من صراعات، حيث نشطت عناصر مغربية سياسياً وعسكرياً، لعل من أبرزها يوغرطة.تاكفاريناس.و أرابيون الذي بالقضاء عليه من طرف الرومان(سكتيوس) [99]، حيث تم تشتيت القوى الوطنية وضربها بقوة وبعنف، وبالتالي مكن ذلك من بسط النفوذ الروماني العسكري وأجهزته الإدارية العسكرية والمدنية وتهيئة النفسية المغربية لقبول الحضارة الرومانية بمختلف مظاهرها وبالتالي الترومن.

إن المتصفح لأطلس الجزائر الأثري (ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE ATLAS) [100] يدرك أن العامل الاقتصادي الزراعي كان له الدور الرئيسي في ضيق أو اتساع المجال الروماني بين منطقة وأخرى في بلاد المغرب، ويمكن أن نضيف أن امتداد الاستغلال الروماني إلى ما وراء جبال الحضنة والأوراس جنوباً بقصد الاستفادة من أراضي الري في كل من القنطرة وبسكرة والحضنة، دليلا على الأهمية الاقتصادية في توزيع التواجد الروماني ببلاد المغرب، وكذا على نجاح سياسة روما في السيطرة على المناطق الصالحة للاستغلال الزراعي السهلية، في حين المناطق الجبلية أقاموا فيها تحصينات متقدمة تمنع تسرب الوطنيين نحو تلك السهول أو لتشتيت تجمعاتهم الخطيرة على المستعمرات المتمركزة في المناطق الزراعية وبالتالي مظاهرة سياسة الاستيطان الروماني وإن عدت ظاهرة جديدة في السياسة الخارجية الرومانية بالنظر لتحفظات مجلس الشيوخ في حين كانت الحل الأنجع للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسة التي بلغتها روما خاصة أيام الحركة الكراكية الإصلاحية ذلك أن مشاريع منح الجنسية الرومانية للاتين والحقوق اللاتينية للإيطاليين، إضافة إلى فقر الريف الإيطالي من الفلاحين الصغار وعمال الأرض الأحرار، وتزايد أعداد العاطلين عن العمل في روما.

ولقد عمل بوليوس قيصر بعد انتصاره في الحرب الإفريقية على دعم وتوسيع دائرة الاستيطان أكثر في بلاد المغرب، وبالتالي إنجاح سياسة الرومنة بالمنطقة من ذلك أن سياسة قيصر الاستعمارية اقتضت الخروج عن طابع التحفظ الذي ميّز سياسة مجلس الشيوخ تجاه استعمار إفريقيا، ذلك أن قيصر أمر بإنشاء خمس أو ست مستعمرات في إقليم قرطاجة، وعلى الحدود النوميدية ابتداء من عام 46 ق.م هذا بالإضافة إلى توسيع رقعة الولاية الرومانية التي أصبحت تدعى إفريقيا القديمة (AFRICA VETUS) على حساب مملكة نوميديا الملحقة بالممتلكات الرومانية، والتي أطلق عليها قيصر إفريقيا الجديدة ويظهر أن هذا الإجراء التوسعي هدف من ورائه قيصر إلى إنشاء حزام وقائي من المستعمرات قصد حماية الولاية القديمة من المحاولات الوطنية التي كان يتوقعها، بعد قضائه على نوميديا ونفس الشيء بالنسبة لإقطاعية ليستيوس(SITTIUS) حيث تكونت عقب سقوط المملكة النوميدية حيث اعتبر الباحثون أن تلك الإقطاعية تعد أضخم مشروع استعماري نفذه قيصر بنجاح، وتبعه أغسطس ومشاريعه الناجحة في غرس المستعمرات وساعده في ذلك بني سياسة مرنة في علاقة الرومان بالمجتمع المغربي الرقي تفادياً لردود الفعل العنيفة، من ذلك سياسة التودد والمداهنة إزاء شيوخ القبائل المغربية في موريطانيا القيصرية، والحصول على ثقتهم وولائهم، للاطمئنان على المستعمرات الرومانية[101]، ويذهب بعض المؤرخين أن هذه السياسة أثرت على نشاط بعض القيادات الثورية ضد الاستعمار منها الثائر إدمون (AEDEMON) الذي ثار ضد الرومان عقب مقتل بطليموس عام 40 م.، حيث أنه واجه صعوبات بسبب ارتباط مصالح شيوخ القبائل بالسلطة الرومانية، إضافة مستعمرات تورماء الجنود الرومان عرقلة المد الثوري في الريف، كذلك إصرار الإمبراطور على إحكام سيطرته على المنطقة وبالتالي نجحت روما في سياسة الاستيطان بحيث مكنها ذلك من حل المشاكل الداخلية لروما، وامتصت المستوطنات عدد كبير من الجنود المسرحين، الذي كان الإمبراطور يخشى خطرهم، كما ساهمت هذه السياسة في إنجاح عملية التمهيد للسيطرة على شعوب وأراضي المنطقة وبالتالي إخضاعها لسياسة الرومنة.

أما عن ردود فعل بلاد المغرب فإن المصادر تذكر أن المنطقة عاشت وضعية سيئة في تلك الفترة، حيث عمت الاضطرابات المنطقة بسبب شروع أوغسطس في غرس المستعمرات بالمنطقة خاصة عقب تنصيب يوبا الثاني على عرش موريطانيا كحليف لروما الأمر الذي جعله في نظر المغاربة الوطنيين بأنه روماني النشأة والثقافة والسياسة.

إضافة إلى أن قبائل في الهضاب العليا، على امتداد موريطانيا ونوميديا قد بدؤوا في التحضير للعمل ضد الوجود الروماني، وسياسة الاستيطان المتبعة، وضد إدارة يوبا للملكة، إلا أن هذا النهج الروماني الاستيطاني تواصل متحديا ضغوط الثائرين المغاربة، حيث انتشرت المستعمرات، وتابعت نشاطها في ظل حماية الوحدات العسكرية الرومانية، إضافة إلى حملات الإخضاع والتأديب، التي كان الرومان يسيرونها كلما بدت ملامح الثورات أو التمردات الوطنية، زيادة على سياسة عزل المناطق الجبلية الثائرة عن المناطق ذات الوجود الروماني، وبحلول سنة 40 تحقق سيطرة لروما ومعمريها السيطرة على أراضي موريطانيا الزراعية، وبذلك تم إنهاء وجود مملكة موريطانيا[102].

لقد كانت الزراعة عماد الاقتصاد في المغرب خلال الفترة الرومانية، حيث كانت الأرض هي المصدر الرئيسي لكسب الثروة والتقدير الاجتماعي ويذكر المؤرخون أن سياسة الرومنة في المجال الاقتصادي، تمكنت من أن تجعل من المنطقة مخزن غلال روما، ويرى عدد من المؤرخين أن هذا التعبير يدل على أن الزراعة تطورت في الفترة الرومانية بشكل كبير جداً، إلا أن سبب كون المنطقة كانت مخزن غلال، كونها - بلداً مستعمراً يعيش الاستغلال، حيث أرغمت على إمداد الغزاة بالقمح - وذلك كضريبة ففي عهد اغسطس تسلم مليون بوشل من القمح كل شهر.

وتذكر المصادر أن الغزو الروماني في أول الأمر أدى إلى تدهور الزراعة حيث تحولت البساتين إلى خراب بسبب أن روما كانت تتحكم في سوق النبيذ والزيت، وحرصت على ألا يكون هناك منافس لها في زراعة الكروم والزيتون المربحة، وكان القمح هو المحصول الوحيد الذي لم يتوقف إنتاجه، وفي عهد أغسطس بدأ التوسع

في زراعته لسبب سياسي وهو لتأمين إمداد العامة الرومان (PLEBE) بالغذاء، وبعد أن دفعت روما بالحدود بعيد إلى الغرب والجنوب، وحصرت القبائل في مناطق محددة، بينما اتبعت سياسة نشطة لاستصلاح الأراضي، وخاصة عن طريق التوسع في المشروعات المائية الضخمة حدث ارتفاع حاد في معدل إنتاج القمح، وفي عهد نيرون كانت منطقة المغرب تورد روما بالقمح لمدة ثمانية أشهر في السنة، وقدرت مساهمة المنطقة بثمانية عشر مليون بوشل أو 1260000 قنطار، وحصيلة القمح السنوية تسع ملايين قنطار، وبذلك كانت كمية القمح التي تترك في المغرب صغيرة جداً لا تكفي حاجة السكان المحليّين بعد ادخار جزء منها لبذره، فاضطر الكثير من الفلاحين إلى العيش على الشعير، وكاد القحط يتسبب في المجاعة.

وخلال فترة الازدهار الكبير في المنطقة منذ منتصف القرن الثاني وحتى سنة 238 م. أصبح الوضع أفضل بسبب زراعة الأراضي البكر في نوميديا وولايتي موريطانيا، ولكن كان على المنطقة المغربية أن تواجه أعباء مالية جديدة مثلما حدث عندما تحولت الضريبة العسكرية العينية (ANNONA MILITARIS) في عهد سبتيموس سيفروس الى ضريبة نقدية منتظمة[103].

ولقد ظلت بلاد المغرب مصدر تموين روما بالغذاء خاصة وأنها حرمت من قمح مصر بعد تأسيس القسطنطينية.وظل رخاء المغرب في القرون الثامن والتاسع والعاشر حيث أكدت ذلك المصادر العربية.

إلا أن بوادر فشل سياسة روما أخذت تتضح تدريجيا في مختلف الميادين

فبلاد المغرب الى غاية القرن الثالث تميزت في عمومها بازدهار ونظام وسلم، وهي البلاد المتشبعة بالثقافة الرومانية، وهي التي وصل أبنائها وهو بستيموس سفروس المولود بمدينة طرابلس إلى رئاسة الإمبراطورية بأسرها، وعليه ففي المجال الديني بدأت تبرز بوادر التشويش، وعلامات التفكك بدأت تظهر مع نهاية القرن الثاني، لما تكاثرت الكنائس، واصبحت السلطة تمارس الاضطهاد، وخاصة عندما انشق الزعيم الديني المغاربي (دوناتوس)، وكون اتجاها دينيا عتيدا لمناهضة الحكم الروماني، إضافة الى أن الديانة المسيحية جاءت بأفكار انسانية جديدة، تدعو الى الاخوة والعدل

والمساواة، فلم يبق بعد ذلك مجال لطغيان الاباطرة الرومان واتباعهم، وإجبار الناس على تقديسهم، وعليه نزلوا من بروجهم العاجية واصبحوا بشراً كغيرهمم من الناس، من جهة أخرى اصبحت السلطة في روما تفتك بالحرب والسلاح، فالجيش هو الذي ينصب ويعزل ويقتل من يشاء من القياصرة واصبح الإمبراطور أسيرا في قبضة عساكره مضطراً الى استمالتهم، واغرائهم بالمال خوفا من نشرهم، حتى أن سبتيوس سافروس كان ينصح ابنه كاراكلا" مول جنودك واسخر من الباقي" وبالتالي النظام السياسي الروماني لا يرتكز على قوانين ودستور بقدر ما يعتمد على الجيش مما ادى به الى الفوضى والانهيار، وعليه سادت الفوضى في كل العالم الروماني امتدت من 235 م. الى سنة 285 م. أي أن هذه الفوضى دامت خمسين سنة، عرفت باسم الفوضى العسكرية، وقد ذكر المؤرخون عدد الاباطرة المتزاحمين، والمتحابين وسط الحروب المدينة والتهديم نحو الثلاثين طاغية، تعرف في التاريخ الثلاثين طاغية كل ذلك كان انعكاسه قويا وواضحا على وضع روما ببلاد المغرب، حيث شاركت في كل تلك الاضطرابات والفوضى التي دامت خمسين سنة، اضافة الى ذلك فان هذا الوضع الذي عاشته الامبراطورية الروماني مكن للحركات الثورية بالمغرب المعادية للرومان بان تنشيط أكثر، حيث يذكر المؤرخون ان القبائل التي لم تتاثر لسياسة الرومنة، والمتمردة على السلطة الارومانية هي تلك القبائل القاطنة في الادغال وفي الجبال مثل الاوراس وجهة القبائل الكبرى والصغرى، والمقيمة الجنوبية الصحراوية، اضافة الى المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية، أي الدوناتيين الذين اتخذوا من الانقسام الديني ذريعة لتكوين الفوضى، وبالتالي كانت حركتهم في حقيقتها كفاحا قوميا تحت غطاء الخصومات الدينية والانشقاق المذهبي اضافة الى ما يعرف" عصابات الدوارين" وهم جماعات الفقراء والبؤساء الذين اصبحوا ناقمين عن المجتمع يريدون الانتقام من الاغنياء والانتصار للضعفاء المظلومين.

أما المغاربة الذين تأثروا بسياسة الرومنة فكانوا يشعرون بكفاءتهم وقدرتهم على تسيير الأمور بأنفسهم، ويريدون التخلص من النفوذ الاجنبي، وكان زعماؤهم يتطلعون الى الحكم الذاتي أو الاستقلال، ومن أهم هذه الثورات تلك التي بدأت سنة 253 واستمرت الى 298 م. على فترات متقطعة، فبين سنتي 253 م. الى 262 م. سجلت

ثورات بنوميديا وموريطانيا دامت عشر سنوات، تميزت بتمرد قبائل البابار القاطنة بمرتفعات بابور بين سكيكدة وقسنطينة تحت قيادة اربعة من زعماء النوميديين اتخذوا في كفاحهم مع قبائل الحلف الخماسي، وهي خمس قبائل متحالفة تقيم بين بجاية شرقا، ودينة دلس غرباً، وجبال جرجرة جنوبا والبحر المتوسط شمالاً. انضم اليهم القائد فاراكسن مع جنوده الابطال، القادمين من مرتفعات سيدي بلعباس، وهؤلاء المتحالفون على نوميديا، حيث غزواأراضيها، واخذوا معهم عددا كبيرا من الاسرى، ويذكر المؤرخون ان القديس سيريانوس اضطر الى جمع مبلغ من المال لافتداء النصارى وخصوصا العذارى اللائي كان يخاف عليهن من الاغتصاب، واستمرت الثورات والمعارك متواصلة في سور الغزلان سنة 255 مم ولامورسبيار 257م، وفي اخر حدود موريطانيا الشرقية حيث قتل فاراكس سنة 259م، ولم تخمد نار الثورة الا في سنة 262م بعدها شهدت المنطقة ثورات من سنة 289 الى 298م دامت عشر سنوات قادتها عدة قبائل، كانت الثورة اقوى من السابقة حيث امتدت جنوبا الى جبال الحضنة، حيث هدم الثوار سور جواب وكادوا يحتلون مدينة بجاية وكان ذلك في عهد الامبراطور ديوكليسيانوس (284–305 م.)، حيث شعر بعجزه عن إخماد الثورات التي اندلعت في العالم الروماني فغير نظام الحكم بروما، وجعله مقسما على اربعة قياصرة، وقدم هو شخصيا الى المغرب ليقود حملة تاديبية ضد قبائل الحلف الاطلسي الخماسي.

لقد قسم ديوكلسيانوس بلاد المغرب الى ولايات صغيرة تسهل إدارتها، وللحد من طموح الولاة في الاستقلال، ومن أبرز الولايات[104].

- البروقنصلية عاصمتها قرطاج، ولاية نوميديا وعاصمتها لامباز ولاية موريطانيا القيصرية عاصمتهاا قيصرية(شرشال)، وولاية موريطانيا الطنجية، وعاصمتها طنجة، وهذه الولاية الأخيرة الحقت بمقاطعة اسبانيا.

أما قسنطنطين فشكل من الولايتين النوميديين ولاية واحدة عاصمتها مدينة قرطة وسماها باسمه فعرفت بـ قسنطينة، واصدر أمر ميلانو سنة 313م، منح الناس حرية التدين والمعتقد، وانتهى بذلك عهد الاضطهاد، رغم هذه الجهود الرومانية لاستدراك الوضع.

الهوامش

1) Leveau (Phillipe) , Caesarea de Mauretanie , une ville romaine et ses campagnes , collection de l'école française de Rome , 1984 , P., 515

2) محجوبي (ع)، العصر الروماني وما بعده في شمال إفريقيا، اليونسكو، باريس، 1970 ، ص، 504-508

3) عبد العليم (كمال)، المدن الرومانية في شمال إفريقيا، الجزء الثاني، الدار المصرية للنشر، القاهرة، 2000 ، ص، 50

4) نفسه، ص، 51.

5) Picard (G. C.) ,Textes et documents relatifs à la vie economique et sociale dans l'empire romains , Paris, 1969 , P.45

6) Diehl (G.H.) , La civilisation du Maghreb romain de la préhistoire à la fin des byzantins , Paris, 2002 , PP., 241-257

7) Ibid , P., 258

* هو خيط المهندس أو البنّاء يمده على الأرض أو على الحائط

8) Courtois (Ch) , Timgad , antique Thamugadi , 1951 , P., 60

9) Gsell (S) , Atlas Archéologique d'Algérie , t., I , 2° édition , Alger , 1977, f, 16 , P., 13-16

10) Rebuffate (R) , The inscription of academie excavation in Africa , 1972 , PP., 69-75

11) Doublet (J) , and Jodin (A) , The anciens civilisation in north Africa , London , 1980 , PP., 7-94

12) Ibid , P., 95

13) عن هذه المدن المذكورة أنظر،

Gsell (S) , op cit ,f, 16, P. 16

14) Courtois (Ch) , Les Vandales ,Paris , 1955 , P., 104

15) Bloch (J) ,L'Afrique du V° siecle , Limoges , 1945,

16) Picard (G. C.) , La civilisation de l'Afrique romaine ,Paris , 1967, P. 130

17) Lezine (A) ,L'architecture antique de l'Afrique du nord m Paris , 1960, PP. 39-82.

18) عن إشكالية السكان أنظر،

Benabou (M) , La resistance africaine à la romanisation Paris, 1976 , P., 385

19) Despois (J) ,L'Afrique blanche , 3° edition , P.U.F., Paris, 1964 , P. 187

20) Picard (G.C) , La carte du théatre de Cherchell et le début de l'architecture , C.R.A.I , 1976 , P., 384

21) Toutain (J) ,Les cités romaines de Tunisie , Paris , 1896, P., 33
22) Courtois (Ch) , op cit , P.,105

23) محجوبي (ع)، المرجع السابق، ص، 506
24) عبد العليم (كمال)، المرجع السابق، ص، 506

25) Toutain (J) , op cit , P., 149
26) Leveau (Ph) , op cit , P., 250
27) Gsell (S) , Texte relatif à l'histoire de l'Afrique du nord , Herodote , Alger , Paris, 1916 , P., 185
28) Decret (F) , Fantar (M) ,L'Afrique du nord dans l'antiquité des origines au V° siecle , edit. Payot , Paris , 1981, P., 253
29) Ibid , PP., 253-254
30) Benabou (M) , op cit , P., 371
31) Monceau (P) ,Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines à l'invasion arabe , Paris , 1923, P., 2 .
32) Georges (A) , L'eglise de l'Afrique du nord , Algerie , Maroc , Paris, 1991, P.,32

33) هورس (مادلين)، تاريخ قرطاجة، ترجمة إبراهيم مالتس، بيروت، 1981، ص ص،68-69

34) Monceau (P), op cit, P., 3
35) Leglay (M) , Saturne africain , 2° volume , Paris, 1966 , P., 48
36) Georges (A) , op cit , P., 42

37) حركات ابراهيم، المغرب عبر التاريخ منذ عصر ما قبل التاريخ إلى دولة الموحدين، ج، 1، دار الرشاد الحديثة، المغرب، ص، 54

Mesnage (J.P.) , et autres , Etude sur l'extension du christianisme chez les berberes aux differentes epoques de l'histoire , (S.D) , P., 3
38) Ibid , PP., 18-19
39) Ibid , PP., 20-21
40) Saxer (V) , Saints anciens d'Afrique du nord , 1979, P., 11

41) ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ج، 7، القاهرة، 1284 هـ ، ص، 294

42) Mesnage (J.P.) , loc cit

43) منصوري (خديجة)، المرجع السابق، ص ص، 62-61

44) Mesnage (J.P.) ,loc cit ,
45) Ibid , PP., 25-26
46) Ibid , PP., 18-19
47) Ibid , P., 19
48) Ibid , P., 21

49) شنيتي (محمد البشير)، التغييرات الاقتصادية والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص، 269

50) نفسه، Decret (F) , Fantar (M) , op cit , P., 292)

51) Ibid , P., 291

52) منصوري (خديجة)، المرجع السابق، ص، 80

53) أيمار (أندري)، أوبوايي (جانين)، تاريخ الحضارات العام، ترجمة فريد داغر، بيروت 1964، ج، 2، ص، 562

54) جوليان (شارل أندري)، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة تونس، 1970، ص ص، 564-563

55)أيمار (أندري)، المرجع السابق، ص، 564

56) نفسه، ص، 564-563

57) نفسه

58) Monceau (.P.) , op cit , PP., 13-14

59) Ibid , PP., 100-105

60) Ibid , P., 110

61) Frend (W.H.C.) , The donatist church a movement of protest in roman north Africa , Oxford press , 1952 , P., 331

62) Tacite , Annales , trad., H. Boineque , 1965, T, III , 74

63) Ibid , VI , 23 ; Cagnat (R) , L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs , 1913 , P., 20

64) شنيتي (محمد البشير)، سياسة الرومنة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص ص، 116-99

65) Albertini (E) , Marçais (E) , Pergent (E) , L'Afrique du nord française dans l'histoire , Alger , 1955 , P., 60

66) Gsell (S) , H.A.A.N., t, I , P., 160 ; t, V, P., 123

67) Gsell (S) , La Tripolitaine et le Sahara au 3° siecle de notre ére , C.R.A.I., 1926 PP., 149-166

68) Pline l'ancien , liv., V, 2 , trad. J. Desanges , coll., univ., de France , 1980

69) Bordet (M) , Précis de l'histoire romaine , Paris , 1969 , P.,73

عبد اللطيف أحمد أمين، التاريخ الروماني، ص ص، 6-2

70) Mommsen (Th) , Histoire romaine , t., VIII , P., 162 Gsell (S) , H.A.A.N., t., VII , PP., 77-79

71) Dion Cassius , Histoire romaine , edit., Boissiers , 1955 , LXI, 25

72) شنيتي (محمد البشير)، الجزائر في ظل الإحتلال الروماني، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص ص، 60-53

73) شنيتي (محمد البشير)، سياسة الرومنة، الطبعة الثانية، الجزائر، 1985 ص ص، 47- 73

74) الصفدي (هشام)، تاريخ الرومان، بيروت، 1967، ص ص، 104- 221

75) نفسه، ص، 200.

76) 180 Alfaric , L'evolution intellectuelle romaine , Paris, 1970 , P.,

77) Gsell (S) ,Pflaum (H,G) , Inscription latine de l'Algerie , C.I.L.A , Paris, 1922 -66

78) عبد الوهاب (ح. ح.)، خلاصة تاريخ تونس، الطبعة الثالثة، 2000، ص، 18

79) Alfaric , op cit , P., 165

80) _Ahmed (S) , op cit, PP., 358-360

81) Battifol (P) , Le catholicisme de saint Augustin , P., ; Alfaric , op cit , P., 143

82) Pirenne (J) , Les grands courants de l'histoire universelle , Paris, 1960, P. 118

83) Faidherbe (G), Collection complete des inscriptions numidique, 1870, P., 15

84) Ibid ; Gsell (S), Pflaum (H.G), loc cit ;Willmans (G) , Mommsen (Th) , Corpus inscriptionum latinarum , VIII , 5 suppléments , Berlin , 1881

85) Battifol (P), op cit , P., 83

86) Gsell (S), H.A.A.N. , T, VII ,1956, P., 92

87) Albertine (E) , op cit , P., 55

88) Grimal (P), op cit, PP., 6-8 L'architecture romaine en Afrique du nord , Paris, 1960 , PP, 6-8 .

89) Balout (L), Vingt , année d'histoire algérienne , Paris, 1931, P., 10

90) شنيتي (محمد البشير)، سياسة الرومنة، ص ص، 72-A.A.A.68 ,Gsell (S)

91) Pline l'ancien , op cit , liv. V, P., 11

92) Albertini (E) , Marçais (E) , Pregent (E) , op cit , P., 60

93) Ahmed (S) , L'Afrique romaine, Paris , 1998 , PP., 322-331

94) Ibid , P., 331

95) Grimal (P), op cit , P., 18

96) Walter (G), Cesar , Paris, 1964 , P., 369

97) Gasco (J), La politique municipale de l'empire romain en Afrique proconsulaire de Trajan à Septime Severe , Rome , 1972, PP., 19-22

98) Ibid , P., 22

99) شنيتي (محمد البشير)، المرجع السابق، ص ص، 133 – 136

100) Gsell (S) , op cit , f., 8 , n° 2

101) Gsell (S) , H.A.A.N., t., VIII , P., 161

102) _Albertini (E) , Marçais (E) , Pregent (E) , op cit , P., 60

103) الناصري (أحمد علي)، التاريخ الحضاري الروماني، القاهرة، 1975، ص، 18.

104) Ahmed (S) , op cit , P., 348

خاتمة

بعد عرضنا لموضوع الاحتلال في بلدان المغرب القديم وسياسة الرومنة، توصلنا إلى النتائج الآتية :

1) استحواذ الرومان على الأراضي، وعلى مواردها الزراعية والحيوانية والمنجمية والحرفية.

2) استغلال الرومان للشعوب الإفريقية وفقا لاحتياجاتهم وخدمة لمصالحهم.

3) بتوطين معمريها في الولايات، أوجدت روما حلولا مؤقتة لمشاكلها، وبتهيئة الظروف المواتية لهم ومنحهم الامتيازات. أرادت روما تشجيعهم على البقاء هناك للاعتماد عليهم في سياسة الرومنة.

4) ببناء المنشآت المختلفة السياسية والإدارية والاقتصادية والحضارية، أراد المعمرون طبع المدن الإفريقية بطابع روماني، لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأهالي، وفقا لشروط معينة قصد ادراجهم داخل نظام معيشي محدد.

5) حصول بعض الأفارقة على الجنسية الرومانية بعد انخراطهم في الجيش. أو بعد ابراز ولائهم للسلطة، وتقزز البعض من كل شيء له علاقة بالمحتل، لذلك لم يترددوا في الثورة عليه، وفضلوا الالتحاق بالمناطق المستقلة، أو الأراضي الصحراوية القاحلة، رغم قساوة العيش فيها، بدلا من الخضوع.

6) ضماننا لسياسة الرومنة، أدخلت روما دياناتها ولغتها، وكما هو الحال بالنسبة للحياة السياسية والعسكرية، اختلفت مواقف الأهالي منها، حيث يوجد المؤيدين

والمساندون لروما، ووجد كذلك الرافضون لوجودها بينما وجدت مجموعة ثالثة التزمت الحياد.

7) رغم الجهود الكبيرة التي بذلتها روما لتحقيق أهدافها في الإمبراطورية عموما، كان للثورات الإفريقية الهائلة التي كانت تصلها، نتائج سلبية وخطيرة جدا، إذ أصبحت روما تعاني من تبعية اقتصادية شبه مطلقة، حيث لم تعد تعتمد في قوتها إلا على هذه الولايات وغيرها، والأخطر من هذا وذاك، هو استغلال بعض القادة الرومان المعارضين لهذه التبعية، بحجزهم السفن التي تمون روما، وتهديدهم لها بالمجاعة.

8) لا جدال في أن الحضارة الرومانية استهوت بعض الأفارقة، فبرز بينهم رجال دين يفهمون في الوثنية، ثم في المسيحية، كما نبغ مفكرون وأدباء أفارقة أثروا المكتبة اللاتينية والرومانية بمؤلفات رائعة، لكنهم لم ينسلخوا عن جلدتهم وحافظوا على مقومات شخصيتهم، ذلك أنه إذا كان رجال الدين ساعدوا أبناء وطنهم من الفقراء والمظلومين ماديا ومعنويا في حالات كثيرة، فإن كتابات الأدباء، وإن تعددت مواضعها فإنها لم تخل من تناول المواضيع التي لها علاقة بوطنهم الأم.

الفهرس

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين 3

تقديم بقلم مدير المركز 5

مقدمة 7

المدخل :

أوضاع بلدان المغرب القديم قبل الاحتلال الروماني

أولا : أوضاع قرطاجة منذ تأسيسها حتى عشية

الاحتلال الروماني 814 ق.م./ 146 ق.م. 11

ثانيا : أوضاع نوميديا منذ عصر الممالك حتى

عشية الاحتلال الروماني (القرن الثالث قبل الميلادي / عام 46 ق.م.) 22

ثالثا : أوضاع ليبيا قبل الاحتلال الروماني 30

رابعا : أوضاع موريطانيا قبل الاحتلال الروماني 33

الأوضاع في شبه جزيرة إيطاليا عشية تدمير قرطاجة 36

الباب الأول : الاحتلال الروماني لبلدان المغرب القديم

الفصل الأول : دوافع الاحتلال الروماني لقرطاجة ونوميديا

وموريطانيا القيصرية 53

ثانيا : الأسباب السياسية والاجتماعية للاحتلال الروماني لبلدان المغرب 61

الفصل الثاني : مراحل الاحتلال الروماني ومظاهر المقاومة
لشعوب المغرب القديم 63
مراحل الاحتلال الروماني من عام 46 ق.م. إلى عام 31 ق.م. 67
ثانيا : في الفترة من 30 ق.م. إلى 68 م. (عهد الأسرة اليوليوكلاودية) 71
ثالثا : عهد الأسرة الفلافية 96/69 م. 79
رابعا : في الفترة الممتدة بين 96/ 193 م. (عهد الأسرة الأنتونية) 81
خامسا : عهد الأسرة السيفرية من 193 إلى 235م. 84
سادسا : عهد الفوضى العسكرية بين 235 /268م. 86

الباب الثاني سياسة الرومنة عن طريق الجيش وإقامة السلام

سياسة الرومنة 101
مفهوم سياسة الرومنة 103
الفصل الأول : سياسة الرومنة عن طريق الجيش 111
أولا : الجيش البري 111
ثانيا : الجيش البحري في بلدان المغرب القديم 125
ثالثا : مراقبة الأراضي والأشخاص 128
رابعا : الطرقات 132
خامسا : التخوم 136
سادسا : آثار سياسة الرومنة عن طريق التجنيد على أهالي المقاطعات وعلى روما 138
الفصل الثاني : سياسة الرومنة عن طريق إقامة السلام الروماني 143
أولا : مفهوم السلام الروماني 143
ثانيا : أنواع السلام الروماني 144
ثالثا : أهمية السلام الروماني في سياسة الرومنة 149
رابعا : آثار السلام الروماني على روما وعلى الأهالي 154

الفصل الثالث :النظم الإدارية لسياسة الرومنة 155
أولا : مفهوم المقاطعة 155
ثانيا : الوضع القانوني للمدن الحرة والمعفاة 158
ثالثا : الأوضاع القانونية للمدن الخاضعة 160
رابعا : القرى والمدن الرومانية 160
خامسا : البلديات 162
سادسا : المستعمرات 166

الباب الثالث : النظـم الحضاريـة الرومانيـة

الفصل الأول : النظم الحضارية الرومانية من خلال المدن 195
1) المدن البحرية : 199
2) المدن الداخلية الفلاحية: 199
3) المدن العسكرية: 199
الفصل الثاني : النظم الرومانية من خلال الديانة والتعليم 225
أولاً : سياسة روما الدينية : 225
روما والديانات التوحيدية في المغرب القديم : 230
الفصل الثالث : آثار سياسة الرومنة على شعوب المغرب القديم 251
1) من الناحية القانونية 251
- من الناحية الاجتماعية 254
ثانيا - اللغة اللاتينية 259
ثالثا- مدى نجاح روما في سياسة الاحتلال وسياسة الرومنة 264
خاتمة 281